مِنْ نَهْرِ "كابل"

إلى

نَهْرِ "اليرموك"

جولة في غرب "آسيا"

أبو الحسن علي الحسني النّدوي

٩١٥
دو

دار الإيمان

مِنْ نَهْرِ "كَابُل"
إلى
نَهْرِ "اليَرْمُوك"

جَولَةٌ في غَرْبِ «آسْيَا»

أبو الحَسَن عَلي الحَسَني النَّدْوي

الطبعة الثانية

١٣٩٦ هـ
١٩٧٦ م

حقوق الطبع محفوظة

دار الإيمان
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد كان لمؤلف هذا الكتاب شرف قيادة وفد زار ستة أقطـــار إسلامية وعربية في غرب آسيا . وفي الشرق العربي ، وهي : أفغانستان وإيران ولبنان وسـوريا والعراق والأردن . وكان هذا الوفد من ضمن الوفود الكثيرة التي أرسلتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة في سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م إلى مختلف أنحاء العالم ، وانتظمت القارات

الخمس ؛ للتعرف على واقـــع المسلمين وأوضاعهم ومؤسساتهم ومتطلباتهم والتعريف بأهداف الرابطة ورسالتها .

وقد كانت الجولة التي يتحدث عنها هذا الكتاب في فترة بين ٤ من حزيران ١٩٧٣ و ٢٠ من آب ١٩٧٣ م ، وقد سجل المؤلف أخبار هذه الجولة وانطباعاته وملاحظاته ، وما دار فيها من حديث وما ألقاه فيها من محاضرات ، وما حظي به من لقاءات وزيارات ، معتمداً في ذلك على ذاكرته غالباً ، وعلى بعض الأشرطة التي كانت معه نادراً ، فجاء الكتاب مصوراً لجوانب الحياة في هذه البلاد ، وما تواجهه من قضايا ومشكلات ، ومانعانيه من صراع فكري وحضاري ونفسي ، وما تحتاج إليه من إرشاد أو إسناد ، حتى يكون القارىء والمعني بمصير هذه البلاد على بينة من أمرها ، ووعي لطبيعة الأمور والأوضاع في هذه البلاد .

ولا بد من التنبيه على نقطتين في هذه الكلمة الوجيزة :

١ - إن ماجاء في هذا الكتاب من انطباعات وملاحظات ومقترحات وانتقادات إنما هي ظلال وانعكاسات في نفس المؤلف ، أحدثتها هذه الجولة ، وهي ترجع إلى دراسته وتجاربه الخاصة وآرائه ونظرياته التي اقتنع بها ، وهو مسؤول عنها شخصياً وهو

يعبر في ذلك عن آرائه وانطباعاته ، ولا يتكلم في ذلك بلسان الرابطة دائماً ، وليس من الضروري أن توافق على كل ماجاء في هذا الكتاب ، ولا تعتبر الرابطة مسؤولة عن كل ما تضمنه هذا الكتاب من آراء وملاحظات وأفكار .

٢ ـ لقد تحرى المؤلف الدقة والإتقان وتوخى الصدق والإنصاف وعدم الانحياز ، والوصول إلى الحقيقة بقدر الامكان ولكنه لا يأمن أن يكون قد تورط في إفراط وتفريط ، أو تعرض خطأ أو سوء فهم في الحكم على الأشخاص أو الحركات والمؤسسات ، وذلك يقع كثيراً لمن لاتمكنه الظروف من الاقامة الطويلة والمعرفة الشخصية وتحل الأمور وتنقيح الأخبار ، وقد وقع كثير من الجوابين والرحالين فريسة هذه الأخطاء والأوهام ، فمعذرة إلى القارىء الكريم من أبناء هذه البلاد ، إذا وجد شيئاً من هذا النوع ، فالعصمة لله وحده .

ولما كانت بداية هذه الرحلة من كابل عاصمة أفغانستان وكانت نهايتها عمان عاصمة الأردن ، حلا للمؤلف أن يسمي هذا الكتاب بـ « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » وهما نهران عظيمان في هاتين المدينتين تكتنفهما حوادث تاريخية إسلامية ، وقد وصل بينهما المد الإسلامي في القرن الأول .

وقد سبق للمؤلف تأليف كتاب « مذكرات سائح في الشرق العربي » صدر من القاهرة في سنة ١٩٥٢ فجاء هذا الكتاب حلقة ثانية من هـذه السلسلة ، يعرف بها القارىء ما جد من حوادث وما وقـع من انقلاب ، وتطور في فترة لاتتجاوز ٢٢ سنة .

ونسأل الله جاهدين مخلصين أن ينفع بهذا الكتاب وينير به السبيل ، ويقوي به العزم على خدمة الرسالة الاسلامية وخدمة هـذه البلاد وحمايتها من الأخطار المحدقة والتحديات المعاصرة ، وعلى الله قصد السبيل .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

في أرض الغُـزَاة وَالفَـاتِحين

دور أفغانستان في تاريخ الاسلام وفي تاريخ الهند

إنّ أفغانستان هي البلد الذي ظل في تاريخ الإسلام معدن الفروسية ، وعرين الأسود ، ومولد الفاتحين ، ومعقلا من معاقل الاسلام ، وحين تحدّث أمير البيان الأمير شكيب أرسلان عن هذا البلد أخذته نشوة الحماس الاسلامي ، وتمثل له تاريخ هذا البلد المناضل ، فأطلق عنان القلم ، وقال : « ولعمري لو لم يبق للإسلام في الدنيا عرق ينبض لرأيت عرقه بين سكان جبال الهملايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً » (١) .

وهو البلد المجاور للهند الذي اقترن تاريخه بتاريخها منذ فجر القرن الخامس الهجري (٢) ، وتداخلت حضـــارة إحداهما وثقافتها

---

(١) حواشي « حاضر العالم الاسلامي » للأمير شكيب أرسلان ، المجلد الثاني ص ١٩٧ .

(٢) حين غزا السلطان محمود الغزنوي (المتوفى ٤١١ هـ) الهند ، وأسس فيها حكومة إسلامية .

وآدابها وأساليب حكمها في حضارة الأخرى وثقافتها وآدابها وسياستها ، وتفاعلت هذه العوامل ، واختمرت حتى حدث من ذلك مزيج من حضارة وثقافة وإدارة لم تكن أفغانية خالصة ولا هندية مجردة ، حتى ولا إسلامية بحتة ، سمّي في العهد الأخير بالحضارة الاسلاميّة الهنديّة .

وقد حكمت الهند منذ القرن الخامس الهجري إمّا سلالات وأسر تركية الأصل ، قد دخلت الهند عن طريق أفغانستان ورافقها فرسان ومتطوعون من البلاد التي مرّوا بها ، كالغزنوية والمماليك والخلج والتغالقة والمغول أخيراً ، وإما كانت أفغانية الأصل والحضارة والتقاليد ، كالأسر الغوريّة واللوديّة والسوريّة ، وكانت الهند منتجع أصحاب الطموح والفروسية ، والعصاميين والنوابغ الذين لم يجدوا مجالاً واسعاً لإرضاء غريزة الطموح والتسامي في بلادهم المحصورة بالجبال فيدخلون الهند — وقد أصيبت في فترات تاريخية بالإعياء الفكري وضعف في الإرادة والإدارة واضطراب في الحكم — فيدخلون وهم متدفقون بالحيوية والنشاط زاخرون بالطموح والحماس ، أصحاب جلد وتقشف ، وأحلاس خيل ومغاوير حرب ، فينتصرون بالعدد القليل على العدد الكثير ، ويؤسّسون

حكومات قوية فتية ، ويدخلون في هيكل المجتمع الهندي دماً وفكراً جديداً .

وكان كثير من الأسر الأفغانية التي تقطن في داخل البلاد أو على حدودها تتزح لضيق مواردها إلى الهند في التماس الرزق الكريم أو لمركز العظيم ، وقد اتجهت هذه الموجات البشرية منذ العصر الاسلامي الأول ، وكانت تحمل معها خير خصائصها السلالية ومواهبها الموروثة ، وتضيف إليها ما تكتسبه من الشعوب الهندية والمجتمع الهندي من خصائص وأعراف وآداب إسلامية وأخلاق عنصرية فتزداد بذلك قتوة ، ومروءة على مروءة ، وذكاءاً على ذكاء ، حتى تتفوق — في كثير من الأحيان .. على أبناء وطنها القديم في الشجاعة والنخوة والإباء والشمم ورقة الشعور والطاقة الحس ، وقد انتشرت هذه القبائل في الهند ، وكوّنت أمارات واقطاعات ، وتكوّن منه جهاز الحكم في الحكومات المختلفة ، وكانت مادة الجيش في كل عهد وعموده الفقري .

وظل المسلمون مدة طويلة ينظرون إلى أفغانستان كبلاد تصدّر إلى الهند ولاة وحكاماً وإداريين وعسكريين ، وكانوا يسمونها « ولايت »[1] كما اعتادوا أن يسمّوا الجلترا وعاصمتها بذلك في

---

[1] يعني مركز الأمر والحكام .

الحكم الإنجليزي ، وكانوا يسمّون الوارد من بلاد أفغانستان « ولايتي » ولم تقتصر حركة « التصدير » على الغزاة والفاتحين والقادة العسكريين بل عمت وتوسعت ، فورد من أفغانستان إلى الهند خيرة العلماء والأساتذة الذين أحدثوا في الهند حركة علمية جديدة (١) وأتحفوها ببعض الكتب والمؤلفات التي شغل علماء الهند زمناً طويلاً بتفهمها وشرحها وتدريسها .

نظرة مسلمي الهند الى أفغانستان :

وكان المسلمون في الهند ينظرون إلى أفغانستان في فترات حالكة وساعات عصيبة يشتد فيها اليأس ، ويغلب فيها الاتكال على المفاجئات والنجدات الخارجية — كبلاد منقذة لها من هذه الأزمات ، وقد استرسلوا في الخيال ، وأغرقوا في التفاؤل حتى وصلوا في ذلك إلى حد الأحلام والأماني المعسولة ، والتواكل الذي أضر بهم ، وقد تحقق هذا الظن مرة بشكل رائع حين استفحل أمر المرهته ، وكادوا يستولون على الهند كلها ويقضون على البقية الباقية

---

(١) كالعلامة محمد أسلم الهروي (م ١٠٦١ هـ) وابنه البارع مير زاهد صاحب الكتاب المعروف « مير زاهد رسالة » في المنطق (م ١١٠١ هـ) اقرأ ترجمتي وتراجم العلماء الأفغان في الهند في كتاب « نزهة الخواطر » للدكتور العلامة السيد عبد الحي الحسني ، طبع المجلد الخامس والسادس من هذا الكتاب .

بين نفوذ المسلمين واعتبارهم السياسي ، وكانت حكومة « دهلي » لعبة في أيديهم ، والمسلمون تحت رحمتهم ، وعجزت قوة المسلمين العسكرية المصابة بالشلل والإعياء والتمزق عن مقاومة هذه القوة الناهضة ، وصار المسلمون ينظرون إلى أفغانستان كمخلص لهم من هذا الاحتضـــار واستحث بعض زعماء المسلمين (١) همّة القائد العسكري الشرقي الأكبر أحمد شاه ابدالي ، الذي علا نجمه ، وظهرت صلاحيته القيادية في معـارك حربية كثيرة ، وكان ذلك في سنة ١٧٦١ م واجتمعت القوات الإسلامية ـ على اختلاف نزعاتها ومذاهبها ـــ تحت رايته وحاربت « مرهته » فكانت معركة حاسمة وضربة قاضية عليهم ، ولم تقم لهم قائمة بعدُ .

وقد تطرّف المسلمون في اعتمادهم الزائد على أفغانستان والنظر إليها كمسعف أو منجد أيام الحكم الإنجليزي ، فكانوا يستشرفون الحدود الشمالية الغربية وينتظرون أن يدخل من مضيق « خيبر » قائد كأحمد شاه بجيشه الكثيف ، ويحررهم من حكم الإنجليز الأجنبي ، وكان طبيعياً أن يخيب ظنهم في كل مرة ، فقد شغلت

---

(١) كان في مقدمتهـــم حكيم الإســلام الشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) وله رسائل كتبها إلى القائد الأفغاني ، تدل على بعد نظره ومعرفته بالأوضاع ، انظر كتاب رسائل ولي الله السياسية للبروفيسور خليق أحمد نظامي .

أفغانستان بقضايها الداخلية ، وبالمحافظة على استقلالها المهدد من روسيا من جانب ومن بريطانيا من جانب آخر ، وكانت أصغر وأضعف من أن تهاجم الهند وتنتصر على الحكومة الإنجليزية القوية الموطدة ، وعلى كل فقد عاش المسلمون وكثير من المواطنين الهنديين بالحرية والاستقلال زمناً رغداً من هذه الأماني والأحلام .

ولما قتل الأمير حبيب الله خان بن عبد الرحمن خان سنة ١٩١٩ م وبويع ابنه أمان الله خان بالملك ، ووقف أمام السياسة الانجليزية موقفاً فيه القوة والرجولة ، وحقق الجيش الأفغاني على الجيش الإنجليزي تحت قيادة الجنرال محمد نادر خان بعض الانتصارات ؛ شغف المسلمون وأنصار حركة التحرير بأمان الله خان شغفاً عظيماً ، وكان الحديث عنه حديث المحافل والشغل الشاغل ، وضاق المسلمون ذرعاً بالسياسة الانجليزية ، وضاقت عليهم البلاد بما رحبت وانطلقت فيهم موجة الهجرة إلى أفغانستان ، فهاجر مئـــات من المسلمين الغيارى ، والشباب الجامعي الثـائر إلى كابل ، ولما كانت هذه الخطة غير مدروسة ولم يفكر أحد من زعمائها في عواقبها ولم يتفاهموا مع الحكومة الأفغانية أخفقت هـذه الحركة ، وواجه أصحابها مشاكل كثيرة .

ثم وقع في أفغانستان من الاضطراب ما يعرفه الجميع ،

شذوذ أمان الله خان في بعض تصرفاته ، وخروجه عن العادات الإسلامية والتشبه بالإفرنج تقليداً لمصطفى كمال ، وسفور قرينته ، الذي هاج عليه الشعب الأفغاني ، واستغله الإنكليز الذين كانوا يتربصون وقضوا به وطرهم في التخلص منه ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٨ م ، وخلع الملك أمان الله خان ، واستولى حبيب الله المعروف بـ « بچه سقه » على البلاد ، وأقلقت هذه الحوادث أهل الهند ، واهتموا بها اهتمامهم بقضية بلادهم ، فكانت موضوع كل متحدث ، حتى جاء الجنرال محمد نادر خان ، وأخذ زمام الحكم في يده واستقرت الامور ، وفرح الذين يهمهم مصير تلك البلاد .

ولا أنسى دعوته الدكتور محمد إقبال وسر رأس مسعود رئيس الجامعة الإسلامية في عليكره ، والعلامة السيد سليمان الندوي إلى كابل سنة ١٩٣٣ م للبحث والمذاكرة في قضايا تعليمية وإسلامية ، وقد لبّوا دعوته وانتهزوا هذه الفرصة لزيارة هذه البلاد العريقة في تاريخ الإسلام ومقابلة الملك المسلم المجاهد ، ولا أزال أذكر عودة أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي وحديثه الشائق المثير عن كابل ومعالمها ، وماتركته مقابلة الملك في نفسه من الاثر الطيب العميق ، ولكنه فوجىء وهو مقيم في لكهنؤ بنبأ اغتياله وقد حزن لحادث حزناً شديداً ، وقد كان أمر الله قدراً مقدوراً .

وكانت الحدود مفتوحة بين أفغانستان والهند أيام الحكومة الإنجليزية يرد منها التجار وطلبة العلم والعلماء ، وكان أهل البلاد ينظرون إليهم نظر إكبار واحترام . ويعتقدون فيهم قوة فائقة ، ونخوة زائدة ، وكنا نراهم في الصبا في القرى والمدن يحملون معهم بضائع بلادهم ويحافظون على الصلوات محافظة شديدة ، وكان فيهم فضل قوة جسمانية وهيئة ولباس يجذب الأنظار ويسترعي الانتباه ، فكنا نتهيبهم ونحن أطفال ، ونسميهم « آغا » ولم نجرّب ونحن في أيام الصبا إلا صنفاً واحداً من هؤلاء التجار والمتنقلين في البلاد ، فلما تقدمنا في السن والدراسة قرأنا عن جيراننا الشيء الكثير ، وعرفنا الشيء الكثير فتاقت نفوسنا إلى زيارة هذه البلاد.

تأخير زيارة أفغانستان

وجاء دور الرحلات في حياتي ، فكانت إلى الشرق العربي ، ولم تبق عاصمة من عواصمه إلى وزرتها ، وزرت « تركيا » مرتين ، وأوربا ثلاث مرات بما فيها من عواصم شهيرة ومدن كبيرة ، وإسبانيا — الفردوس الاسلامي المفقود — وزرت بعض بلاد المحيط الهندي في شرق آسيا . وكانت كل القرائن تدل على أن تكتب لي زيارة لهذا البلد المجاور القريب خصوصاً بعدما تحررت الهند وتوثقت بينها وبين أفغانستان صداقة ، وكان لنا في كابل وغزنين أصدقـــاء ورجال تربطنا بهم رابطة الدين والعلم .

وكان لأفغانستان دور خطير في تاريخ الإصلاح والتجديد والكفاح والجهاد الذي انبثق عن دعوة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد المتوفى ١٢٤٦ هـ وجهاده ، وفي حركته التي قادها فقد وصل إلى مركزه الذي بدأ منه نشاطه وتحركاته العسكرية عن طريق أفغانستان ، واستقبلته البلاد استقبالاً منقطع النظير ، وتقاطر عليه أهلها حكومة وشعباً ، وطابت إقامته في كابل ، وكانت له مع الأسرة الحاكمة[١] حينئذ صلات تضعف أحياناً ، وتقوى أحياناً ، وله معهم قصة طويلة زخرت بها كتب التاريخ[٢] ، ولو عرف أمراء أفغانستان في تلك الفترة التاريخية الحاسمة قيمة الوقت وعرفوا فضل هذه الدعوة ومكانة قائدها العظيم ومدى إخلاصه وتأله وتأثيره ؛ لكان الإسلام والمسلمين في هذه المنطقة تاريخ أجمل وأشرف بكثير من تاريخها اليوم ، وقد ألفت كتاباً في سيرة هذا الإمام وتاريخ هذه الدعوة وأنا في ريعان الشباب ، وزرت المنطقة التي وقعت فيها المعارك وقام فيها نظامه الإسلامي في الحدود الشمالية الغربية أكثر من مرة ، ولم تكتب لي زيارة أفغانستان مع ولعي بهذا التاريخ وعكوفي على البحث والتحقيق في هذا الموضوع وحبي للشعب الأفغاني الباسل الغيور ، ووطنه العريق في النضال في سبيل الاسلام وفي سبيل الاحتفاظ بالاستقلال والكرامة .

---

(١) وهي التي تحكم أفغانستان الآن .

(٢) اقرأ كتاب المؤلف « إذا هبت ريح الإيمان » .

في وفد رابطة العالم الاسلامي

وجزى الله رابطة العالم الاسلامي خيراً إذ أتاحت لي فرصة زيارة هذه البلاد ، وهيأت لي أسبابها وتغلب جميعها وإخوانها على معاذيري وكثرة أشغالي والعوائق التي تعترضني في تحقيق هذه الأمنية ، فشكلت وفداً من وفودها يزور أفغانستان وإيران وبعض الأقطار العربية في غربي آسيا ، واختارت اثنين من أعضاء المجلس التأسيسي للرابطة ليكونا عضوين في هذا الوفد واختارت الدكتور عبد الله عباس الندوي المسؤول عن المنظمات الاسلامية في الرابطة ، ليكون سكرتيراً للوفد ومرافقي الخاص ومساعدي في هذه الرحلة ، إلا أن العضوين الكريمين ، وهما فضيلة الشيخ سعدي ياسين من بيروت ومعالي الشيخ حنيفة محمد حنيفة من سيلان — لم يتمكنا من الوصول إلى لقند لبعض الأسباب ، فوقع اختيار الأمانة العامة على الكاتب الاسلامي المعروف سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية وأستاذ الثقافة الاسلامية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، فكان اختياراً موفقاً قد صادف أهله ، ووصل إلى كابل من مكة رأساً يوم الأحد ٣/ يونيه ١٩٧٣ م صباحاً وتأخر سفرنا لبعض الأسباب إلى يوم الاثنين ٤/ يونيه مساءً .

وكانت الأمانة العامة وعلى رأسها معالي الشيخ محمد صالح القزاز الأمين العـــام للرابطة - قد اتصلت بالجهات الرسمية في أفغانستان وبسفارة المملكة العربية السعودية في كابل بشأن هذه الزيارة وتخطيط برامجها ، وتمكين الوفد من القيام بمهمته وأداء رسالته على أفضل طريق ، وقد رحبت حكومة أفغانستان بهذا الوفد الذي يمثل أكبر مؤسسة إسلامية يمثل فيها أكبر عدد من كبار علماء الأقطار الاسلامية ، وقادة الرأي وأصحاب الفكرة ، وتقوم في بلد له في قلوب المسلمين أشرف مكان ، ويشرف على هذه المؤسسة جلال الملك فيصل المعظم خادم الحرمين الشريفين والداعي الأكبر إلى التضامن الاسلامي .

وأخت - والأفغان معروفون بالاحتفاء بالضيوف والحرص الشديد على إكرامهم - على أن ينزل الوفد في ضيافتها الكريمة ، وأن تكون وزارة المعارف هي النائبة عنها والقائمة بتيسير مهمته ورسم مخططه وبرامج الزيارة واللقاءات ، وقبلت السفارة شاكرة هذا العرض الكريم .

في كابل :

وكان توجهنا من دهـــلي مساء يوم الاثنين ٤ يونيه بطائرة أفغانية ، ولما أعلن المذيع دنو الطائرة من كابل كان لهذا الاسم رنين

في الآذان وحنين في القلوب فقد آن لأمنية قديمة أن تتحقق ، ووصلت الطائرة إلى مطار كابل في الساعة الخامسة نهاراً بتوقيت كابل ، وكان الطقس مقبولاً وأميل إلى الاعتدال بالنسبة إلى طقس دهلي القاسي ، وكان في استقبالنا سعادة سفير المملكة العربية السعودية الصديق القديم والأخ الأكبر الحميم الشيخ محمد الحمد الشبيلي سفير المملكة في دهلي سابقاً ، وقد أحبه المسلمون في الهند وأحبهم . وسعادة الأستاذ علي الفوزان المستشار الأول في السفارة ، وسعادة الأستاذ أحمد محمد جمال عضو الوفد ، والأستاذ غلام محمد نيازي عميد كلية الشريعة في جامعة كابل ، وفضيلة الشيخ محمد إسلام تسليم المشرف على المدارس الدينية والتعليم الديني في وزارة المعارف الافغانية ، وسيد محمد يعقوب الهاشمي مدير دار الحفاظ في كابل ، والاستاذ عبد الرسول سياف أستاذ كلية الشريعة ، وهو الذي اختارته وزارة المعارف ليكون مرافقاً لنا في هذه الزيارة ومترجماً للوفد ، وعدد من علماء كابل ورجال العلم والدين .

وكان نزولنا في فندق « أوتيل كابل » ومن حسن المصادفة أن الوفد المؤلف من سماحة مولانا السيد سليمان الندوي والعلامة محمد إقبال وسرّ راس مسعود نزل في هذا الفندق قبل أربعين عاماً ؛ إلا أنه قد تجدّد بناؤه وأدخلت عليه تحسينات كثيرة ، وكانت نافذة الغرفة التي نزلت فيها تفتح على مقبرة الأمير عبد الرحمن

الغازي الذي كانت له مواقف محمودة مشرفة في محاربة الإنجليز وفي نشر الإسلام في المناطق التي ظلت بعيدة عنه (١) . فاستحضرنا تاريخه المجيد وأيامه الطيبة .

في ضيافة وزارة المعارف وتوجيهها

وكانت الايام التي كنا نقضيها في كابل ستة أيام ، وضعت وزارة المعارف برامجها بالتعاون مع السفارة السعودية للزيارات واللقاءات والحفلات والاحاديث ، وكان الفضل الاكبر في هذا التخطيط والرسم بل في الاهتمام بموضوع الوفد والاحتفاء به للأستاذ الكبير ريوهاند غلام محمد نيازي عميد كلية فاكتوله شرعيات — بوهنتون — كابل ، يعني عميد كلية الشريعة في جامعة كابل ، وكان أول التوفيق اختيار الاستاذ عبد الرسول (٢) سياف أستاذ

---

(١) يقول الأمير شكيب أرسلان في حواشيه المعروفة عن الأمير عبد الرحمن خان بعدما ذكر فضائله الادارية والسياسية : « ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التي هدى الله أهلها على يده إلى الاسلام ، فسماها « نورستان » وبالاجمال فقد ذاقت مملكة الأفغان في زمانه طعم الراحة وعرفت معنى الوحدة ، وما زال يسدد أمورها إلى أن قبضه الله إليه سنة ١٣١٩ هجرية وفق ١٩٠١ ميلادية ، وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر في سداده وحكمه ومضاء عزيمته » (حاضر العالم الاسلامي ، المجلد الثاني ، ص ٢٠٩) ،

(١) إن هذه التسمية محل نظر (وأمثال هذه الأسماء شائعة في بلاد العجم ، وكان الأولى أن يكون الاسم عبد رب الرسول .

كلية الشريعة كمرافق ومترجم ، وهو رجل مهيأ لهذه المهمة الدقيقة الصعبة ، فكرة ومقدرة وعقيدة وحماساً ، ولم أجد مترجماً أقدر على الترجمة وأكثر إخلاصاً ووفاءً لما ينقله من لغة المتحدث إلى لغتهم ، وله اتصال وثيق بالشباب الجامعي واهتمام خاص بالتوجيه الاسلامي والتربية الفكرية على الاسس السليمة في طلبة الكليات والجامعة ، وقد تخرج من كلية أصول الدين في الأزهر ، وقرأ بعض مؤلفاتي قبل أن يلقاني ، وهو وكثير من زملائه معجبون بكتب الأستاذ سيد قطب والأستاذ المودودي ومؤلفات كاتب السطور ، وحريص على نقلها إلى لغتي البلاد الفارسية والبشتوية ، ويشاركه في هذا الاتجاه أستاذان آخران وهما الدكتور محمد موسى توانا وبرهان الدين رباني ، والأخير تراجم منشورة وكتابات مطبوعة.

وكانت الأيام الستة التي قضيناها في كابل قليلة بالعدد غير كافية بالنظر إلى أهمية البلاد ، وسعتها ، ولكنها كانت كبيرة القيمة كثيرة الجدوى بالنظر إلى البرامج والأعمال . وقد دفعنا غرامة قصر الإقامة — الذي كنا مضطرين إليه لبعض الأسباب — وتحملنا عقوبته في الاشتغال المرهق والعمل الدائب والبرامج المتصلة بعضها ببعض ، فقد تجتمع في يوم واحد أربعة برامج أو خمسة ، فيها زيارة المعاهد الكبيرة والحديث فيها ولقاء شخصيات بارزة وحضور

مآدب ، وكنا لا نرجع في بعض الأيام إلا متأخرين في الليل متعبين لكثرة التنقل والحديث والسهر ، ولكن كان فيما كنا نلقاه من ترحيب إخواننا الافاضل وحماسة الشباب وحسن استجابتهم تعويض كريم لنا كنا نبذله من قوتنا ونشاطنا ، ونفقده من راحتنا واستجمامنا .

زيارة المعاهد العلمية والمراكز الثقافية

وكانت في مقدمة المعاهد العلمية والمراكز الثقافية التي زرناها وتحدثنا إلى أساتذتها وطلبتها مدرسة أبي حنيفة في « بكرامي » من ضواحي كابل ، وهي مدرسة تشتمل على المراحل الثلاث الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، وقد طاف بنا مدير المدرسة الفاضل الأستاذ محمد سيلاني على فصولها ورواقاتها ومطعمها ، ثم تحدثنا إلى عدد كبير من الشباب والأساتذة وطمأنونا على أن المستمعين يفهمون اللغة العربية فلم نحتج إلى ترجمان ، وكان المعهد الثاني الذي زرناه مدرسة دار الحفاظ وقد استقبلنا مديرها السيد محمد يعقوب الهاشمي وعقد حفلة تكريم حضرها أساتذة الدار وعدد من علماء كابل وشيوخه ، والمعهد الثالث الذي زرناه دار العلوم ، وهو المركز العلمي الديني الرئيسي في كابل وأكبر مدرسة دينية في العاصمة ، وسمعت أن رئيس الوزراء الحالي الدكتور محمد موسى شفيق من

المتخرجين فيها ، وفيها أساتذة فضلاء وشيوخ أجلاء ورئيس الأساتذة فيها وشيخ الحديث هو الشيخ محمد كل ، وقد عقدت في فنائها حفلة كبيرة حضرها أكثر علماء البلد وكثير من الأعيان والوجهاء واستقبل الوفد بحماسة وحفاوة ، وتكلمت أنا والأستاذ أحمد محمد جمال وكان حديثي عن مآثر خليفة رسول الله أبي بكر الصديق في غيرته على الدين وحمايته من المحرفين والمرتدين ، وكلمته المأثورة الخالدة : « أينقص الدين وأنا حيّ » ومسؤولية العلماء في بلادهم ، وأرسلنا النفس على سجيتها لأن الجو علمي ديني ، وأكثر الحاضرين يفهمون اللغة العربية .

وكان في مقدمة المؤسسات العلمية الكبيرة التي سعدنا بزيارتها والتحدث إلى أساتذتها وشبابها : كلية الشريعة ، وهي المكان الطبيعي لأعضاء الوفد الذين ينتمون إلى الأسرة العلمية الدينية ويشتغلون بالبحث في الموضوعات الشرعية ، وهي المضيفة الحقيقية للوفد ، وعميدها الدكتور غلام محمد نيازي من كبار الأساتذة والباحثين المتعمقين في فهم الدين والمتوسعين في الدراسات الاسلامية، وقد عقدت الكلية حفلة عشاء للتعارف بالإخوان والزملاء الأفاضل، وإليها يرجع الفضل في الحفلة الكبيرة التي انعقدت في مدرج جامعة كابل الكبيرة ، وحضرها بعض السفراء وكبار الأساتذة والمثقفين

والموظفين وعدد كبير من طلبة الكليات والشباب الجامعي ، ونص المحاضرة التي ألقيت فيها سيمر بالقارىء قريباً .

وزرنا ثانوية « ملالي » للبنات ، المنسوبة إلى سيدة أفغانية اسمها « ملالي » قادت حركة الاستقلال ، وألقى فيها سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال كلمة لطيفة تلقي ضوءاً على مركز الفتاة المسلمة في الشريعة الاسلامية وحقوقها وكرامتها ومكانتها في المجتمع، وكنا نشعر ونحن في هذه الثانوية أننا في معهد للبنات في عاصمة أوربية أو مركز من مراكز الثقافة الغربية ، وقد كان السفور عامّاً يشوبه شيء من الحياء الذي امتاز به الشعب الأفغاني ، وقد وجهت إلى الخطيب بعض الأسئلة في رزانة وتحفظ ، وأجاب عنها في لباقة ولياقة ، وهو صاحب اختصاص في موضوع حقوق المرأة المسلمة ودراسة مقارنة للتشريع الاسلامي والتشريعات الأجنبية، وطالبت الناظرة أن تصدر فتوى جماعية في تحريم حقّ تعدّد الزوجات لأنه إهانة للمرأة ، وشرح الأستاذ الأسباب التي جعلت الاسلام يبقي على إباحة هذا الحق .

وزرنا ثانوية للبنين تسمّى « مدرسة الاستقلال » على أحدث طراز يغلب عليه الطابع الفرنسي (ومديرها الاستاذ عبد الهادي تثقّف في فرنسا) وكان لي فيها شرف التحدث إلى الشباب ،

وكان حديثي يدور حول (المثل الكامل) أو القدوة وما لها من تأثير في تربية الشباب وصياغة السيرة والاخلاق .

حديث مع السيدات الأفغانيات « المتجددات »

وكانت السفارة العربية السعودية حريصة شديدة الحرص على الاستفادة والإفادة من هذه الفترة القصيرة التي نقضيها في كابل ، وانتهـــاز فرصة لعقد ندوات علمية ودينية وللتعرف على أبرز الشخصيات المثقفة من مختلف الطبقات ، فعقدت ندوتين في منزل سعادة السفير الواسع العامر ، إحداهما ندوة للسيدات المسلمات المنتميات إلى البيوتات الكريمة والاسر المحترمة ذات الاتجاه الديني ، ولم تكن السيدات اللاتي حضرن هذه الندوة ثائرات على العقيدة الاسلامية ، متنكرات للدين رغم ثقافتهن العصرية .

تغلغل الثقافة العصرية وأفكار المستشرقين في المجتمع الأفغاني النسوي

ولكن لاحظنا أن المدنية الغربية قد قطعت شوطاً بعيداً في هذه البلاد ، وأن الثقافة الغربية قد آتت أكلها يانعة ناضجة ، وأن المسافة بين الفترتين ١٩٢٨ م — و ١٩٧٣ م كانت واسعة بعيدة ، فقد كان الشعب الافغاني إلى عهـد أمان الله خان متمسكاً بالتقاليد الاسلامية الافغانية عاضاً عليها بالنواجذ ، حتى بلغ في ذلك حد التطرف والمغالاة ، وكان نتيجة ذلك أن خروج الملك

أمان الله خان عن بعض هذه التقاليد أحدث ثورة أطاحت بعرشه ، أما الوضع الآن فمختلف جداً ، إنها مسافة قصيرة بالحساب الرياضي ، وهي مدة خمس وأربعين سنة ، ولكن المسافة الفكرية والثقافية هي مسافة شاسعة يقطعها بعض الشعوب في قرن ، فقد أصبح الحجاب الآن رمزاً للتخلف والجهل والفقر ، ولذلك انكمش ولجأ إلى القرى والأرياف وبيوت بعض العلماء المحافظين والفلاحين البعيدين عن الحضارة ، وكان اللباس أفرنجياً خالصاً . ولكن البيئة الهندية والطبيعة الأفغانية المسلمة كانت لا تزال لها بقايا في حديث هؤلاء السيدات المسلمات المثقفات ، ولم تكن هنالك ثورة عارمة على الدين وعلى الشريعة الاسلامية ولم يبلغن إلى حدّ السخرية والاستهزاء بالدين ، بل كن في غالب ما يتحدثن به محتشمات عارفات قيمة الدين ومكانته ، يبدين رغبتهن في معرفة مكانة المرأة في الاسلام وما منحها من حقوق وكرامة ، وكانت أسئلتهن تنمّ عن مدى تأثير كتابات المستشرقين ، وما قاموا به من دعاية دقيقة مصمّمة تصميماً حكيماً حول الاسلام ومبادئه ونظمه ، وما نشرته الحضارة الغربية من فكرة مساواة المرأة والرجل مساواة كليّة ، وبجانب ذلك كنا نلاحظ تقصير علماء المسلمين وكتّابهم ودعاتهم في عرض الشريعة الاسلامية في الاسلوب العصري الجذاب ، وفي إقناع الطبقات المثقفة إقناعاً عقلياً ، وعلى كل فقد اتسعت الفجوة بين

الطبقتين ، طبقة العلماء ممثلي الدين وبين الطبقة المثقفة واتسع الخرق على الراقع .

وكانت الكلمة في هذه الندوة لزميلنا الفاضل سعادة الاستاذ أحمد محمد جمال ، فهو كما قدمنا صاحب الاختصاص في هذا الموضوع وله فيه جولات ، وكتابه « مكانك تحمّدي » من أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، ورأيت من المناسب أن ألقي كلمة عامة تهيئة للعقول والأسماع فقلت :

« إنني عنيت بدراسة تاريخ الحضارات والمجتمعات وخاصة تاريخ أسباب التقدم والانحطاط في الامم والمدنيات . فوجدت أن من أعظم أسباب الانحطاط والفوضى التي أدت إلى زوال الامم وانقراضها وانحطاط المدنيات وانهيارها - هو تفكك نظام الاسرة واختلال الميزان في الحياة المنزلية وسوء علاقة الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ، وزهد النساء في الحياة المنزلية والتهرب من مسؤولياتها ، فما رأينا مجتمعاً مائلاً إلى التدلي والانحطاط وأمة تسير بخطى سريعة واسعة إلى النزول والانقراض إلا وقد فشا فيها هذا الداء ، وبدأت السيدات فيها ينصرفن عن الحياة المنزلية وتكاليفها ، ويزهدن في (الامومة) ومسؤولياتها وحضانة الاولاد وإنشاء الجيل الجديد ، والاعتناء بتكوين البيت الصالح الذي يجد فيه الرجل جميع أسباب

الراحة والهدوء ويتخيّل إذا دخله أنه الجنة ؛ إلى مشاركة الرجال في وظائفهم ومجالات نشاطهم ومزاحمتهم بالمناكب ومسايرتهم بل ومنافستهم في جميع ميادين الحياة ، وهذا الذي جرّ على تلك المجتمعات قلقاً فكرياً وفوضى اجتماعية وثورة خلقية ، وعجّل وصولها إلى الهاوية التي لا قرار لها وهذه قصة اليونان القديم وروما وفارس القديمة ، وإني أخشى على الامم الشرقية هذا المصير المؤلم وقد بدت طلائعه في مجتمعنا الإسلامي الشرقي » .

هذه خلاصة كلمتي مع زيادة وإيضاح للفكرة ، فإن الكتابة تبلغ حيث لا تبلغ الخطابة ، ولعل هذه السطور التي نسطرها الآن تصل إلى أخواتنا الأفغانيات الفاضلات الكريمات فيتنبهن إلى الخطر المحدق بالمجتمع الأفغاني المسلم ويحرصنَ على ألا يكن أقوى العوامل في الوصول إلى هذه النهاية الأليمة .

ثم تحدّث الأستاذ أحمد محمد جمال حديثاً علمياً ، وشرح نظرة الاسلام إلى المرأة وتحديده لمكانتها في المجتمع ووظيفتها في الحياة وفضلها في تكوين الأسرة الصالحة والمجتمع الفاضل السليم ، وتوجه فيض من الأسئلة يدور أكثرها حول تعدد الزوجات ، وتخصيص حق الطلاق بالرجل ، والحجاب الشرعي ، وانتهت الندوة في جو من الهدوء والوقار ، وانصرف الضيوف والضيفات إلى العشاء وصلاة العشاء .

وقد حضر زميلنا الفاضل الأستاذ أحمد محمد جمال ندوة نسوية أخرى لإحدى الجمعيات النسائية في كابل لم أحضرها لكوني في ذلك الوقت في غزنين ، فأخبرني بأن المناقشة كانت حادّة في موضوع الحجاب وتعدّد الزوجات وحق الرجل في الطلاق ، وقد دل ذلك على القلق الفكري الشديد الذي يوجد في المجتمع النسوي الأفغاني ومدى تأثير الدعاية الأجنبية في ثقافته .

حديث مع علماء كابل

وكانت الندوة الثانية خاصة بالعلماء ، وقد لبى دعوة السفارة التي تتمتع بالاحترام الزائد في الأوساط الدينية والمجتمعات الاسلامية في البلد أكبر عدد من العلماء ، والشيوخ وجلسنا في جو من الإخاء والبساطة والبعد عن التكلف ، وكان حديثي في هذه الليلة يدور حول مسؤولية العلماء نحو الدعوة والاتصال بالشعب اتصالاً مباشراً ، ونوهت بأهمية طبقتين بصفة خاصة : الجماهير والشباب ، وذكرت في ذلك تجارب بعض الجماعات والدعوات ، وأشرت إلى جماعة التبليغ في شبه القارة الهندية ، ومنهج دعوتها وكيف نجحت إلى حدّ كبير في الاتصال بالشعب والوصول إلى عامة المسلمين في بيوتهم ومتاجرهم ، وما كان لها من انتشار في الأقطار الاسلامية ومن تأثير وفضل في إيقاظ الشعور الديني وإثارة العاطفة الدينية والبعث

على الرجوع إلى الله وإصـــلاح الحال وتقويم الأخلاق والأعمال والإيثار وبذل الجهود وعلوّ الهمة في سبيل الله ، وقلت : إنّ بقاء الشعب من غير توجيه ديني وتربية إسلامية ووعي شامل خطر كبير ، وأنه يصير لقمة سائغة ومالاً سائباً لكل مفسد وملحد ، والدعوات الهدامة والفلسفات المحاربة الإسلام .

ثم نوهت بضرورة العناية بالشباب وخاصة الشباب الجامعي وأنهم رجال الغد وأمة المستقبل وهم الذين يتولون قيادة البلاد وصياغة الحياة وتشريع القوانين وتوجيه المعارف ، ويملكون مفاتيح الأمور وزمام الحكم ، وفي صلاحهم صلاح البلاد وفي اقتناعهم بفضل الاسلام وإيمانهم بقيمه ومفاهيمه وحماسهم للدين بقاء الاسلام وقوته وسيطرته ، وفي عدم ثقتهم بصلاحية الاسلام واضطرابهم في العقيدة ويأسهم من مستقبل الاسلام وصلاحيته للقيادة وإيمانهم بأن الحضارة الغربية هي آخر ما وصل إليه الانسان من التقدم والتحرر والسعادة والعز ، وإنها هي القدر المحتوم الذي لا محيد عنه ولا مفر ، زوال للإسلام أو انسحاب عن ميدان الحيـــاة وردة فكرية وحضارية تغزو البلاد كلها وتنطلق موجتهـا العارمة فلا تدع بيتاً من مدر ولا وبر ، ولا تدع مزرعة فلاح ولا مدرسة عالم ولا زاوية

شيخ ، وبيّنت مصير بعض البلاد الاسلامية التي فرط علماؤها في العناية بالشباب وإحراز ثقتهم وإعجابهم ، وتركهم حبلهم على غاربهم يفترسهم من شاء من دعاة الإلحاد والإفساد أو الشيوعية والوجودية والتحلل ، كيف استحوذ على هؤلاء الشباب الملحدون والزنادقة ودعاة القومية المتطرفة أو الشيوعية الملحدة ، واختاروا لعملهم مجالين : مجال الجامعة ومجال الجيش ، فاستطاعوا في مدة قصيرة لا تزيد على بضع سنين أن يسرقوا البلاد بعصاهم ويتقلدوا مفاتيح الحكم ، ويسيطروا على كل ماله تأثير في توجيه البلاد وسياستها .

وذكرت أن العمل في الشباب يحتاج إلى الأسلوب الجديد واللغة العصرية ومعرفة دقيقة بنفسيتهم ومشكلاتهم التي يعانونها ، وأنه لا بدّ في ذلك من العمل بالوصية التي نسبت إلى سيدنا علي ابن أبي طالب – رضي الله عنه « كلموا الناس على قدر عقولهم – أتريدون أن يكذّب الله ورسوله » وإن المهم في هذا الموضوع هو إعادة الثقة فيهم بصلاحية الإسلام للحياة والقيادة ، وأنه ليس مسايراً الزمن فحسب بل هو سابق الزمن ، وصنع الله الذي أتقن كل شيء ، ويفيد في هذا المجال عرض الكتب الإسلامية التي

تلائم ذوقهم وتقنع عقولهم ، وتأليفها ونشرها أو نقلها إلى اللغات المنتشرة في هذه البلاد .

وتكلم الأستاذ أحمد محمد جمال أيضاً ، وأثار بعض الجوانب المهمة ، ثم بدأت المذاكرة وعلّق بعض الحاضرين الفضلاء ، وفي مقدمتهم الأستاذ بشّار المدير العام للوعظ والإرشاد بوزارة الصحافة والإعلام ، والاستاذ محمد هاشم المجدّدي وعلق على الحديث وأوضح بعض النقط الهامة وانفضّ المجلس ، وكان الإعجاب والتأثر بادِيين على الوجوه ، والسرور يغمر الجوانح .

لقاءات مع الوزراء والمسؤولين

أما اللقاءات فكان في مقدمتها مقابلة معالي وزير المعارف محمد ياسين عظيم ، ونائبه الدكتور محمد صدّيق في مكتبهما ، وتناول الحديث موضوع توجيه المعارف وسياستها في الأقطار الإسلامية ، ورأينا من معالي الوزير حسن إصغاء وعناية بالموضوع وشعوراً بالمسؤولية الضخمة ، ولما كانت وزارة المعارف لها الفضل الكبير في تخطيط برامجنا وتيسير مهمة الوفد ، وكانت هي المضيفة بالنيابة عن الحكومة ، شكرنا معالي الوزير وسعادة نائبه على الضيافة الكريمة وأبدينا عواطفنا ، وقد عقدت وزارة المعارف مأدبة تكريم للوفد ، وقابلنا كذلك معالي الأستاذ عبد الستار سيرت المستشار

الاول للصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وهو تعلم في مصر وتخرج من الازهر وكان يتكلم اللغة العربية بطلاقة وكأبنائها ، وقابلنا سعادة سميع الدين (زوند) وكيل وزارة العدل ، وسعادة عبد الهادي هدايت ، وكيل الوزارة لشؤون النيابة العامة والاستاذ كمال شنواري ، رئيس إدارة الاوقاف العليا ، والاستاذ محمد صدّيق كباري رئيس جمعية العلماء ، وكانت عندهم مجموعة كريمة من الموظفين في وزارة العدل ورؤساء بعض شعبها وفروعها ، وقابل سعادة الاستاذ أحمد محمد جمال قبل وصولي إلى كابل معالي وزير الإعلام .

وكان الاستاذ عبد الرسول سياف يقوم بوظيفة الترجمة والتعبير عن حديثنا في جميع الاجتماعات والمقابلات باللغة الفارسية في مقدرة ومهارة ، ولاحظنا أن اللغة الفارسية هي اللغة التي يتكلم بها المثقفون والوزراء والموظفون الكبار ، وإن كانت اللغة البشتوية هي اللغة الرسمية التي تكتب فيها الرسائل الحكومية وتصدر فيها أحكامها وتوجه فيها الدعوات ، ولكن اللغة الفارسية يفهمها الجميع ويتكلمون بها في مناسبات علمية وندوات أدبية ، وسمعت أنها أكثر انتشاراً ورواجاً في قندهار المتاخمة لحدود باوخستان ومركز دعوة بختونستان .

وكان من أفضل من تعرّفنا عليهم في الزيارة وسعدنا برافقته وتوجيهاته ومساعدته صاحب الفضيلة الشيخ « محمد إسلام تسليم » الذي هو نموذج العلماء الذين يجمعون بين الرسوخ في الدين والاستقامة والمحافظة على مكانته في أفغانستان الجديد ، وهو يتمتع بثقة زائدة واحترام من أولياء الأمور في وزارة المعارف وكبار المسئولين .

ضعف نفوذ العلماء في الشعب ونتائجه

وكانت أفغانستان بلد العلماء والمشايخ قبل فترة قصيرة ، وكان الشعب خاضعاً لنفوذ العلماء خضوعاً لم يعرف الشعب شرقي آخر ، وكان لتزكيتهم وإعجابهم بشخصيّة أو حكومة ولنقدهم وعدم ارتياحهم قيمة كبيرة وتأثير عميق يحسب له حساب كبير في الحكومة والشعب ، وكان لهتافهم بالجهاد الذي يسمّونه عادة « غزا » صدى واسع في القرى والأرياف والمدن واستجابة ليست لدعوة أخرى ، وإليهم يرجع الفضل في محاربة الإنجليز ومحافظة البلاد على استقلالها وحرّيتها وتمسكها بالغيرة الدينيّة وكثير من الأخلاق والآداب الإسلامية ومحاربة الدعوات المنافية للإسلام الشاذّة المنحرفة عن الإسلام ، ولعلّ ذلك من أسباب بقاء المحاكم الشرعيّة والحكم بالشرع الإسلامي في أفغانستان حين قضي على ذلك في أكثر البلاد الإسلاميّة ، ولاشك

أن حكومة أفغانستان في ذلك تستحق التهنئة والاعتراف بالفضل .

وقد تخرّج مئات من طلبة العلم في مدارسنا الدينيّة الكبيرة في الهند ، وفي مقدمتها جامعة ديوبند المشهورة ، ومعلوم أنّ الشعب الأفغاني - كالشعب التركي - سنيّ حنفيّ ، لا يشذ عن ذلك إلاّ شاذّ . وقد لاحظنا في زيارتنا أنّ هذا الجيل من العلماء قد انصرم أو كاد ينصرم .

وقد فقد العلماء الشيء الكثير مع مرّ الزمان وتغيّر الأحوال من نفوذهم وسلطانهم ، وكان ذلك من سياسة الحكومة الحكيمة ، وفي صالحها فقد تلقّنت درساً من التجارب الماضية ، وعرفت كيف أثار العلماء الشعب على أمان الله خان فانقض عليه ، حتى اضطرّ إلى مغادرة البلاد ، ولعلها عملت بالوصية الحكيمة التي حكى الدكتور محمّد إقبال في نصائح إبليس لأتباعه من قادة الشعوب وزعمائها قائلاً : « إنّ العلاج الحاسم لغيرة الأفغان الدينيّة أن يقصَى « ملاّ » يعني الحاكم الديني من جبال أفغانستان وسهولها » وقد ضعفت هذه الغيرة الدينيّة والنخوة الأفغانيّة ضعفاً ملموساً ، فحدثت تغيرات عظيمة في المجتمع وأساغها الشعب ولم يحرك فيها ساكناً ، وفشا السفور وتقليد الحضارة الغربيّة والتفرنج ، ولم يحدث ذلك اضطراباً في الحيـــاة ، وأصبحت أفغانستان محطّة

كبيرة للشباب الخنافس (HIPPIES) لوجود المخدرات والحشيش في هذه البلاد بكثرة ، وقد شاهدنا عدداً كبيراً منهم يرافقوننا في الطائرة وينزلون في كابل وينتشرون فيها ، وتأثيرهم في أخلاق الشعب ، واختلاط الجنسين معلوم مشاهد ، ثم لا يثير ذلك استنكاراً واضحاً واضطراباً كبيراً ، وكل ذلك يدل على درجة الهبوط في سلّم الغيرة الدينيّة والنخوة الإسلاميّة ، وسببه الأكبر أنّ القيادة قد خرجت من أيدي العلماء إلى أيدي الساسة والزعماء الذين يزنون الأشياء في موازين الاقتصاد والسياسة ، ويخضعون للأمر الواقع .

وسمعت أن « هرات » لاتزال مدينة العلم والعلماء ومدينة المدارس والمساجد ، وأنّه لايزال منار العلم فيها عالياً وشعار الصلاح ظاهراً ، ولم أتمكنّ - رغم حرصي الشديد - من زيارة هذا البلد الأثري والمركز الديني الذي نهض منه علماء مصلحون ومؤلفون كالعارف الكبير والمحقق العظيم الإمام عبد الله الأنصاري صاحب (منازل السائرين) الذي شرحه العلاّمة ابن القيّم بكتابه المشهور « مدارج السالكين » والعلاّمة الفقيه المحدّث الإمام العالم المحقق الشيخ نور الدين علي بن سلطـــان محمّد المعروف بـ « ملاّ علي قاري م ١٠١٤ » .

الاسرة المجددية في كابل

ولا تزال في العاصمة وضواحيها بقيّة من العلماء والمشايخ مشتغلين بالعلم والتدريس والإرشاد والدعوة إلى الله ، وفي أحد ضواحي كابل المعروف بـ « قلعة جواد » زاوية للسادة المجددية ، وكانت لبعض مشائخها شهرة تخطّت حدود أفغانستان ، وكان الشيخ الكبير مولانا فضل عمر المجددي المعروف بـ « شير آغا » والملقب بـ « نور المشائخ[1] » أتباع ومريدون ويعدون بالمئات في الهند والباكستان ، وشقيقه سعادة الشيخ محمّد صادق المجددي سفير أفغانستان سابقاً في الشرق العربي وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي معروف ومحبوب في البلاد العربيّة لعلمه وصلاحه واعتنائه بالقضايا الإسلاميّة ، وقد مثل دوراً خطيراً في الثورة التي أدّت أخيراً إلى خلع الملك أمان الله خان وجلوس الملك نادر خان على العرش ، وقد زرنا قلعة جواد فوجدنا فيها زاوية عامرة بالطالبين ومسجداً مكتظّا بالمصلّين ومدرسة معمورة بطلبة علوم الدين ، وقد أكرمنا سماحة الشيخ محمد إبراهيم المجددي خليفة والده نور المشايخ بعدّة زيارات في الفندق الذي كنا نازلين فيه وغمرنا بعطفه ولطفه ،

---

(١) توفي إلى رحمة الله في ٢٥ محرم سنة ١٣٧٦ هـ .

وتشرفنا كذلك بعدد من أفراد هذه الأسرة الكريمة كالشيخ عبد السلام المجددي وغيره ، وما ننسى فلن ننسى الأخ العزيز صبغة الله المجددي الذي تعرفنا عليه شاباً في القاهرة سنة ١٩٥١ م - وقضينا معه أياماً في المسجد الأقصى في معتكف جده الشيخ محمّد صادق وتبادلنا الزيارات في كابل ، وجلسنا جلسات طويلة تجاذبنا فيها أطراف الحديث وجدّدنا ذكريات الأيام الماضية يوم كان المسلمون أعزّ وأشرف وصحائف أعمالنا أنقى وأبيض ، وهو مؤسّس جمعيّة العلماء في أفغانستان وعضو المجلس التأسيسي فيها ، وقد أبلى بلاءً حسناً في سبيل العقيدة والدعوة الإسلاميّة في بعض الوزارات ، واستأنسنا كذلك بالشيخ محمّد هاشم المجددي ابن صديقنا الكبير الشيخ محمّد صادق المجددي واستفدنا كثيراً من معلوماته وكلاهما يعملان في وزارة التربية والتعليم .

شخصيّات دينيّة وعلميّة

وأنسنا كذلك بلقاء الشيخ عبد العزيز بن المجاهد الكبير الشيخ سيف الرحمن الطوكي المهاجر إلى كابل ، والمجاهد الكبير وابن اخيه عزيز الرحمن ، كما تشرفنا بلقاء الشيخ غلام ربّاني خطيبي إمام مسجد (بل خشتي) الذي هو جامع العاصمة الرئيسي ووجدنا فيه خفة ودماثة خلق ، كما أكرمنا بزيارته صاحب

الفضيلة الشيخ محمد كل شيخ الحديث في دار العلوم ، ومعذرة إذا كنا نسينا بعض الأسماء الكريمة ، فقد شغلتنا دوامة البرامج المتصلة والتنقلات المستمرة عن تسجيل الأسماء وكتابة المذكرات .

في جامع كابل

وصلينا الجمعة الوحيدة التي أدركناها في كابل في جامع (بل خشتي) وحضرها سعادة السفير السعودي ، وكان المسجد مكتظاً بالمصلين وخطبت أنا والأستاذ أحمد محمد جمال قبل الخطبة والصلاة على عادة هذه البلاد ، وكان حديثي شرحاً لحديث « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » وبينما كنت أشرح هذا الحديث الشريف ، وأشير إشارات لطيفة إلى ما تقاسيه كثير من البلاد الإسلامية العريقة في الدين والعلم من محن في العقيدة والحياة ، وما يغزوها من تيارات التقليد الأجنبي والتنكر للإسلام ، صاح أحد الحاضرين في ناحية من نواحي المسجد صيحة عظيمة ، وأخذته غيبوبة وتواجد ، وقد دل ذلك على مدى تأسف أهل الغيرة مما يقع في البلاد . وتناول الأستاذ أحمد جمال حديث « أتدرون من المفلس الخ » وحديث « الدنيا سوق قامت ثم انفضت الخ » .

معالم البلد وحدائقه

وكان من معالم البلد التي زرناها ضريح مؤسس الحكومة المغولية الكبير في الهند الملك المسلم المؤيد السلطان ظهير الدين محمد بابر ، وهو على ربوة في ضواحي كابل وفي مكان ظريف وحديقة غناء ، وكان بابر مغرماً بكابل فآثره الله ليكون مدفناً له ، وزرنا منتزه (بغمان) الشهير وهو منتزه يحق أن يعد من المنتزهات العالمية الكبيرة ، وعلى نسقه ـ كما لاحظ العلامة السيد سليمان الندوي ـ أنشئت حديقة شالامار في كشمير وفي لاهور ـ وكل هذه ذات طبقات مختلفة ومنتزه كاريزمير ، وهي حديقة فسيحة غناء ذات مياه غزيرة وأشجار ملتفة وشوارع مرصوفة .

الى عاصمة السلطان محمود الغزنوي

وكانت زيارتنا لأفغانستان مقتصرة على كابل وضواحيها ومؤسساتها وشخصياتها ومراكز ثقافتها ، لضيق الوقت وازدحام البرامج ، ولكني طلبت من معالي وزير المعارف وسعادة وكيله أن يسمحا لنا بزيارة غزنين عاصمة اسكندر الاسلام بين السلطنة السلطان محمود الغازي مؤسس الحكومة الإسلامية ورافع راية الإسلام في الهند ، المدينة التي صنع فيها تاريخ جديد للحضارة والعلوم والأدب والشعر ، وازدهرت في الشرق في أواخر القرن

الرابع وفي أوائل القرن الخامس الهجريين ازدهار قرطبة وغرناطة في الغرب ، وإنني اعتبر زيارتي لأفغانستان ناقصة غير كاملة إذا لم أزر هذه المدينة التي تعيش في الأطلال والآثار وفي القصص والأخبار أكثر مما تعيش في البيوت والأسواق ومظاهر المدنيّة الحديثة والعمران ، وستبقى حاجة في نفسي إذا عدت إلى بلادي ولم أزر بلد محمود والحكيم والسنائي ، وأجاب وزير المعارف إلى طلبي مسروراً بهذا الاقتراح وأصدر نائب الوزير تعليمات إلى محافظ غزنين ورئيس مكتب المعارف هناك لاستقبال الوفد وتهيئة الخبراء والمشتغلين الذين يساعدوننا في مشاهدة الآثار وزيارة معالم المدينة .

دور « غزنين » الحضاري والعلمي

وسافرنا يوم السبت ٩/ يونيه صباحاً إلى غزنين وهي تبعد عن كابل ١٣٨ (ك م) (٨٢ ميلاً) واستقبلنا في البلد سعادة المحافظ وبعض المسؤولين في وزارة المعارف وأرفقونا بعض الأدلاء والخبراء والمشتغلين في مصلحة الآثار القديمة والحفريات ، وتوجّهنا من ساعتنا إلى المدينة القديمة ، وهي تقع في شرق المدينة الموجودة على مسافة بضع (ك م) ، وهي خرائب وأطلال وقد كانت هناك العاصمة الغزنوية التي كانت تلي دار السلام بغداد مركز

الخلافة وعاصمة العالم الإسلامي في ذلك الحين في استفحال العمران واتساع المكان وازدهار المدنية ، وقد جذبت إليها أهل الفضل والكمال ونوابغ العلم والأدب والصناع الحاذقين والبنائين البارعين والشعراء المفلقين والعلماء المتبحّرين والزهاد النساكين والعارفين المحققين والندماء المحاضرين والقادة الفاتحين والأطباء والنطاسيين والفلاسفة والرياضيين كما يجذب المغناطيس القطع الحديدية ، والسوق البضائع المستطرفة ، وتدفقت إليها وانصبّت فيها ثروة البلاد المفتوحة وغنائمها وطرفها المستملحة ونفائسها المدخرة كما تنصبّ الروافد والأنهار الصغيرة في البحر ، واجتمع من ذلك شيء لا يخطر على البال ، وكان من المتصلين بالبلاط الغزنوي والمعدودين في حاشيته ، مثل بديع الزمان الهمذاني من الشعراء والأدباء ، وأبو الريحان البيروني من أئمة العلوم الرياضية والفلكية و « فردوسي » الشاعر الفارسي الخالد وعسجدي وعنصري واسدي وغضـــاري وفرّخي ومنوچهري من شعراء الفارسيّة المعدودين ، وقد كانوا ندماءه ، ويبلغ عدد الشعراء الذين كان يحتضنهم السلطان ويربيهم إلى أربع مئة شاعر .

خراب « غزنين » ونكبتها

وقد ظلت « غزنين » قرناً كاملاً في أوج المدنيّة والزخرفة

تخشى وترجى، وتأمر وتنهى ، وترغب وترهب ؛ حتى أصبحت فريسة الهجمات من سلالة ناهضة طموح وهي سلالة الغوريّة — التي نبغ فيها أخيراً الملك المجاهد شهاب الدين الغوري — وزحف أحد أفراد هذه الأسرة وهو علاء الدين الحسين بن الحسن الذي كان يحمل ترةً على الملك الغزنوي ذاك اليوم بهراء شاه .. الذي صلب أخاه سيف الدين . فدخلها ونهبها ثلاثة أيام ، فخرّب هذا البلد وأشعل فيها النيران وانتشر الحريق فيها حتى أتى على الأخضر واليابس وطمس معالم البلد وجعله خراباً يباباً ، وكان ذلك سنة ٥٤٧ هـ[1] ، واشتهر في التاريخ بلقب « جهان سوز » أي محرق العالم ، وصدق الله العظيم (إنّ الأرض لله يورثها من يشاء) وكنّا نمشي في هذه الأطلال وننشد أبيات المعري :

خفف الوطأ ما أظنّ أديم الأرض
إلاّ من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهد
هوان الآباء والأجداد

سر إن استطعت في الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفات العباد

---

(١) راجع « البداية والنهاية » ج ١٢ .

وقد استخرجت بالحفر آثار وبقايا من أبنية يرجع تاريخها إلى عهد مسعود بن محمد ومن بعده ، ولا يزالون مشغولين باستخراج الآثار وأخبرني الخبراء بأن هذا العمل قد يستغرق عشر سنين حتى يتمكنوا من إبراز كثير من معالم هذه المدينة المطمورة والمدنية البائدة .

عند الحكماء والحكام ، والزهاد والملوك

ووقفنا وقفة أمام قبر الحكيم السنائي (١) ودعونا له وقرأنا الفاتحة ، وتذكرت أن العلامة محمد إقبال لما زاره في نوفمبر سنة ١٩٣٣ م ووقف على قبره انفجر باكياً ، وقال قصيدته العصماء التي تعدّ من غرر قصائده (٢) ، وزرنا قبور الصالحين والأولياء كالسيد بهلول دانا والسيد علي لالا وخاجا بلغار وشمس العارفين .

وزرنا قبر الملك المجاهد الفاتح السلطان محمود الغزنوي الذي

---

(١) كان اسمه مجدود وكنيته أبو المجد ، كان في عهد بهرام شاه الغزنوي ، واختلف في سنة وفاته ، فقيل سنة ٥٢٥ هـ وقيل ٥٧٦ هـ ، وهو إمام من أئمة الشعر الصوفي ، وأول من قال الشعر في الأخلاق ، وتهذيب النفس والاعتزاز بالإنسانية ، والتركيز على شرف الإنسان ، وشعره يتسم بالحماس والسكر والتأثير .

(٢) جاءت هذه القصيدة في مقدمة ديوانه « بال جبريل » وترجمتها في كتابنا « روائع إقبال » بعنوان « في غزنين » .

هانت عليه قيادة الجيوش والتوغل في البلاد الأجنبية والمغامرة بعد المغامرة كما تهون على الشباب نزهة أو خرجة أو غدوة وروحة، وقد مكن الإسلام في الهند وأرسى قواعد حكومته التي دامت في أشكال مختلفة وفي أسر تتداول الحكم ثمانية قرون تقريباً .

درس من الزيارة

رجعت من هذه الزيارة حزيناً كئيباً مؤمناً بعظمة الله وبقائه وبضعف قوة الإنسان وقصر نظره وشدّة غروره بالمظاهر ، وزالت ثقتي بجميع المواضع الكبرى التي تتباهى الآن بكثرة العمران وقوّة البنيان وتوطد الأركان ، ويعتمد عليها سادتها وأبناؤها والمعجبون بها ، وزالت ثقتي بالحكومات القوية الواسعة ذات الحول والطول ، وذات الصولات والجولات وذات الجنود والبنود والقلائع الحصينة والبروج المشيدة والمباني الفخمة والمصانع الضخمة ، وقلت : ما بقاء هذه الحكومات وهذه العوالم والمدن ومراكز المدنية والثقافة بعد خراب بغداد وغزنين وقرطبة وسمرقند وبخارى ، وأجاد الشاعر العربي حين قال :

إذا ما الدهر جرّ على أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا ،
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

وصدق الله العظيم « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

رجعنا من هذه الجولة التاريخية ونحن متخمون بالمعلومات والمشاهدات والانطباعات ، وتغدينا في دار الضيافة الحكومية للبلد واسترحنا قليلا ، وصلينا الظهر ، وأخذنا فكرة عن البلد الحالي ، فإذا هو قرية يتراوح عدد نفوسها بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً فقلنا : أين هذه القرية الصغيرة من تلك المدينة العظيمة ، وسبحان الله مقلب الليل والنهار ومصرف الدهور والأعصار .

كلمة عن الملك محمد ظاهر شاه وسردار داود خان

كان الأمل وطيداً في أن يحظى الوفد بمقابلة مع جلالة الملك محمد ظاهر شاه ، كما أن كثيراً من وفود رابطة العالم الإسلامي قابلت رؤساء الجمهوريات ، والملوك في المناطق التي زارتها ، ولكن يبدو أن الجهات المختصة ، ورجال التشريفات لم يريدوا ذلك ، وظللنا منتظرين للطلب إلى آخر يوم من أيام إقامتنا في كابل ، وسمعنا أن الملك علم بذلك في آخر لحظة ، فقال : لماذا لم تخبرونا به وفي الوقت متسع ، والملك يعيش في عزلة عن الشعب في قصره ، ولا يخرج إلا في النادر ، وليست عنده « شعبية » كبعض ملوك المسلمين في بلاد أخرى ، وقال سعادة سفير المملكة العربية السعودية الشيخ محمد الحمد الشبيلي : إنه لم يره إلا مرة واحدة حين قدم إليه أوراق الاعتماد ، وسألت بعض الإخوان : من المسؤول

الأول عن اندفاع البلاد اندفاعاً متهوراً نحو الحضارة الغربية ومظاهرها وقشورها ، وعن سفور المرأة الأفغانية والاتجاه نحو المعسكر الشرقي ؟ فقالوا : السردار محمد داود خان ابن عم الملك وصهره، ولما زرنا بغمان أشاروا إلى قصره ، وقالوا : كان هنالك مدرسة دينية فأمر بنقلها إلى محل آخر ، وآثر المكان بالإقامة ، ورأيت أصحاب الاتجاه الديني غير مرتاحين إلى اتجاهاته وتصرفاته[1] ، وعرفت أنه زعيم حركة يختونستان ، وأكثر الناس تحمساً لها[2] .

---

(١) فوجئنا ونحن في مكة ، وقد مضى على مغادرتنا لكابل شهر وأسبوع بخبر حدوث الثورة والانقلاب في كابل ، وأن الجيش خلع محمد ظاهر شاه على أثر توجهه إلى إيطاليا للعلاج ، وسمعنا أن الذي قام بالثورة السردار محمد داؤد خان ، وهو الذي اختير أول رئيس للجمهورية ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(٢) جاء في مجلة التضامن الاسلامي المغربية في مقـــال ظهر في العدد الأول – السنة الأولى – ذو القعدة ١٣٩٣ هـ ديسمبر ١٩٧٣ م بتوقيع أبو الفدا (ولعله الأستاذ الكبير علال الفاسي) ما يلقي الضوء على الدوافع الحقيقية إلى هذه الثورة نقتطف منه ما يلي : [وقعت هذه الأحداث في الأفغان في الوقت الذي كانت روسيا وأمريكا تتحاوران في مسائل العـــالم الكبرى . والتي انتهت بأوفاق المهمة بين برجنيف ونكسون ، وفي هذا الوقت بالذات كانت أفغانستان قد اكتشفت نبعاً

مسؤولية الاقطار الإسلامية

وليست أفغانستان هي المسؤولة وحدها عن الارتماء في أحضان «الشيوعية» أو «العلمانية»، والاندفاع إلى الحضارة الغربية ومظاهرها والسير في ركاب الشعوب الغربية، بل الأقطار الإسلامية مسؤولة عن هذا الوضع أيضاً، فكلنا يعلم أن أفغانستان مواردها محدودة، وهي ليست من البلاد الغنية، ذات الموارد الواسعة

= كبيراً من الغاز فاتفقت مع الاتحاد السوفياتي على أن ينقل منه عبر الأنابيب من الأراضي الأفغانية إلى الاتحاد السوفياتي ٥٧٠ ألف مليون متر مكعب خلال ١٨ عاماً ... ولكن لعل سائلاً يقول: وهل كان من الضروري أن تقوم الجمهورية ليتحقق هذا الغرض المقصود؟.

والحقيقة أن الملك محمد ظاهر شاه كان يتعاون مع مجموعة من المفكرين الاسلاميين في مقدمتهم منهج الدين الذي اغتيل في ٨ أغسطس الماضي؛ وكان هذا الرجل متزعماً لنخبة آمنت بوجوب مكافحة الخلايا الشيوعية، التي كان الحزب الشيوعي الأفغاني قد أسسها باسم: «ديمقراطي خلق» وقد دعت هذه النخبة إلى اتخاذ الاسلام أساساً للتربية والتعليم. وفضحت المخططات الهندية المؤيدة من روسيا لفصل بلوخستان من كل من الأفغان والباكستان لتقوم بالدور الذي تحدثنا عنه. ثم كشفت محاولات لتهريب السلاح الروسي عبر الحدود المتاخمة. ولذا كان لا بد أن يذهب الملك وتذهب النخبة التي تريد المحافظة على كيان الأفغان والباكستان!.

والمعادن الطبيعية والمناجم و « الذهب الأسود » وليس عندها مرفأ ، فليست حرة في حركة التوريد والتصدير ، وكل اعتمادها في الاقتصاد على منتجات محدودة كالفواكه الناشفة ، وصوف الغنم وجلودها ، فكانت مضطرة بطبيعة الحال إلى أن تطلب العون من البلاد الراقية ، ومن الدول الكبرى التي عندها فائض من الأموال والإيراد لسد عجزها المالي وتحقيق مشاريعها العمرانية والتعليمية والحضارية والدفاعية ، فلو وفق الله الحكومات الإسلامية الكبيرة لتمد إليها يد المعونة وساعدتها في إكمال مخططاتها ، وإنجاز مشروعاتها ، لاستغنت عن الاستعانة بالدول الكبرى ، بل استطاعت أن تحافظ على شخصيتها الإسلامية وتنميتها ، وأفادت العالم الاسلامي ، وكانت مصدراً من مصادر قوته وكرامته ، وتفادى هـــذا الشعب المسلم ، العريق في الدين ، والتاريخ الإسلامي ، القوي في عاطفته الاسلامية وغيرته الدينية عن أن يكون فريسة للغارات الثقافية والعقائدية .

ولكن ـ مع الأسف الشديد ـ كانت الحكومات الاسلامية ذات الثروات الواسعة ـ ولاتزال ـ في شغل شاغل عن مساعدة الأقطار النامية والنهوض بها ، وبادرت البلاد السوفيتية ، والصين الشعبية (١)

---

(١) سمعت من بعض أهل الخبرة أن أفغانستان طلبت المساعدة =

إلى مساعدة أفغانستان ، وقدمت المساعدات السخية لانجاز مشاريعها ، وتنمية البلاد وترفيهها ، فكان من الطبيعي أن يكون لكل هذا مردود فكري وثقافي ، وسياسي ، وأن تستفيد البلاد المساعدة في مجالات الحياة كلها .

وعاشت أفغانستان في عزلة علمية وثقافية عن العالم الإسلامي وعاشت بعيدة ـ لأسباب سياسية معلومة ـ عن جارتها « باكستان » وعن مصدر ثقافتها الكبيرة « الهند » لوقوع باكستان في طريقها ، فظلت مقتصرة على التراث العلمي القديم غير ملمة بنشاط علمي وديني ، ولولا مصر ولولا الأزهر الذي لم يزل يؤمه الشباب الأفغاني ، وينهلون من مناهله ويطلعون في خلال إقامتهم بمصر على الحديث الأحدث من الأدب الإسلامي والفكر الاسلامي ، لانقطعت صلة أفغانستان عن الثقافة الاسلامية وعن الحركات الاسلامية كلياً ، وكانت تعيش في برج عاجي ووراء الستار الحديدي ، لذلك نرى أن خيرة الشباب المطلعين الناضجين اليوم ، هم الذين تخرجوا في الأزهر ومعاهده ، وأقاموا بمصر مدة طويلة .

من أمريكا في أول أمرها ، ولكنها لم تجب لتخلف البلاد تخلفاً زائداً ، وانتهزت روسيا الفرصة فساعدتها ، وهكذا اضطرت أمريكا كثيراً من الأقطار الشرقية إلى اللجوء إلى المعسكر الشرقي .

حديث في حفلة تكريم عقدتها السفارة السعودية

وعقد سعادة سفير المملكة العربية السعودية الشيخ محمد احمد الشبيلي حفلة عشاء فاخرة في أوتيل كابل الذي كنا نازلين فيه تكريماً للوفد وللاجتماع بصفوة أهل البلد وأعيانه ورجالاته ، وذلك ليلة الأحد ٩/يونيه ١٩٧٣ م ، حضرها أكثر سفراء الدول العربية الممثلة في كابل ، ولم يتخلف منهم إلا النادر ، وعدد من وزراء الحكومة الأفغانية وحاكم كابل ، وبعض أعضاء الأسرة الحاكمة وكثير من أساتذة الجامعة ورجال الثقافة في كابل والعلماء والشيوخ وعدد من الأساتذة المسيحيين العرب المشتغلين في السفارات. وكانت حفلة ضمت أكبر عدد من الأعيان والوجهاء ورجال الحكومة والسلك السياسي والأوساط العلمية والدينية ، وطلب سعادة السفير مني أن أرحب بالضيوف الكرام وأتحدث إليهم بهذه المناسبة الكريمة بما يليق بالمقام ويعبر عن مشاعر الوفد ورسالته ، وتكلمت بما فتح الله عليّ ولم أقتصر على الشكر والترحيب التقليدي بل انتهزت هذه الفرصة التي لا تتسنى لكل داعية وحامل رسالة في كل مكان وزمان ، وكان حديثاً يجمع بين إبداء العواطف والتعبير عن الخواطر وبين الشكر والترحيب وبين ما هو أهم منها وأعود على الجميع بالخير والصلاح ، وقد أمليت هذه الكلمة اعتماداً على

الذاكرة وسيطلع القارىء على نصها في هذا الكتاب . ووقف بعدي سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال فألقى كلمة رقيقة بليغة ، شكر فيها الشعب الأفغاني والحكومة الأفغانية على حسن تلقيها الوفد وحسن الضيافة وحسن الاستماع ، وشكر ضيوف الليلة على تلبيتهم للدعوة وألم بمقاصد رابطة العالم الاسلامي ورسالتها وما قامت عليه من مبادىء وأهداف وما يبذله جلالة الملك فيصل من مساع مشكورة في مجال التضامن الاسلامي ، وذكر مسؤولية العلماء في تبليغ الرسالة والشهادة بالحق .

وانصرف الحاضرون إلى مأدبة العشاء ، ثم انصرفوا إلى بيوتهم شاكرين مسرورين ، وكان اللقاء الأخير في كابل ، وكان السفر صباح يوم الاثنين ١١/ يونيه إلى تهران .

وإلى القارىء بعض المحاضرات التي ألقيتها في مناسبات مختلفة ، نوهت بها في هذه الكلمة وإلى اللقاء معهم في تهران .

مصدر الانقلاب والقوة في الشعب الأفغاني

حديثي في جامعة كابل (١)

بعد الحمد والصلاة على رسول الله ﷺ .

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في مدرج جامعة كابل الكبير ليلة يوم الأربعاء في ٦/ يونيه ١٩٧٣ م . ونقلت من الشريط .

صاحب السعادة سفير المملكة العربية السعودية . . مدير الجامعة ، عمداء الكليات ، أساتذة الجامعة ، إخواني الطلبة :

أشعر بسعادة وفرحة تغمر جوانحي إذ أقوم أمام هذه الوجوه المشرقة النيرة وأمام هذه النفوس النبيلة الأصيلة ، ولا أستطيع أن أفسر هذه السعادة التي تخامرني في هذا المقام الذي أقومه إلا بأني أزور هذه البلاد التي سمعت عنها كثيراً وقرأت عنها كثيراً ، وأستطيع أن أقول كما قلت في بعض المناسبات : إني عشت في تاريخها وعشت في أخبار فتوحها وغزواتها وعشت في تراجم رجالها العباقرة وقادتها الفاتحين ورجالها العصاميين حملة العلم والنور ورسالة الاسلام إلى ما وراء هذه الجبال إلى الهند وما يليها من البلاد ، إذاً فهذه السعادة التي أشعر بها غير دخيلة ولا غريبة ، وفوق ذلك هي فرحة المسلم الذي يلتقي بإخوانه المسلمين الذين يسكنون وراء الجبال . إنني سعيد بهذه الزيارة الكريمة . . سعيد بهذا اللقاء الكريم وبهذا المجلس الذي أكرمتموني بالوقوف والتحدث فيه .

إخواني ، إنكم تعرفون جميعاً ، وخصوصاً المهتمين بدراسة الآداب والذين ينصرفون إلى دراسة التاريخ ، أن الشعب الأفغاني من الشعوب العريقة في القدم ، من الشعوب التي عاشت مئات وآلاف السنين في حرية وكرامة . . وقد أكرمهم الله بسجايا ومواهب وطاقات فريدة منذ عهود بعيدة .

إني أتساءل – وإني أفتخر بأني عكفت على دراسة التاريخ وأنه هوايتي وأن التاريخ هو المادة المفضلة المحببة عندي – لماذا بقي هذا الشعب قروناً طويلة شعباً منعزلاً عن العالم ؟ شعباً لا شأن له بما يجري في العالم من خير وشر وحسن وقبح ،ومن فتح وغزو ومن استبداد وجور .. لماذا بقي هذا الشعب الباسل الجسور ، الصالح للقيادة ، المليء بالحيوية ، الغني في الذكاء ، الفائق في قوة السواعد وفي قوة العاطفة .. لماذا بقي هذا الشعب الأصيل المجيد هذه القرون الطويلة المتطاولة منطوياً على نفسه منعزلاً في ركن من أركان العالم .. هل كان ذلك لأنه كان بينه وبين العالم الخارجي سد منيع من الجبال ؟ لا يا إخواني.. لقد سجّل التاريخ أن هذه الجبال الشاهقة المكسوة بالجليد لم تكن عائقاً قط في سبيل الغزاة والفاتحين ، إن هذه الجبال لم تستطع أن تقف في طريقهم ، وتعرفون جميعاً أن هذه المسالك الصعبة المنعطفة التي يتيه فيها الانسان ، والتي تفصل أفغانستان عن الباكستان والهند تهاوت تحت أقدام المد الاسلامي لما قيّض الله لهذه الأمة قادة فاتحين كالسلطان محمود الغزنوي وشهاب الدين محمد الغوري وأحمد شاه الأبدالي رحمهم الله جميعاً ، هل كان هذا الشعب مصفّداً بالأصفاد مكتوف الأيدي ؟ لا ! لا ! إن هذا

الشعب قد جربت شجاعته مراراً وظهرت كفايته مراراً ،ولكن كان هذا الشعب مقتنعاً بما أوتي من مراعي خصبة ومن ماشية وزروع ، وغير ذلك من وسائل المعيشة المحدودة .. وهذا سؤال يستحق منكم الاجابة ..!

لماذا نقرأ في التاريخ أنه لما دخل الاسلام في هذه المنطقة انتبه هذا الشعب من سباته العميق الذي امتد على آلاف من السنين وقفز قفزة لا نظير لها في قفزات الأمم ، فإذا هذا الشعب من أقوى الشعوب ومن أشجعها ومن أكثر الشعوب علو همة وبعد نظر وقوة إرادة ، لما قفز هذا الشعب إلى الوجود كأنه كان كنزاً مخفياً أو كأنه كان سراً مكتوماً فاكتشف ، هل كان هناك تيار كهربائي سرى في جسم هذا الشعب أو مسته عصاً سحرية حولت هذا الشعب من متعب قانع وادع هادىء قاعد منعزل إلى شعب جسور فاتح منطلق ، هل كان هنـــاك صخرة من الصخرات كانت تمنع تدفق هذا النهر الفياض ؟

إن المفتاح الرئيسي لفتح هذا القفل هو أن الله سبحانه وتعالى قد أكرم هذا الشعب الأفغاني الكريم بثلاثة عناصر جاءت عن طريق الاسلام :

١ ـ الرسالة السامية وأهدافها .

٢ ــ النظرة الواسعة إلى الانسانية والعـــالم الخارجي وحقائق الأشياء .

٣ ــ الثقة القوية بنصر الله وتأييده وبنتائج الأعمال والمساعي.

هذه هي العناصر الثلاثة التي تكون للشعب شخصية جديدة وتصنع منها شعباً جديداً كأنه ولد ولادة جديدة ، فيصنع تاريخاً جديداً ويبهر العالم بطاقاته المخبوءة وآفاقه المجهولة .

كان هذا الشعب بلا رسالة ، وكان في حدود هذه البلاد يرعى الماشية ، ويغير بعضه على البعض ، كما يقول الشاعر العربي:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وطبيعـة الغزو تأتي من نتيجة الفراغ الخلقي والروحي ، فكانت قبائل العرب في الجاهلية تتشاغل بحروب داخلية ، قبيلة تهاجم قبيلة ، وفصيلة تزحف على فصيلة ، وعشيرة تعادي عشيرة، كذلك الشعب الأفغاني لم يجد ما يشغل به طبيعته الحربية وما يروي به غلته ، ومـــا يقنع به طموحه الكبير غير الحروب الداخلية .. حروب المراعي ، حروب على الماشية ، حروب على النخوة القبلية أو الفردية ، حروب على إهانات متخيلة مزعومة وصدق الشاعر العربي :

النـــار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

فلما جاء الاسلام أصبحت للعرب رسالة كما أصبحت للشعب الأفغاني رسالة .. كانوا يعيشون لأنفسهم فإذا بهم يسمعون قول الله سبحانه وتعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

فعرفت أنها ليست مما تلفظه الأرض ، ليست من الحشائش التي تنبت في الحقول إنما هي مقصودة مطلوبة ، أمة من ورائها أهداف وأغراض ، من رسالات وغايات .. آمنوا أنهم أمة أخرجت للناس لم تخرج ولم تنبت بنفسها لإشباع غريزتها الحربية من نهب وإغارة وغزو وسفك دماء ، فإذاهي تعتقد أنها أخرجت لتكافح حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .. وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جَور الأديان إلى عدل الاسلام .

يا أبناء الجامعة ، ويا شباب الأفغان المثقف . !

كان هذا الشعب بلا رسالة فجاء الاسلام فكان شعباً له رسالة سامية في الحياة ، احتضن هذا الشعب هذه الرسالة السامية وتبناها وهي التي نفخت في هذا الشعب روحاً جديدة . كان يعيش في جاهلية جهلاء وفي ليلة ظلماء ، يتسكع في الخرافات

والجهالات والسفالات ، وفي ظلم الانسان للإنسان ، وفي ازدراء القوي الضعيف ، وفي هضم الحقوق وإهدار الكرامات ، وفي إشباع الغرائز ، وقد ملأت جوانحهم روح جديدة قد استولت على مشاعرهم وأعصابهم وتفكيرهم ، فإذا بها أمة غير أمة ، بل إذا بالانسان غير الانسان ، كانت السواعد هي السواعد والعقول هي العقول والأرض هي الأرض والمناخ هو المناخ ، ولكن هذه الرسالة الجديدة قد جعلت منهم أمة جديدة .

والعنصر الثاني أن الأفغان كانوا يعيشون حياة ضيقة محدودة ، كانوا ينظرون إلى الدنيا نظرة محدودة ، وكانت نظرتهم إلى الانسان والحياة ضيقة محدودة ، ماهو الانسان ؟ الانسان هو الأفغاني ، ما هو الانسان ؟ الانسان هو الذي يسكن في هذه البلاد ، وهو يتكلم بلغة هذه البلاد ، والذي يتزيا بزي هذه البلاد ، والذي يتغنى بحب هذه البلاد ، هذه النظرة الضيقة هي التي حبستهم في هذه المنطقة الضيقة .

ما هي الحياة ؟

هي أكل وشرب ، ومتعة وتسلية ، وقوة وسيادة ، وغلبة ورئاسة ، إنهم كانوا يعيشون كما يعيش السمك في الأحواض ، وكما تعيش الضفادع في البرك . وهكذا كان العرب قبل الاسلام

والأتراك قبل الاسلام والفرس قبل الاسلام .. أخرجهم الاسلام جميعاً من هذا السجن المظلم الضيق كما قال رسول الاسلام : « لنخرج من شاء الله من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة » كان آباؤكم ينظرون إلى الانسان نظرة ضيقة ليس فيها تسامح وليس فيها بعد نظر وليس فيها عمق ، ومنحهم الاسلام هذه النظرة الواسعة فصاروا ينظرون إلى الانسانية كأسرة واحدة وإلى العالم كبيت واحد .

وكانت هذه هي عقيدتهم نحو الانسانية كما قال رسول الله ﷺ : « كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى » فالنظرة التي كان ينظر بها القـــادة لا تؤمن بالحدود الجغرافية ولاتؤمن بالتقسيمات المصطنعة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، المسلمون خرجوا من هذه الحدود إلى آفاق أوسع ، ولولا هذه النظرة الواسعة لبقوا كما بقي آباؤهم قروناً طويلة .

العنصر الثالث : وهي الثقة المتينة الوطيدة ، فلما آمنوا بالله وحده وآمنوا برسوله واليوم الآخر ، وآمنوا بقضاء الله وقدره ، وعرفوا أن الموت له وقت مقدر لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد سمعوا قول الله وآمنوا به : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

وسمعوا قوله تعالى : « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » إن هذا الايمان ملأهم ثقة واعتزازاً وعرفوا أن الانسان لا يموت إلا في اليوم الذي قدره الله ، فعرفوا أن لكل شيء أجلاً مسمى ، وأن كل شيء بيد الله تعالى وأمره.

ثم اكتسبوا ثقة أخرى من الرسالة السماوية وأنهم جند الله ، وأنهم أنصار الله ، واستمعوا إلى قوله تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون ، وإن جندنا لهم المنصورون ، ألا إن حزب الله هم المفلحون . وإنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وأن العزة لله ولرسوله والمؤمنين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » إلى غير ذلك من الآيات ، وهذه الثقة كانت مضافة إلى الثقة الأولى .

وبهذه المناسبة أذكركم أيها الاخوان أنه لما أتى سيدنا سعد بن أبي وقاص أمام دجلة وهي تموج وتزبد ، هناك وقف سعد ابن أبي وقاص هنيهة واستعرض الماء المائج وما حوله ، ونظر إلى سلمان الفارسي وقال له : هل نخوض هذا البحر المائج أو نرجع فنبني القناطر والجسور ، فقال سلمان الفارسي كلمته الخالدة التي حفظها التاريخ ، قال : إن هذا الدين جديد ، إني مقتنع بأن الله تعالى سيظهر هذا الدين ، وإنه لم يصل القمة التي قدرها

الله له أن يصلها ، فكيف أظن أن تغرق هذه السفينة التي فيها حملة هذه الرسالة ، كلمة عامرة بالمعاني عميقة كل العمق ، إذا كان هذا الدين جديداً فلا بد من دوره المقدر له في بناء العالم وفي قيادة الدنيا والعالم وفي هداية البشرية وإنقاذها .. وأمر سعد ابن أبي وقاص جيشه أن يعبر النهر ، وكما يقول الطبري إنه لما رآهم الفرس قالوا : جاء الجن والعفاريت ، وهذه الثقة غمرت قلوبهم ونفثت فيهم حياة جديدة .

وارجعوا إلى تاريخكم كيف كان محمود الغزنوي يفتح البلاد الواسعة . وقد أثبت التاريخ أنه زحف على الهند سبع عشرة مرة وتوغل فيها فيصل إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الجنوب ، ولا مدد ولا ميرة ، ومركزه بعيد دونه الجبال الشاهقات ، والمسالك الوعرة والشعاب الضيقة ، ولا ينظر إلى هذه الغزوات إلا كما ينظر الشاب الرياضي القوي إلى الملعب والمباراة وإلى ميدان الرياضة ، إنه كان معتمداً على الله ثم يعرف أن الجهاد عبادة والموت في سبيله شهادة ، والشهداء لا يموتون بل أحياء عند ربهم يرزقون ، إنه كان مؤمناً كل الايمان بأنه حامل رسالة الله وبأنه سينشر دين الله والاسلام في الهند .

هذه العناصر المكونة لشخصية الشعوب ليست لشخصية الأفراد ،

وأن شخصية الأفراد لا شك قضية مهمة ، وقد تناولها بحثاً علماء علم النفس ورجال التربية، ولكني أتحدث الآن عن شخصية الشعوب ، فهذه العناصر منحت الشعب الأفغاني شخصية جبارة شخصية لاتقاوم ، شخصية لاتغالب ولاتنهزم ، وإن هذا كان مصير الأمم لما فقدت هذه العناصر المكونة للشخصية ولما أفلست في هذه العناصر ، وإني أخشى على الشعب الأفغاني العزيز أن يتجرد في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ الانسانية ومن تاريخ هذة الأمة من هذه العناصر القيادية القوية وأن يعود إلى سيرته الأولى حين لم يدخل الاسلام في هذه الأرض ولم يك مهتماً بالدعوة الاسلامية .

أقول لكم أيها الشباب : اغرسوا هذه العناصر في قلوب شعبكم واسقوها ، وغذوها ، واحرصوا عليها ، ولا تضيعوها ، فالشعب لم يزل من قديم الزمان هو الشعب ، والجبال هي الجبال ، والسماء هي السماء ، ونهر كابل هو نهر كابل يجري من آلاف السنين . وهذه الخيرات التي أكرم الله بها هذه الأرض . هذه الثمرات الطيبة وهذه الفواكه اللذيذة وهذا الماء العذب السائغ وكل شيء أكرم الله به هذه البلاد من آلاف السنين ولايزال ، ولكن القضية قضية العناصر وقضية الرسالة ، وقضية الثقة ، وقضية الأهداف والغايات ، حتى تكون للحياة غاية ، والمواهب

مجال للظهور ، وللقلوب مثل كامل في الحسن والاحسان تهيم بحبه ، وقد أدرك الدكتور محمد إقبال هذه الحقيقة ، وشكا إلى الله الجيل الاسلامي المعاصر في خموده وجموده ونكبته وتعاسته ، فكان الجواب « إنه يعيش بلاغاية وبلا رسالة ومن غير مثل كامل يهيم بحبه ويتغنى بجماله وكماله ويترسم خطاه .

شبي بيش خدا بكر يستم زار مسلمانان جرازارند وخوارند .
ندا آمد نمى داني كه اين قوم دلي دارند ومحبوبي دارند

ياشباب الأفغان ! إن الله سبحانه وتعالى أكرمكم ولم ينقص عليكم شيئاً ، وإن الله تعالى قال : « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » إن الله أكرم من أن يسلب نعمة أنعمها على قوم إلا أن يكون هذا الشعب أو هؤلاء الناس كفروا بهذه النعمة « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار » هذا واقع تاريخي لايشك فيه إنسان ، إن القضية قضية المعرفة — معرفة الشخصية — قضية معرفة القيمة — اعرفوا قيمتكم ياشباب .

يقول شاعر الاسلام إقبال : انزل في أعماق قلبك ، وأدارك سر الحياة ، إن لم تكن صديقي ، فلا بأس ، ولكن كن صديق نفسك ، وإن لم تعرفني فلا بأس ولكن اعرف نفسك .

الأمم تعيش وتسود بالرسالة والشخصية .. (١)
حديث في حفلة السفارة السعودية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

حضرات السادة الأجلاء !

إنني أنتهز هذه الفرصة الكريمة فأحيي هذه المجموعة الطيبة النقية المصطفاة باسم رابطة العالم الاسلامي التي أتشرف بتمثيلها وباسم الوفد الذي يزور هذه البلاد العزيزة الحبيبة ، وأشكر أهل هذه البلاد حكومةً وشعباً على الحفاوة النادرة التي لقيناها منهم ، وعلى كرم الوفادة ودماثة الخلق التي قابلونا بها ، ولا غرابة في ذلك فالكرم أصيل وقديم في هذا الشعب وقديماً قالت العرب : « الشيء من معدنه لا يستغرب » ، وقد تجلت هذه الروح الطيبة — بمعناها الواسع — في بطولات هذا الشعب ومغامراته وإداراته وحكوماته ، وهي التي دفعته قديماً إلى اجتياز حدود بلاده واختراق هذه الجبال الشاهقة يحمل مشعل الاسلام والثقافة والحضارة وحسن الادارة إلى الهند ، وقد عشت في تاريخه

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في ليلة يوم السبت الموافق ٩/ يونيه ١٩٧٣ م في حفلة التكريم التي عقدتها سفارة المملكة السعودية بفندق « أوتيل نابل » وقد مرت الإشارة إليها .

وأمجاده وأخباره زمناً طويلاً ، وكان من المعقول والمتوقع جداً أن أزور هذه البلاد قبل هذه الزيارة بمدة طويلة بحكم وجودي في الهند البلد المجاور ، ولكن أراد الله أن تتأخر هذه الزيارة إلى هذا الوقت ولعل لله في ذلك حكمة خفية .

أيها السادة الأجلاء :

لقد كان العرب في العهد القديم يستبعدون هذه البلاد ويضربون بها المثل في البعد وصعوبة الوصول ، وكانوا يسمون هذه المنطقة الشرقية كلها « خراسان » .

فقال شاعرهم :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا

وها قد وصلنا خراسان ، ودخلنا في أفغانستان ، وزرنا هذه الأرض الطيبة الجميلة التي أكرمها الله بجمال الطبيعة وجودة المناخ وكثرة الخيرات ، وقد قال الشاعر العربي :

ولما نزلنا منزلاً طلّه الندى أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه منىً ، فتمنينا فكنت الأمانيا

وقد كان هذا شأننا عند وروده هذه البلاد والشيء بالشيء يذكر ، فقد ذكرتنا هذه البلاد وما حباها الله من الحسن ، والاحسان شخصية كان لها الفضل في هذه الحياة الجديدة ،

شخصية نقلتنا من حياة إلى حياة ومن عالم إلى عالم ومن طور إلى طور ، ألا وهي شخصية سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، فقد كنا جسداً ولا روح ، واسماً ولا مسمى ، وصورة ولا حقيقة ، شعوباً لا غاية لحياتها ولا رسالة ، فأفاضت وأضفت هذه الشخصية الحبيبة على هذه الأمم والشعوب شخصية جديدة ومنحتها رسالة جديدة ، أما الشخصية فهي الشخصية الاسلامية القوية التي تجمع أفضل صفات الانسان وعناصر القوة والفتوة والخلق ، وأما الرسالة فهي الرسالة التي عبر عنها رسول العرب المسلمين في مجلس يزدجرد امبراطور إيران خير تعبير ، فقال لما سأله الامبراطور ما الذي جاء بكم ؟ : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام » .

يا أصحاب السعادة السفراء ويا أصحاب المعالي الوزراء :

إني أنظر إليكم كممثلين حقيقيين للشعوب والأقطار التي تمثلونها سياسياً وإدارياً ، وأتمنى أن تكونوا أكثر من ذلك وأعظم ، وأعتقد أن مهمتكم يجب أن لا تقتصر على الأعمال الرتيبة و « الروتينيات » .

إن الشرق يطلب منكم مجالاً أوسع من هذا المجال وعملاً

أضخم من هذا العمل ، إن الشرق اليوم يعيش على هامش الحياة وفي مؤخر الركب ، إن الغرب يأمره فيطيع ، ويقول فيسمع ، ويقوده فينقاد ، ويعلمه فيتعلم ؛ لأنه يعيش على فتات مائدته . إنه لا شخصية له ولا رسالة ، والأمم والحضارات لا تعيش إلا بالشخصيات والرسالات ، فيجب أن تبحثوا لهذا الشرق عن شخصية ورسالة ، شخصية فيها القوة والثقة ، شخصية فيها الأصالة والاستقلال ، شخصية فيها الجدّة والابتكار ، شخصية فيها الاعتداد والاعتزاز . ورسالة فيها الاخلاص والنزاهة ، والعطف والرحمة ، والعدل والمساواة ، والإخاء والسلام ، إنكم لا تحتاجون إلى أن تبعدوا النجعة وتشقوا الشعرة ، فإن هذه الرسالة بمتناول يدكم وبمقربة منكم ، وهي رسالة الإسلام التي أكرمكم الله بها وحملكم إياها ، ولسنا في حاجة إلى دين جديد إنما نحن في حاجة إلى إيمان جديد بهذا الدين ، ولسنا في حاجة إلى رسالة جديدة إنما نحن في حاجة إلى حماس جديد لهذه الرسالة ، إننا في حاجة إلى تقوية هذه الشخصية الاسلامية وتنميتها حتى يعيد التاريخ نفسه ، ويرتد الدهر على أعقابه .

في أرض النوابغ والشعراء

داعي الشوق لزيارة إيران

كانت زيارة إيران – يونان الشرق ومولد الجم الغفير من نوابغ الإسلام وعباقرته وأئمة الحديث والفقه وعلوم الحكمة والنحو والبلاغة والآداب العربية – أمنيّة قديمة كانت تراود النفس وتعاودها بين حين وآخر ، فقد عشنا في أطيافها وربيعها وحدائقها التي تغنى بها شعراؤها وفي أدبها الخصب وشعرها الرقيق ، وطبيعتها المرحة القلقة التي تجلت في مذاهبها المتطرفة ، وأفكارها الثائرة ، وفي تصوفها الولوع الحنون الذي كانت لـ « إيران » فيه الزعامة في العصر القديم ، ولكن لم تتحقق هذه الأمنية إلا في العهد الأخير ، حين قطع ركب الحياة أكثر مراحل السفر ، وغلب البحث عن الحقيقة على التفنن في الخيال ، ولعل ذلك كان خيراً ..

أصحاب الفضل في تيسير الرحلة

والفضل في هذه الزيارة التاريخية يرجع إلى رابطة العالم الاسلامي كما يرجع في زيارة أفغانستان ، فهي صاحبة الفكرة في هذه الرحلة ، وكان لصيتها البعيد في العالم الاسلامي ومكانتها المرموقة في نفوس المسلمين لانتسابها إلى مهبط الوحي ومهد الإسلام ومولد الرسول ﷺ ، والآمال الكبار التي يعلقها المسلمون بها ؛ فضل كبير في نجاح هذه الرحلة وما لقيه أعضاء الوفد من حفاوة بالغة من حكومة إيران الموقرة ، والشعب الإيراني المسلم ، والمنظمات الدينية والعلمية ، والشخصيات البارزة في هذا البلد الكبير .

وإن كان لرابطة العالم الاسلامي فضل في مشروع هذه الرحلة وتهيئة أسبابها .. ولا شك في ذلك .. فقد كان لرئاسة مجلس الأوقاف التي يشرف عليها معالي الدكتور « منوجهر آزمون » نائب رئيس وزراء إيران ورئيس هيئة الأوقاف الفضل الكبير في تيسير هذه الرحلة ووضع مخططاتها وبرامجها ، فإنه لما علم قصد الوفد لإيران أبى إلا أن ينزل الوفد في ضيافة الحكومة ، وأن تكون رئاسة الأوقاف هي المضيفة الكريمة بالنيابة عنها ، وعني عناية فائقة بتيسير مهمة الوفد(١) وتمكينه من أداء رسالته ، وأن

---

(١) وكان من هذا التيسير تعيين مرافق وترجمان فاضل للوفد =

يجمل عن البلد والشعب فكرة واضحة كاملة وصورة مشرقة زاهية ، ويرى الوفد لزاماً عليه ، ومن قبيل الاعتراف بالواقع أن يشكر معاليه على هذه العاطفة الاسلامية النبيلة والأريحية الايرانية المعروفة .

مساحة الرحلة الزمانية والمكانية

كانت المدة التي كان الوفد يقضيها في إيران ويزور في خلالها معالمها ومظاهر نشاطها الاسلامي وحركتها العلمية ثمانية أيام ، ولكن كاتب هذه السطور الذي رضع بلبان حب الأدب الفارسي ، شأن أبناء الأسر المسلمة قبل نصف قرن ، وعرف « سعدي » و « حافظ » في مقدمة من تعرف بهم من شعراء العالم وأدبائه ، أبدى رغبته في زيارة « شيراز » مدينة الشعر والسحر ، فأجاب معالي الدكتور إلى ذلك بكل سرور ، مضيفاً إليها مدينة « أصفهان » عاصمة الصفويين ومركز الفن الايراني ، وهكذا صارت هذه المدة عشرة أيام ، بدأت من يوم الاثنين ٩/ جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ الموافق ١١/ من يونيه ١٩٧٣ م [1] وانتهت بيوم الأربعاء ١٨ /

= كالدكتور أبي القاسم مشيري ، مدير الأوقاف في تهران ، وهو رجل مثقف نشيط يحسن اللغة الانجليزية وله مشاركة في اللغة العربية .

(١) وكان من ٢١/ من خرداد ١٣٥٢ بالتقويم الإيراني المنتشر في البلاد .

من جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٠/ من يونيه ١٩٧٣ م، وكان السفر صباح يوم الخميس ١٩/ من جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ ٢١/ من يونيه ١٩٧٣ م من تهران إلى بيروت في طريقنا إلى جدة ، فقد قررنا أن تكون مكة نهاية المطاف في هذه الرحلة .

كانت هذه الأيام العشرة التاريخية التي قضاها الوفد في إيران حافلة بالزيارات واللقاءات ، والرحلات والتنقلات ، والأحاديث والمحاضرات ، وكان النزول في « بارك اوتيل » (Park Hotel) أحد فنادق العاصمة الكبرى .

لقاء مع الوزراء والعلماء

وقد زار الوفد خلال هذه الأيام عدداً من الوزراء الكبار ، نخص بالذكر منهم دولة عباس هويدا [١] رئيس الوزراء ، ومعالي الأستاذ كاظم زاده وزير التعليم العالي ، فضلاً عن معالي الدكتور آزمون الذي قابله الوفد عدة مرات مدة إقامته بتهران ، وكانت مقابلته يوم الثلاثاء صباحاً أول مقابلة تشرف بها الوفد ، وقد جلس معه طويلاً في جو من الحرية والبساطة وعدم التكلف ، وتشعب

---

(١) أقام دولته في شبابه في بيروت مدة طويلة ، وتخرج من الجامعة الأمريكية البيروتية ، لذلك يتكلم العربية بطلاقة وكأبنائها ، ويرأس الوزارة في إيران منذ عشر سنين أو أكثر .

الحديث وتناول جوانب إسلامية وعلمية وتاريخية ، وكانت مقابلته كذلك هي الأخيرة ، فقد أقام الدكتور حفلة عشاء فاخرة تكريماً لأعضاء الوفد في فندق « هلتون (Hilton) ليلة الخميس ١٨ / من جمادى الأولى حضرها عدد من الوزراء وكثير من العلماء وأعيان البلد .

وكان من بين العلماء الذين زارهم الوفد وجلس إليهم وتداول معهم الحديث في موضوعات دينية وعلمية ، أصحاب السماحة والفضيلة « آية الله العظمى [1] » السيد محمد كاظم شريعة مداري ، و « آية الله العظمى » الشيخ حبيب الله ميلاني ، و « آية الله العظمى » المرزا محمد خليل كمره آي ، و « آية الله » السيد حسن إمامي . إمام مسجد شاه في تهران ، والأستاذ الكبير « آية الله » محمد تقي القمّي ، ومن الشخصيات العلمية والأساتذة الكبار العلامة وحيدي ، المشرف على مسجد سپه سالار في تهران ، والدكتور محمدي عميد كلية الالهيات ، والأستاذ شيخ الاسلام أستاذ الفقه الشافعي في كلية الالهيات ، والدكتور عباس الماجراني

---

(١) أصحاب الفضيلة العلماء في إيران طبقتان ، الطبقة الأولى هم الذين بلغوا الدرجة القصوى في التبحر العلمي والمكانة الدينية ويلقبون بـ « آية الله العظمى » والذين يلونهم يسمون بـ « آية الله » .

رئيس تحرير مجلة « الفكر الاسلامي » العربية الصادرة في تهران، والدكتور سيد حسين نصر رئيس « جامعة آرية مهر » في تهران، والكاتب الاسلامي الطائر الصيت ومؤلف كتب إسلامية قيمة باللغة الانجليزية ، والأستاذ السيد هادي خسرو شاهي الكاتب الاسلامي المعروف ورئيس تحرير مجلة « الهادي » العربية في دار التبليغ الاسلامي بـ « قم »[1] .

زيارة المراكز الدينية والعلمية والمدن التاريخية الأثرية

وكان من بين المدن التي زارها الوفد — عدا مدينة تهران عاصمة إيران — مدينة « قم » المركز العلمي الديني الأكبر في إيران ، و « مشهد » المركز الروحي الأكبر ، ومدينة « أصفهان » التي كانت عاصمة إيران لأطول مدة ، وفي أزهر العهود مدنيّة وفناً ، ومدينة « شيراز » درة إيران الشعرية والأدبية ، وقد تجول الوفد في أحياء هذه المدن القديمة والجديدة وشاهدها بنفسية المسلم المستطلع ، وعين المؤرخ المعني بالآثار ، وذوق السائح المتنقل في البلاد والأقطار ، وكان في مشاهداته هذه إشباع لكل هذه

---

(١) مع الأسف لم نقابل عدداً كبيراً من الأساتذة الجامعيين والمثقفين بالثقافة العصرية المدنية ، لأن الزمن كان زمن الإجازة الصيفية في الجامعات والكليات ولضيق الوقت .

النواحي ، وقد أعجب بالفن الرفيع ، والهندسة البارعة ، والنقش البديع ، والذوق الرفيع والمدنية الزاهية التي بلغت أوجها في عهد الصفويين ، وشاهد المصنوعات الوطنية والتحف الفنية التي فاقت فيها إيران .

وكان من بين المشاهد التي زارها الوفد مسجد السيدة معصومة أخت « الامام » علي الرضا بن موسى الكاظم ، وفيه ضريحها الذي يقصده الايرانيون من أنحاء بعيدة ويغص المسجد بهم ، ومشهد « الامام » علي الرضا الذي هو أكبر مشهد ومزار في إيران كلها ، تشد إليه الرحال ويؤمه الزوار من أقصى البلاد ولا ينقطع عنه الزائرون ولا تتوقف حركة السفر إليه في أي ساعة ليلاً ونهاراً .

ومن المساجد الأثرية التي زرناها مسجد سپه سالار في تهران الذي هو آية الفن والهندسة والنقش والتلوين ، ومسجد شاه الذي هو المسجد الجامع في العاصمة ، ومسجد « كوهر » في (المشهد) ، ومسجد شاه عباس الصفوي ، ومسجد شيخ لطف الله ، ومسجد الجامع ، ومسجد جهار باغ كلها في أصفهان ، ومسجد وكيل في « شيراز » .

ومن المؤسسات والمعاهد التي زرناها ، كلية الالهيات والمعارف الاسلامية في جامعة تهران ، ودار التبليغ الاسلامي في مدينة

« قم » ومركز التقريب بين المذاهب الاسلامية في تهران .

الندوات والمحافل

أما الندوات والمحافل التي استقبل فيها الوفد ، وتكلم فيها أعضاؤه ، فمنها منزل العلامة شريعة مداري ، ودار التبليغ في « قم » وقد عقدت في هذه الدار حفلة تكريم كبيرة للوفد ، ألقيت فيها محاضرات وأنشدت قصائد ، ومنزل العلامة حبيب الله ميلاني في (مشهد) ألقيت فيه كلمة ترحيب للوفد ، وأجاب عنها عضو الوفد الأستاذ أحمد محمد جمال ، ومنزل العلامة مرزا محمد خليل كمرآني ، أقيمت فيه حفلة تكريم لطيفة واستقبل الوفد بهتافات حماسية وكلمات ترحيب رقيقة ، وأنشد نشيد إقبال الطائر الصيت الذي مطلعه « الصين لنا والعرب لنا » معرباً بقلم الأستاذ صاوي شعلان المصري ، ومترجماً إلى الفارسية بالشعر ، وتكلم في هذه الحفلة عضو الوفد الأستاذ أحمد محمد جمال وكاتب هذه السطور ، وسيمر بالقارىء في هذا الكتاب نص الكلمة التي ألقاها كاتب هذه السطور نقلاً من الشريط المسجل مع تنقيح وتهذيب وزيادة يسيرة ، وزار الوفد مركز دعوة التقريب بين المذاهب الاسلامية ، تكلم فيه الأستاذ الكبير محمد تقي القمّي ،

وكاتب هذه السطور وحضر لفيف من علماء البلد ورجال الثقافة والفكرة .

في « طوس » مدينة الآثار والأمجاد

ومن الآثار التاريخية التي زارهـا الوفد في المشهد ضريح شاعر إيران الخالد « فردوسي » (م ٤١١ هـ) صاحب الملحمة الفارسية المعروفة بـ « شاهنامة » التي هامت بهـا إيران في كل زمان وإليها يرد الفضل في تخليد أمجادها وإحياء لغتها الفارسية ، وإثارة الشعور القومي ، وقد عنيت حكومة إيران بهذا الضريح عناية عظيمة ، وأدّت إلى الشاعر العظيم ضريبة الاجلال والاكبار وتوّجه بأعظم رمز لتخليد الآثار .

وقد تجولنـا في « طوس[1] » وهي الولاية القديمة الغنية بآثارها ورجالها ، وقد أنجبت نوابغ مثل حجة الاسلام محمد بن محمد بن محمد أبي حامد الغزالي ، والوزير الخير الشهير نظام الملك الطوسي رئيس وزراء الامبراطورية السلجوقيـة ، والشاعر

---

(١) قال البغدادي في مراصد الاطلاع وهو يذكر « طوس » :
« مدينة بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ ، تشتمل على بلدتين ، يقال لإحداهما : الطابران ، والأخرى نوقان ، وبها أكثر من ألف قرية ، بها قبر الرشيد ، وعلي بن موسى الرضا في بستان كان بها » .

العظيم « فردوسي » ، والحكيم الكبير نصير الدين الطوسي وغيرهم.

على قبر الغزالي

وقد هاجت هناك ذكريات تاريخية وتمثلنا أيامها الزاهرة ، يوم كانت مدرسة العلم ومربية الجيل ومأوى الفضل ، وكان طبيعياً ونحن نمشي في أطلالها وبين عرصاتها أن ينتقل ذهننا إلى مفخرة الاسلام عبر القرون والأجيال ، ونابغة النوابغ ، وأحد العقول الاسلامية الكبرى ، حجة الاسلام وحسنة الأيام : الامام أبي حامد الغزالي الذي لم يرزق أحد من بين علماء الاسلام - بعد مؤسسي المذاهب المعمول بها في العالم الاسلامي - من القبول والشهرة وخلود الآثار العلمية ما رزق هذا الامام ، وسألنا عن مسكنه ومدفنه ومركز حركته العلمية التي أخذت من العالم الخراج ، وانحنى أمامها السرير والتاج ، فلم يكن الجواب مشجعاً ولا مسلياً ، مشى بنا الدليل أراض مقفرة وأنقاض متراكمة ، ووقف بنا أمام بناء قديم يندب حظه ويشكو قسوة الزمان وقيل لنا : إنها « هارونية » التي كان الخليفة العباسي هارون الرشيد يحبس فيها من تنزل عليه نقمته . فلا يرى ضوء الشمس بعد ما يدخلها ، وقد وقع بيدنا كتاب ألفه أحد الأساتذة الايرانيين الدكتور عيسى صديق أحد أساتذة جامعة تهران . وقد أسماه « آرام كاه غزالي » يعني مرقد

الغزالي ، فنّد فيه هذه الشائعة وبين أنها أسطورة لا تستند إلى التاريخ ، وقد بحث في هذا الكتاب الصغير عن ضريح الامام الغزالي وموقعه في طوس ، واحتج بنصوص المستشرقين الأوربيين ، في مقدمتهم البروفيسور بوب الأمريكي (Pope) والدكتور زويمير (zwemer) ، ومن المؤرخين المسلمين تاج الدين السبكي من المتقدمين ، وآقاي علي أصغر حكمة من المتأخرين ، ووصل بكل ذلك إلى نتيجة أن قبر الغزالي بجوار هذه البناية العتيقة الأسطورية ، وحدانا الذوق التاريخي والاشتغال بآثار الغزالي والانتفاع بها إلى قبره ، فرأينا ضريحاً قد جدد حديثاً يقع عن يسار هذه البناية ، إذا استقبلها الواقف ، ولا كتابة عليه ولا لوحة ، وأخبرنا أن اللوحة لا تزال في جوف البناء ورأيناها فعلاً ، وقد انطمست كتابتها فلا تقرأ إلا بعض الكلمات بصعوبة ، وقد وقفنا خاشعين أمام عظمة الله تعالى ، وآمنا بأنه هو الحي الدائم ، وقرأنا قوله تعالى : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

نادر شاه أفشار :

ومن هذه الآثار التاريخية ضريح نادر شاه أفشار الذي غزا الهند في سنة ١١٥١ هـ (١٧٣٩ م) وفتح دهلي ، ووضع السيف

في أهلها ، فما رفعه إلا بعد أن سالت دماء المسلمين غزيرة في شوارع دهلي [1] ، وأدخل الذعر والخوف قلوب أهل البلاد ، وطأطأ أمامه رأس الملك المغولي (حفيد الامبراطور أورنك زيب عالمكير) « محمد شاه » واستولى على عرش الطاؤس الذي صنعه « شاهجهان » وكان مرصعا بالجواهر الكريمة فأخذه إلى إيران ، وكان لاشك من أكبر القادة العسكريين الذين نبغوا في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وهو الذي اتخذ « مشهد » عاصمة له ، وقاعدة لقيادة الجيوش إلى الهند ، وقد عنيت مصلحة الآثار القديمة بإبراز هذا الأثر التاريخي وأحاطته بالكتابات والصور التي تلقي ضوءاً على عصامية هذا القائد ومغامراته ، وقد قصدت أحد متاحف تهران ، وهو « كاخ كلستان » شوقاً إلى مشاهدة عرش الطاؤس ، وتحكمت فيَّ الطبيعة الهندية والذوق التاريخي ، فعرفنا أنه جزء وقطع ، وأودعت الجواهر النفيسة في بعض « البنوك » أو المتاحف

---

(١) وسببه الذي ذكره المؤرخون أن جيش نادرشاه كان منتشراً في المدينة نازلين مع أهلها ، فكان أوباش الهند إذا ظفروا بواحد منه قتلوه غيلة ، فبلغ نادرشاه ذلك ، فأمر جيوشه بقتل أهل المدينة ، فما زالوا يقتلون من وجدوه ثلاثة أيام حتى أربى القتلى من أهل الهند على مئة ألف ، ثم أمرهم بعد اليوم الثالث برفع السيف ، ونادى بالأمان ، (نزهة الخواطر ، ج : ٦ ، ص : ٢٥٨) .

الأثرية ، وصنع سرير آخر تقليداً له يحاكيه في الهندسة ولم نعلق عليه أهمية .

ذكرى الرشيد

ولم نعرف أثراً لضريح الخليفة هارون الرشيد الذي دوّى اسمه في الآفاق ، ونال من الشهرة حظاً لم ينله ملك من ملوك المسلمين بل من ملوك الشرق ، والذي قال لقطعة من سحاب مرت على رأسه : « أمطري حيث شئت فسيأتني خراجك » وقد أحاطت به هاله من الأساطير والروايات لم تحط بشخصية أخرى ، ومن الثابت في التاريخ أنه دفن في طوس ، ولايستبعد أن يكون قبره بجوار سيدنا علي الرضا (١) ، ولكنه أصبح مغموراً مطموراً بجنب شخصيته الدينية ، وما تدين لها إيران من تعظيم وتقديس .

---

(١) كانت وفاة الرشيد سنة ١٩٣ هـ بـ « طوس » ودفن بها ؛ وتوفي سيدنا علي الرضا سنة ٢٠٣ هـ بمدينة « طوس » كذلك ، قال ابن خلكان : « وصلى عليه المأمون ودفنه ملاصق قبر أبيه الرشيد » ؛ واختلف في سبب موته ، فقيل : إنه كان موتاً طبيعياً وقيل بل كان مسموماً ، سمه بنو العباس ، لأن المأمون عهد إليه بالخلافة . اقرأ التفصيل في كتب التاريخ ، واشتهرت طوس بـ « المشهد » بسبب دفنه ، لعل ذلك في أيام الصفويين ، وهـــذه المنطقة كلها كانت تسمى « خراسان » ولا يزال هذا الاسم باقياً في هذا العصر .

وفاتنا أن نزور نيشابور عاصمة السلاجقة[1] والمدينة العلمية التاريخية العظيمة التي نهض منها علماء كبار وشعراء مفلقون ، وفيها قبر الشاعر المشهور عمر الخيام (م ٥١٧ هـ) وخاجا فريد الدين عطار الشاعر الصوفي (م ٦٢٧ هـ) وهي تبعد من « المشهد » في جهة الغرب مئة وثلاثين كيلو متراً ولم يتسع وقتنا لزيارته .

في أصفهان

وزرنا « أصفهان » مدينة العلم التي نبغ فيها كثير من العلماء والأدباء ، كأبي نعيم الأصفهاني صاحب « حلية الأولياء » (م ٤٣٠ هـ) والراغب الأصفهاني صاحب « مفـــردات في غريب القرآن » (م ٥٠٢ هـ) وأبي الفرج الأصفهاني (م ٣٦٨ هـ) صاحب الأغاني ، والامام داوُد الظـــاهري (م ٢٧٠ هـ) صاحب المذهب والأستاذ أبو بكر محمد بن فورك المتكلم الأصولي (م ٤٠٦ هـ) وكانت مدينة مرموقة في أوائل التاريخ الاسلامي ، وخاصة في العهد العباسي ، واتخذها ملك شاه السلجوقي عاصمة مملكته الواسعة ، إلا أنها نالت قسطاً كبيراً من الشهرة ، واحتلت المكانة الأولى في إيران في عهد

---

(١) كانت عاصمتهم في عهد « طغرل بك » و « ألب أرسلان » وقد أنشئت فيها مدارس كبيرة منها « المدرسة النظامية العظيمة » التي كان يدرس فيها إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني (م ٤٧٨ هـ

الصفويين ، وقد جرى تتويج الشاه إسماعيل الصفوي — مؤسس الأسرة الحاكمة وجلوسه على العرش في « تبريز » وهو الذي أعلن المذهب الشيعي ، كدين الدولة الرسمي ، واتخذ « قزوين » عاصمة ملكه ، وخلفه الشاه عباس الصفوي — أعظم ملوك الأسرة الصفوية وأشهرهم - سنة (١٦٠٢ م) ونقل العاصمة إلى « أصفهان » وإليه يرجع الفضل في تخطيط المدينة الجديدة ، والبلوغ بها إلى أوج المدنية والزخرفة ، وله آثار معمارية عظيمة في أصفهان ، تجلى فيها ذوقه الرفيع ، وعنايته البالغة ، وقد نزلنا في فندق منسوب إليه يسمى « مهمان سراي شاه عباس صفوي » وهو بقصر ملوكي أشبه منه بفندق أو نزل ، وتحيط بالمدينة آثار تاريخية ، وحدائق ومشاهد لم يتسع وقتنا لزيارتها .

وحكم الصفويون مدة قرنين وهم في أوج القوة والإقبال ثم أصابهم الضعف والهرم شأن الأسر الحاكمة كلها في العالم ، وبدأ في إيران دور الاضطراب وعدم الاستقرار ، تتخلله فترات من حكم قوي وقيادة ثابتة حتى جاء دور القاجاريين وهم من أصل تركي وفي عهد آغا محمد شاه (١٧٧٩ م) انتقلت العاصمة إلى تهران ، وكانت مدينة صغيرة لا شأن لها ، فتوسعت وأخذت زخرفها

وازينت في خلال القرن التاسع عشر والعشرين المسيحيين ولله الأمر من قبل ومن بعد .

في شيراز :

وزرنا شيراز التي دخل اسمها في أدبنا الهندي وفي أمثال لغتنا ، وكان مثلنا ومثلها كما قال بشار بن برد :

والأذن تعشق قبل العين أحياناً .

وبدأنا بزيارة قبر الشيخ مصلح الدين سعدي (م ٦٩١ هـ) صاحب الحديقتين الزاهرتين الخالدتين « كلستان » و « بوستان [1] » ويسمى هذا المكان بـ « سعدية » ، وحضرنا ونحن واقفون على قبره بعض أبياته التي تمنى فيها دعاء رجل تهيجه عاطفة الحنان والرحمة ، فيدعو له ، ودعونا دعوة من نهل من موارده ، واقتطف زهوره ، ثم زرنا قبر خاجا حافظ (٧٩٣ هـ) من أكبر شعراء الحب والحنان ، والعاطفة والوجدان ، في عصره وبعد عصره ويسمى هذا المكان بـ « الحافظية » .

ونهضت من « شيراز » جماعة من كبار علماء الإسلام ، كالعلامة أبي إسحاق الشيرازي (م ٤١٨ هـ) رئيس أساتذة جامعة النظامية ببغداد ، وعلي بن عيسى أبو الحسن الربعي نامذ أبي علي

---

(١) معناهما الروضة والحديقة .

الفارسي ، والإمام في النحو (م ٤٢٠ هـ) وأصبحت في العهد الأخير مركزاً لعلوم الحكمة (الفلسفة والمنطق) ونهض منها العلامة صدر الدين الشيرازي (م ١٠٥٩ هـ) صاحب « الأسفار الأربعة » في الحكمة ، وشرح « هداية الحكمة » المعروف بـ « صدرا (١) » والأمير فتح الله الشيرازي (م ٩٩٧ هـ) الذي كان له تأثير عميق في المناهج الدراسية في الهند ، والأمير غياث الدين منصور

وتدين شيراز الحديثة في عمرانها وجمالها ، ومساجدها الكثيرة لكريم خان من أسرة « زند » التي حكمت فارس بعد الصفويين واتخذت « شيراز » مركزاً لها .

وزرنا « تخت جمشيد » الذي هو من أقدم الآثار التاريخية في إيران ، وهي عاصمة « دارا » الأول ، يرجع تاريخها إلى ألفين وخمس مئة سنة ، وكانت قاعدة ملك كبير ، ومركز حضارة من أرقى حضارات العالم القديم ، وقد تجلى فيها الفن المعماري والهندسة البنائية وطريقة نقل الحجارة الضخمة الهائلة إلى الهضاب والمرتفعات ، وبناء الأعمدة الشامخة ، في أروع مظاهرها ، يذكر

---

(١) قد دخل هذا الكتاب في المناهج الدراسية في الهند منذ القرن الحادي عشر الهجري ، واعتبر من الكتب الذي لايعتبر الطالب محصلاً عالماً ، إلا إذا قرأه وأتقنه .

السائح بأهرام مصر وقدرة المصريين القدماء على نقل الحجـــارة وتركيب بعضها ببعض ، وقد عقدت حكومة إيران في هذا المكان في أكتوبر ١٩٧١ م مهرجاناً بمناسبة مرور ألفين وخمس مئة سنة على الإمبراطورية الإيرانية ، حضره رؤساء الجمهوريات وملوك العالم ووزراء الدول وممثلو البلاد ، وأنفقت عليه الملايين من النقود ، وتفاصيل هذا المهرجان لا تقل عن أساطير ألف ليلة وليلة في الغرابة ، والمحل يبعد عن شيراز ستين كيلو متراً تقريبـــاً .

وقد ملكتني دهشة وأنا أجول في أطلال هذه المدينة البائدة فاستغرقت فيها ، كيف استطاع العرب رعاء الشاة والغنم وسكان الوبر والمدر أن يفتحوا هذه البلاد العريقة في المدنية الغنية في الحضارة والعلم ، التي كانت هذه المدينة بعض آثارها والتي توارثت الملك والمدنية منذ آلاف من السنين وبلغت بها شأواً بعيداً لايتصوره العقل ؟ ! وكان الجواب ، قوة الإيمان والدعوة وفضل تعاليم الإسلام ، والبعد عن أدواء المدنيـــة المصطنعة ، وحياة الرقة والنعومة .

نزلنا في شيراز في « أوتيل سارس » وسارس هو من

أعظم ملوك إيران ، ورمز عظمتها ومجدها الغابر ، ويرجح بعض الباحثين أنه الملك الذي تحدث عنه القرآن في سورة الكهف بلقب « ذي القرنين »(١) وهو الذي خلص اليهود من أسر بختنصر واعادهم إلى فلسطين ، فهم يعتبرونه المنقذ لليهود وصاحب الفضل عليهم ، وهو الذي احتفلت به حكومة إيران كما ذكرنا ، وهو فندق كبير يحافظ فيه على التقاليد الايرانية القديمة ومظاهرها ، في لباس المضيفات والخدم ، ويظهر ذلك التقليـــد في مطاعم المدينة الأخرى .

ويمتاز أهل « شيراز » بخفة الروح والمرح وحب الألحان المطربة ، وقد جلست في شرفة الفندق في الليل ، والمدينة تسبح في فيض من الأغاني والأنوار والتسلية والتمتع ، وأنا أسبح في بحر من الذكريات ، وعهود التاريخ الماضي ، وأحداث الزمان وتقلباته ، وكأني أشاهد قصة مسرحية تتتابع فصولها ويتغير أبطالها وتختلف مناظرها ، ثم أذكر قول الله تعالى :

---

(١) ذهب إلى ذلك مولانا أبو الكلام آزاد : وزير المعارف الأسبق في حكومة الهند والزعيم الهندي المشهور ، في تفسيره « ترجمان القرآن » ورجحه الأستاذ أبو الأعلى المودودي في « تفهيم القرآن »

« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » (١) وقوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروهـا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٢) » .

هذا استعراض مجمل لهذه الجولة التي كانت لها صـدى في القلوب والنفوس ، وحديث في المجالس والمحافـــل ، ولم تغفل الإذاعة والتلفزيون أن تلعب دورها في الإشارة بهذه الجولة ، التي كانت جديدة في نوعها ، ذات أهمية في نتائجها وآثارها ، ويستطيع القارىء المعني بالرحلات والجولات أن يأخذ عنه صورة مجملة وفكرة عامة عن طبيعة هذه الرحلة ، وقيمتها التاريخية والأثرية والاجتماعية والعلمية .

انطباعات ، ملاحظات ، اقتراحات

ونريد بعدما انتهينا من هذه الرحلة التي لا بد منها ، أن نورد هنا بعض انطباعاتنا وملاحظاتنا في هذه الجولة التي لم تكن سياحة

---

(١) الآية ٦٤ من سورة الروم

(٢) الآية ٩ من سورة العنكبوت

في بلد شرقي إسلامي فحسب ، ولا زيارة تحيـة ومجاملة ، وإنما كانت أبعد مدى وأعمق أثراً من الرحلات التاريخية ، والزيارات الأثرية ، وتبادل التحية بالتحية ، وهنا نضطر إلى أن نسجل بعض الجوانب المشرقة التي تفتح مجالاً واسعاً الآمال والأعمال ، وتبعث على السرور والتفاؤل ، ونسجل جوانب تثير الاستغراب ، وتطلب — إلى حدّ ما — سعة نظر ورحابة صدر ، وثقة بإخلاص القائل، وحسن قصده ، ولا شك أن كثيراً من إخواننا الفضلاء في إيران متحلون بهذه الصراحة ، وقد لمسنا آثارها في الأيام التي عشناها بينهم .

١ — أن أول شيء بهرنا وأثار فينا الاستغراب مع الإعجاب، والحيرة مع المسرّة ، هي شدة رغبة إخواننا الإيرانيين على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم في الوحدة الاسلامية والالتقاء على صعيد واحد من جوهر الاسلام ومبادئه الأولية ، وأعترف هنا أننا لم نكن نتوقع هذه الموجة القوية من حب الوحدة ومدّ يد الأخوة والصداقة إلى سائر المسلمين في العالم وتكوين جبهة موحدة ضد اللادينية التي تتحدى جميع الأديان ، وجميع القيم الخلقية ، والتي لا تميز بين سني وشيعي ، وحنفي وشافعي ، ومحافظ ومتجدد ، ومقلد ومجتهد ، إنه كان فاتحة الحديث وخاتمته في المجالس ، والهتاف الصـــارخ في

الندوات والحفلات ، والرغبة الجامحة في النفوس والقلوب ، ولاشك أنها ظاهرة طيبة مباركة ، يجب على جميع المعنيين بقضية الاسلام والمسلمين أن يستثمروها ، ويستخدموها في صالح الاسلام ، الذي جنت عليه الغالاة . وتخطي الحدود في الاختلاف جناية كبيرة ، والذي جر في منتصف القرن السابع الهجري على بغداد ـ مركز الخلافة وعاصمة الاسلام ـ الشقاء الأكبر ، وكان سبب كارثة لايوجد لها نظير في التاريخ[1] ، ومنع العثمانيين أن يفتحوا أوروبا ، ويتوغلوا فيها إلى أقصى حد ، وأضعف الحكم الاسلامي في الهند ثم انتهى به إلى الانقراض التام .

٢ ـ والشيء الثاني ما لمسناه في هذه الزيارة من عناية بالآثار الاسلامية ، والتأليف في اللغة العربية ، وإحياء التراث القديم ، والاعتناء بالمصاحف الأثرية ، وتحليتها وتزيينها ، مما يدل على التقدير والاهتمام ، وقراءة القرآن ـ وأكثره من صوت القراء المصريين المسجل في المشاهد والحفلات واحترامها .

---

(١) اقرأ رثاء مصلح الدين سعدي الشاعر الإيراني على هذا الحادث ، وقصيدته الحزينة الدامية على نكبة المسلمين في ديوان شعره والتي مطلعها :

آسمان راحق بودكر خون ببارد بر زمين
بر زوال أمر مستعصم أمير المؤمنين

٣ – ومنها الغيرة الدينية ومحاربة الحركات الهدامة الشائرة على الاسلام ، وفي مقدمتها البهائية التي منعت في إيران منعاً قانونياً واعتبر معتنقوها مارقين من الاسلام[1] ، مع أنها ديانة ولدت في إيران ونشأت فيها ، وكذلك كراهة علماء إيران الديانة القاديانية ومحاربتهم لها . أضف إلى ذلك عدائهم للإلحاد وللشيوعية في بلادهم ، وهذه الغيرة جديرة بأن يغتبط عليها ، وتقلد إيران فيها الأقطار الاسلامية الأخرى وخاصة باكستان التي بينها وبين إيران صلات الصداقة المتينة .

٤ – ومنها دماثة الخلق ورقة العاطفة وكرم الضيافة الذي يلقاه به المسلم الايراني أخاه الوافد من بلاد الاسلام ، وإشعاره بأنه بين إخوانه وأحبابه وفي بلده ، وكنا لا ننزل في بلد إلا ويستقبلنا رجال الحكومة وأعيان البلد وعلماؤه الكبار ، وقد رأينا كبار المسؤولين وبعض العلماء المشهورين واقفين على حافة الطريق في الشمس لاستقبالنا ، ونحن متوجهون إلى « قم » وكان السفر بالسيارات ، وقد تأخرنا في الوصول ، هذا ما شهدناه ولمسناه في هذه الزيارة القصيرة .

---

(١) وقد بلغنا أخيراً أن البهائية لا يزال لها أتباع في إيران ، ولا يزال لها نفوذ في الأوساط العليا .

أما الجوانب التي نريد أن نلفت إليها نظر إخواننا الايرانيين وخاصة العلماء الأفاضل والموجهين والقادة فهي كما يلي :

١ — من المعلوم أن المقصود الحقيقي من إرسال الرسل وإنزال الكتب بل من خلق السماوات والأرض وخلق الانسان ، هو عبادة الله وحده ، بجميع ما تحتوي عليه هذه الكلمة البليغة المعجزة من معـــ في الحب والطاعة ، والخضوع ، والخشوع ، والإخبات والإنابة والالتجاء والافتقار ، وإنما جاءت الرسل صلوات الله عليهم أجمعين — ليربطوا الخلق بالخالق قلباً وقالباً ، ويأخذوا بنواصيهم ويطأطأوا رؤوسهم على عتبة عبوديته ، وتلك غاية أمانيهم ومنتهى سعادتهم ونجاحهم وفيها نعيم قلوبهم ولذة روحهم ، ولم يأتوا ليشغلوا العباد بنفوسهم ويقفوا حاجزاً بينهم وبين ربهم ، إنهم لم يأتوا لاستعباد الانسان للإنسان ، أو لأسرة أو بيت أو سلالة أو عرق أو دم ، وإن كانت هي أسرتهم وبيتهم وأبناؤهم ، إن طبيعة تقديس الدماء والعروق والسلالات والأجيال ، وتأسيس الدول الكبيرة ، وإنشاء السيادات والزعامات للأبناء والأحفاد ، وتأمين مصالحهم ومركزهم في المستقبل ، ودعوة الناس إلى تمجيدهم وتقديسهم والتغني الدائم بامتيازاتهم ، وبحكونهم فوق البشر أو مستوى العامة ، طبيعة تليق بالملوك الفاتحين والقادة الطامحين ،

وطلاب الدنيا وعبّاد المادة ، قد عرفت في تاريخ الحكومات ، وفي تاريخ الأسر والبيوتات في الزمن القديم ، ولا تليق بالأنبياء والمرسلين ، ولا أبلغ من قوله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »(١) .

ولذلك كان النبي ﷺ حذراً شديد الحذر من كل ما يشغل الناس بالناس ، أو يقف حاجزاً بين العبد وربه ، أو يوجه عاطفة العبودية والإنابة ، أو التقديس والتمجيد إلى غير الله تعالى ، شخصاً كان أو أثراً أو معبداً أو مشهداً ، فقد صح أنه قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »(٢) وقال : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذّر ما صنعوا »(٣) وقال : « لا تجعلوا

---

(١) الآيتان ٧٩ – ٨٠ من سورة آل عمران

(٢) رواه مالك مرسلاً في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٣) حديث متفق عليه .

قبري عيداً »[1] والأحاديث في ذلك كثيرة .

وذلك كله مخافة أن تتعلق القلوب وتتجه النفوس إلى غير الله ، وينشأ وينمو ذلك على حساب الإقبال على الله تعالى والإنابة إليه ، وعلى حساب البيوت التي « أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار »[2] ، وقد أثبتت تجربة الأمم السابقة أنه ما فتنت أمة بالمشاهد والضرائح والآثار والأعياد ، إلا شغلت عن المناسك والمساجد ، وإقام الجماعات فيها والعكوف عليها ، والفزع إليها وإلى الصلاة ، إذا حزبها أمر أو نزل

---

(١) رواه أبو داؤد عن أبي هريرة وهو مروي بلفظ « لاتتخذوا قبري عيداً » برواية أهل البيت عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الحسن بن الحسن عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روي الأول في المختارة ، وروى الثاني سعيد بن منصور في سننه ، والعيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك .

(٢) الآيتان ٣٦ — ٣٧ من سورة النور

بها حدث .[1] .

وقد لاحظنا مدة إقامتنا القصيرة في إيران أن المشاهد أكثر عمراناً وازدحاماً ، والنفوس أعلق بها من المساجد ، فإذا دخل غريب في مشهد سيدنا علي الرضا لم يشعر إلا وأنه داخل في الحسرم ، وهو غاص بالحجيج مدوي بالبكاء والضجيج ، مكتظ بالرجال والنساء ، مزخرف بأفخر الزخارف والزينات ، قد تدفقت إليه ثروة الأثرياء وأموال الأغنياء وتبرعات المتوسطين والفقراء ، فلا يكاد يفرق بينه وبين الحرم المكي والمسجد النبوي ، ويرى أقل من ذلك في مدفن السيدة معصومة بـ « قم » .

أما المساجد – وإيران من أغنى بلاد الله في كثرتها وسعتها وفخامتها ، وبعض مساجدها لايوجد لها نظير في الأقطار الاسلامية — فلا يرى فيها هذا الزحام ، وهذا الحماس الديني والاندفاع العاطفي ، بل إن كثيراً منها تشكو قلة المصلين وزهد القاصدين ، هذا مع علمنا بما في المذهب الجعفري من أحكام خاصة عن الجمع بين الصلاتين ، وشروط الإمام الدقيقة ، فقد كان من الممكن أن تكون المساجد والجوامع رغم ذلك أكثر حظاً من العمارة والحيوية

---

(١) روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حزبه أمر صلى (رواه أبو داؤد) .

والأنس والتلاوة والذكر ، مما هي الآن ، ولا شك أن علماء إيران الأفاضل وأهل الغيرة الدينية يولون هذه النقطة اهتمامهم الخاص ، حتى لا يسوغ لزائر أن يشعر بهذا الفرق الواسع بين المساجد والمشاهد (١) .

ومن آثار هذا الهيام — الذي قد تخطى الحدود — بكل

---

(١) ومن قبيل الاعتراف بالواقع والشهادة بالحق أن فتنة الضرائح والمشاهد ، وشد الرحال إليها من أنحاء بعيدة والاجتماع عليها سنوياً مما يخاف منه أن يدخل تحت نهي « لا تتخذوا قبري عيداً » والأعمال الشركية منتشرة عند جهلاء أهل السنة في مصر وفي شبه القارة الهندية ، ولا يمكن إنكارها ، ولكن مما لاشك فيه أن علماء أهل السنة الراسخين في العلم ، والمبينين للحق لم يزالوا من عهد السلف إلى عهد الخلف ينكرون على ذلك أشد الإنكار ، ويحذرون الناس منه أعظم تحذير ، ويتعرضون لسخط العامة ، ولا يخافون الله في لومة لائم ، ولم يخل من هؤلاء المصلحين قرن من القرون ولا بلد من بلاد الاسلام ، ولا يزال العلماء قائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى التوحيد ، من غير مداهنة ومحاباة ، وكتب المذاهب الأربعة مملوءة بالانكار على منكرات القبور وبدعها ، فهل وجد في إخواننا الشيعة دعاة ومصلحون ينكرون على الغلو في المشاهد والضرائح ، ويدعون الناس إلى الدين الخالص ؟ إن علمنا بتاريخ الإصلاح والتجديد لعلماء الشيعة ضئيل ، فننتظر من إخواننا الأفاضل الإفادة في هذا الموضوع .

ما يتصل بأئمة أهل البيت انتشار صورهم ، بل وجود صورة النبي ﷺ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بكثرة في المساجد والبيوت ، وقد رأينا ذلك وعزّ علينا في مسجد سپه سالار ، وفي بعض المساجد والبيوت ، ولاشك أن ذلك من باب الذرائع إلى الشرك ، وقد تورطت الأمم السابقة بتصوير الصالحين والعباد منهم في الشرك الجلي وعبادة الأصنام والتماثيل ، أعاذ الله الأمة الاسلامية وحماها من هذا الخطر الكبير(١) .

٣ ـ إننا شعرنا في كل مجتمع ينتمي إلى الطريقة الإمامية أن الصلة العاطفية والحماس الداخلي في حب أهل البيت وتعظيم الأئمة ـ الذين كانوا أئمة الهدى ومصابيح الدجى ، لا يشك في

---

(١) في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة ومافيها من الصور ، فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله . وذكر ابن هشام في سيرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، ورأى لإبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام إلى أن قال : « ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست » . (ابن هشام ، الجزء الرابع ، ص : ٢١٣) .

ذلك مسلم — كاد يشغل كل فراغ في النفس والعاطفة والعقل والضمير ، ونخشى أن يكون قد أخذ الشيء الكثير من حق النبوة التي هي مصدر كل خير وسعادة ، ومن شخصية الرسول الأعظم الذي نال به أهل البيت الشرف واستحقوا الحب والتعظيم، وإنه لما وازدهر على حساب الصلة العميقة التي يجب أن تكون بين المسلم وبين نبيّه ﷺ .

وقد ظهر ذلك الأثر في الشعر الذي قاله شعراء إيران في مدح النبي ﷺ ، وفيما قالوا في مناقب أهل البيت وخاصة في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وسيدنا حسين بن علي ، فيفوق الثاني الأول في قوة العاطفة والتعبير عن القلب ، والقدرة الشعرية ، وفيض الخاطر ، وتدفق القريحة ، لمسنا هذا الفرق في الشعر الذي قاله شعراء أردو في الهند من إخواننا الجعفريين ، والشعر الذي قالوه في المديح النبوي ، ولمسناه في الشعر الفارسي ، ورأينا هذا الفرق في الكتب التي ألفت في السيرة النبوية وفي مناقب أهل البيت كمّاً وكيفاً ، ورأيناه في الفرق الواسع بين العناية بالمشاهد ، والعناية بالمساجد ، وبين الشوق إلى السفر إلى النجف وكربلاء و « العتبات العاليات » والسفر إلى الحرمين الشريفين (١) .

---

(١) ولاشك أن هناك تقصيراً مفهوماً في العناية بأداء فريضة الحج =

إنني أعترف بأنه لا يخلو من ردّ فعل لما وقع من بعض علماء أهل السنة ، والمتحمسين من هذه الفرقة في بعض العصور والأوساط من التقصير في التنويه بفضل أهل البيت وما لهم من حقوق على المسلمين ، ولكنه أكثر من ردّ فعل ، وعلى كلّ فقد اتجه تيار الحب والحماسة الدينية ، والعاطفة الفياضة إلى هذا المركز الروحي ، وأحاطت به هالات التقديس ، وأهيلت عليه نعوت وصفات ، أخشى أن تكون قد جعلت الإمامة منافسة للنبوة أو مشاركة لها في كثير من الصفات ، واندفع بذلك تيار الحياة كلها إلى مركز يبدو وينمو بجوار المركز الأصيل الذي هو نبوة خاتم النبيين ، وأشرف الأنبياء والمرسلين ، وأثر ذلك في الأدب والشعر والتفكير والعمل ، ولا نريد أن نطيل في ذلك ، فإذا تلمس إخواننا المنصفون قلوبهم وخفقاتها واستجابتها وانفعالاتها ، رأوا أن هذه الملاحظة إن لم تكن ما يوافقون عليها مئة في مئة ، فإنها تدعوهم إلى التفكير من جديد ، ولا شك أن ثقة أهل

= عند إخواننا الشيعة خصوصاً في إيران ، فقد تضخم عدد قاصدي الحج من إيران في الأعوام الأخيرة ، ولا يزال في ازدياد ونمو ، وهذا فضلاً عن تنظيم حركة الحج الذي فاق فيه إخواننا الإيرانيون على أكثر البلاد الاسلامية .

البيت كانوا خلفاء الرسول من غير نزاع في الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، أعداء لما يصرف الناس عن الله ويشغلهم بغيره ، أشد الناس غيرة على الدين ، الذي جاء به جدهم وسيدهم ونبيهم ﷺ ، فهم لا يرتضون شيئاً يضعف صلة العبد بالربّ ، ويشغل أحداً من الخلق بالخلق ، هذا ثابت بالبداهة ، وما تواتر عنهم من الغيرة على الاسلام والزهد في الدنيا ، والعزوف عن كل مظاهر العظمة الزائفة ، وما استفاض عنهم من الفـــرار عن الخلق إلى الحق ، والاشتغال بنشر العلم النافع والدعوة إلى الله .

ولابدّ للتقريب بين المسلمين وملء الهوة الشاسعة الواقعة بين أهل السنّة والشيعة ، أن يوجه هذا التيار إلى النبوة التي هي ملتقى كل مسلم ، والشخصية التي نبعت منها هذه العيون الدافقة ، وخرجت منها هذه الخيوط الذهبية ، التي أضاءت العالم كلـه ، إنه عمل تجديدي يحتاج إلى عمالقة في العلم والفكـر ، وقوة الإرادة ، وعلو الهمّة ، والعلم الراسخ ، والفكر الثاقب ، إنه إذا تمّ هذا العمل أحدث انقلاباً لا يوجد له نظير في تاريخ الانقلابات الفكرية والتجديد الاسلامي ، وهو الأسـاس السـليم المتين الذي تقوم عليه الوحدة الاسلامية الفطرية الحقيقية .

٣ — يجب أن يتغير نظر إخواننا الجعفريين — إذا أرادوا

التقريب بين المذاهب وجمع شمل المسلمين وتصافي القلوب — إلى صحابة الرسول ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين ، فلا يقوم تقارب حقيقي إلا بالاحترام المتبـــادل للشخصيات الحبيبة المحترمة بين الأشـخاص أو الفئات ، ولا يعقل أن يتوادّ اثنان ويتصافيا ويتعاونا على عمل بإخلاص وحماس ، وأحدهما يذكر من يعتقد فيه صاحبه الخير والفضل ، أو يدين له بحب وولاء ، بسـوء ، وينسب إليه الظامات ، ويتقرب إلى الله بالذم والتشنيع عليه ، وكلّنا جرّب ذلك ، وذاق مرارته ولذعه في حق آبائه وأساتذته وشيوخه ، ويقديهم بمهجته وروحه ، ويرى لهم الفضل في نصر نبيّه ، ونشر الاسلام إلى أقصى حدود العالم ، والجهـــاد في سبيله ، وحسن البلاء في الدعوة إلى الله ، والزهد في الدنيا والتقشف في الحياة والإيثار على النفس .

وبصرف النظر عن هذا الجانب العاطفي ، فإن لهذا الموضوع قيمة علمية وأهمية دعوية ، فقد اعتاد الناس في كل زمان أن يقيسـوا صدق الدعوة ، وفضل التعاليم التي يدعى إليها بكثرة ما أبرزته هذه الدعوة من نماذج رائعة ، وأمثلة كاملة ، وبفضل ذلك الرعيل الذي ربته هذه الدعوة ، وأنشأته هذه التعاليم ، وبقدر النجاح الذي لقيه صاحب الدعوة في دعوته وتربيته ، وهذا هو

مقياس المعلمين والمربين ، والقادة والموجهين ، والحذاق في الصناعات، والماهرين في كل عصر ، فإذا كان نتاجهم كثيراً ونجاحهم كبيراً في تخريجهم وتربيتهم ، سلمت مهارتهم في فنونهم واختصاصاتهم ، وسلمت لهم الزعامة والإمامة والتفوق والتقدم ، أما إذا كان نتاجهم ضئيلاً ونجاحهم قليلاً ، أو ضاعت جهودهم في تلاميذهم وخريجيهم في وقت قريب ، وأحبطوا مساعي أساتذتهم بعد أن فارقوا الدنيا وزال أثر تربيتهم سريعاً ، اعتبر هؤلاء الأساتذة والمربون فاشلين في مهمتهم ، مخفقين في تربيتهم ، وذلك بضعف تأثير الدعـــوة وقيمتها إلى هذه التعاليم ، وإلى الايمان بعظمة هذا الداعي أو المربي وعبقريته ، ويقف حاجزاً بين هـذه الدعوة وبين دخول الناس فيها والثقة بها ، ولهم أن يتساءلوا : ما أملنا في هذه الدعوة وتأثيرها وتزكيتها للنفوس والوصول بها من حضيض الحيوانية إلى ذروة الانسانية ، ولم تحدث هذه الدعوة على يد داعيها الأكبر ، وفي زمن أوجها أثراً عميقاً خالداً ، ولم يثبت من آمن بها أوفياء أمناء لها في عصرها الأول ، ولم يبق على هذه الجادة التي تركهم عليها نبيهم إلا بضعة رجال ؟

فمن مطالب هذه الدعوة الاسلامية ومن الإنصاف لشخصية الرسول ﷺ وسيرته وتاريخه ، وإنارة لها في عيون الناقدين أن نعرف للصحابة فضلهم ونثبت عظمتهم وإخلاصهم ووفائهم وتوادهم

وتناصرهم على الحق وأن نعرض على العالم صفحة بيضاء مشرقة من هذا التاريخ الرائع ، وإن ما روي عنهم من هنات أو زلات فهي كنقطة سوداء في ملاءة بيضاء ، وهذا ما يقرره القرآن وتقرره الأحاديث المستفيضة ، والتاريخ الموثوق به ويقرره المنطق المستقيم ، والعقل السليم ، وقد مدح القرآن الكريم من نهج هذا المنهج في سلفه الصالح ، وفي السابقين الأولين ، فقال : « والذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم »(١) .

وقد عرفت الأمم السابقة نجب حواري رسلهم وأصحابهم ، وإيثارهم على غيرهم ، فاعتقدت أنهم كانوا خيار خلق الله ، ونحن أولى بذلك منا جميعاً ، فكان نبيّنا أعظم منهم نجاحاً ، وأكثر منهم تأثيراً بتصريح من القرآن ، وقد قال الله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »(٢) وقال : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على

---

(١) الآية ١٠ من سورة الحشر .

(٢) الآية ٢ من سورة الجمعة .

الدين كله ، وكفى بالله شهيداً » (١) .

إننا إذا أردنا التقريب بين المذاهب حقاً ، وكنا جادين في ذلك وجب أن يكون ذلك على أساس سليم فطري ، وكل محاولة لهذا التقريب من غير هذا التغيير النفسي محاولة غير ناجحة وغير طبيعية ، إنني قلت في مجلس الأستاذ الكبير العلامة محمد تقي القمي الذي يدعو إلى هذا التقريب منذ ثلاثين سنة أو أكثر : « إن التصفيق ـ كما يقول المثل العامي عندنا في الهند ـ لا يكون بيد واحدة ، إنه لا يكون إلا بيدين مخلصتين عازمتين جادتين ، وإذا كان في إحداهما تراخ أو استرخاء لم يتم التصفيق » وقلت كذلك : إن التقريب ليس بشيء صناعي ميكانيكي ، إنه عمل القلب قبل أن يكون عمل اللسان ، وإنه قضية الداخل قبل أن يكون قضية الخارج ، إنه لم تكتشف إلى الآن مادة غرائية تلصق بها القلوب كما تلصق الأوراق ، فيجب أن ينبع هذا من القلب ويفيض حتى تشعر القلوب بقوته وحرارته » ولا بد لذلك من تفاهم وتنازل وتبادل ، فإذا تهيأت النفوس لذلك ، واستجابت له القلوب كان فيضاناً من الحب والثقة ، لا يقف في طريقه شيء ، والحب يقهر كل ما يقع في طريقه من عداء وبغض ، ويجرف بها.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الفتح .

٤ ـــ وهنا وقفة قصيرة وأخيرة عند ضرورة زيادة العناية بالقرآن الكريم ، إن إخواننا الإيرانيين لا شك يحبون القرآن ويجلونه ، قد تجلى في كتابة المصاحف بأجمل الخطوط والنقوش ، من أقدم العصور ، والاحتفـــاظ بهذه المصاحف في المكتبات والمتاحف ، والافتخار بها بحق وجدارة ، وطبع المصحف الكريم طبعاً دقيقاً أنيقـاً ، لا يقل عن بلد آخر ، وقد عني كثير من علماء إيران القدامى والمحدثين بتفسير القرآن ، وأثرت عنهم كتب جليلة اشتهر عدد منها في الهند وغيرها .

ولكني أشعر بحاجة إلى عناية أكثر من هذه العناية وأعمق منها ، إنني أعني به التذوق للقرآن والتضلع فيه ، والاهتمام الزائد الذي يظهر في كثرة التلاوة وكثرة الحفـاظ المتقنين وإيثاره على كل شيء وتحكيمه في كل شيء ، واتخاذه ميزانـــاً في القبول والرفض ، والأخذ والترك ، والحب والبغض ، حتى يتغلب ذوق القرآن على كل ذوق ، وأن يكون هو سدرة المنتهى والأفق الأعلى في العلم والأدب والعقيدة والعمل والمنهج والسلوك .

ولا شك أن إخواننا الفضلاء وقادة التفكير في إيران الحبيبة يشعرون بهذه الحقائق أو بعضها ، ويشعرون بالضرورة الملحة إلى إبرازها وتقويتها ، إنه عمل تجديدي عملاق لا ينوء به إلا العمالقة الذين يخـــاطرون بمركزهم العلمي والاحترام الذي يتمتعون به

ويعرضون حياتهم للخطر ، ولكن السرور الذي يحصل بهذا النجاح لا يعدله سرور ، وإن الشرف الذي يسجله التاريخ لهم لا يعدله شرف ، إن إزالة الأنقاض التاريخية والركام الفكري والتقليدي ، الذي تراكم وتصلب ، ونفض الغبار الذي طرأ على جوهر الاسلام النقي وجبينه الصافي ، وإعادة الدين إلى ما كان عليه في عصر النبوة ، ليس بالخطب اليسير والعمل الهين ، إنه أكبر جهاد وأعظم تجديد ، وليست دعوة القرآن إلى التوحيد الخالص والتمسك بجوهر الدين ولبابه والعودة إلى الأصل مختصة بالأديان الأخرى ، والأمم غير الاسلامية ، بل هي موجهة إلى فرق الأمة الإسلامية وطوائفها كذلك في كل مكان وزمان « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله »[1] .

وأخيراً أؤكد لإخواننا الفضلاء أنه لم تصدر هذه السطور إلا عن إخلاص ، وحسن قصد وشعور بالأمانة وحرص على الوحدة الإسلامية ، ومعذرتي إذا وجدوا في هذه السطور فكرة لا يوافقون عليها ، أو تصويراً للواقع يرون فيه إفراطاً وتفريطاً ، أو تعبيراً لا يرتضونه ، فكل بشر يخطىء ويصيب والعصمة لله .

---

(١) الآية ٦٤ من سورة آل عمران .

سؤال موجه إلى الشعب الايراني الكريم

وقبل أن نغادر إيران ونودع إخواننا ، نعرض عليهم سؤالاً طالما جال في خواطرنا وشغل عقولنا ، وهو : لماذا أصيب هذا القطر الولود للعباقرة والأفذاذ في كل فن ، ومن كانوا فوق المستوى العادي في الذكاء والأصالة والنبوغ ، حتى يصبح الانسان يعتقد وهو يقرأ كتب الطبقات والتراجم والسير والتاريخ أنه لم يكن يولد في إيران إلا عملاق ، لماذا أصيب هذا القطر الخصيب بضعف الانتاج في العهد الأخير ، وهبوط المستوى في القرائح والمواهب البشرية والعلوم الأدبية والاسلامية ، فيمر بنا قرن بعد قرن ، وينصرم جيل إثر جيل ، ولا نسمع بعالم ، أو أديب ، أو شاعر ، أو مؤلف ، أو محقق ، أو « فارس » أو قائد يسترعي انتباه العالم ، ويشغل سمع الزمان وبصره ، ونلاحظ هذه الظاهرة بعد القرن العاشر الهجري ، حتى فاضت بذلك قريحة الشاعر العظيم الدكتور محمد إقبال ، الذي آثر اللغة الفارسية لشعره ورسالته ، وكان من كبار المعترفين بفضل إيران فقال بيته السائد :

« إنه لم ينهض من ربوع إيران ، وأرضها الخصبة رجل في منزلة جلال الدين الرومي منذ زمن طويل ، مع أن التربة هي

التربة وتبريز [1] هي تبريز » ؟

عرضنا هذا السؤال على بعض العلماء والمفكرين في إيران الشقيقة ، وبحثنا هذا الموضوع معهم ، ولم نقتنع بجواب ، ولايزال هذا الخاطر يشغل عقولنا ، ونتساءل : هل السبب في ذلك هو انقطاع حركة التصوف التي كان لها فضل في تفجير الينابيع الروحية وتحريك أوتار القلب ، والتمرد على المادة ، وفي علو الهمة وسمو الفكر ؟ أم كان السبب استقرار الأوضاع ، وانتشار الرخاء ، وسهولة الحياة التي تسبب الهدوء والرخاوة ؟ أو السبب الاقتصار على اتجاه خاص في العلم والدين منذ زمن بعيد والتنكر لكل ما يخالفه من آراء ومذاهب ، أم له سبب آخر أدق وأعمق ؟

إنه سؤال في صميم فلسفة التاريخ ، ونهضة الأمم وتطورها ، لا يزال يطلب الجواب الشافي ، والفحص العلمي ، والغوص في الحقيقة ، وعلى إيران التي بهرت العالم القديم بذكائها وأصالتها العلمية ، وعبقريتها الأدبية أن تولي هذا الجانب اهتمامها ، وأن يعيد التاريخ فيها نفسه ، وسيكون ذلك في صالح البلد العظيم ،

---

(١) مدينة في إيران ، ينسب إليها شمس تبريز الذي يرجع إليه الفضل في تفتيق قريحة جلال الدين الرومي ، وإشعال مواهبه الروحية والوجدانية .

وفي صالح العالم الاسلامي والعالم البشري .

والله الموفق للسداد وهو الهادي إلى سبيل الرشاد .

فضل الاسلام ونبيه في إبراز إيران الاسلامية العظيمة
حديثي في حفلة التكريم في طهران[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

صاحب السماحة الأستاذ الأكبر وحضرات أصحاب الفضيلة والسيادة ، يقول الله تبارك وتعالى :

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولاَ تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وكُنْتُمْ عَلى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

(الآية ١٠٣ من سورة آل عمران)

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في منزل العلامة المرزا محمد خليل الكمرهئي في حفلة تكريم عقدها فضيلته كما مر .

إن زميلي الفاضل الأستاذ أحمد محمد جمال تناول الجـــزء الأول من هذه الآية الكريمة وهو قول الله تعالى :

« واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا – إلى قوله فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخواناً »

بحديث ، وإني أتناول الجزء الثاني منها ، وهو قوله تعالى :

« وكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها »

بالحديث عنه ولفت النظر إليه والتأمل فيه .

سادتي وإخواني :

يجب أن تكون هذه الآية دائماً نصب أعيننا ومنقوشة على ألواح قلوبنا ، فتلك هي النعمة الجليلة التي منّ الله بها على هذه الأمة ، ولستم أنتم يا إخوتي يا أهل إيران تنفردون بهذه النعمة والكرامة ؛ بل نحن الهنود أبنـــاء شبه القارة الهندية ، بل جميع المسلمين في أرض الله الواسعة ، بل أهل الجزيرة العربية التي انبثق منها هذا النور ، وعمّ البر والرفد يشاركونكم في هذه النعمة الجليلة ، فكنا جميعاً في جاهلية جهلاء لانعرف الله ولانعرف النبوة ولا نعرف الحشر والنشر ، ولا نعرف القيم الخلقية والمفـــاهيم الدينية الصحيحة ، نتسكع في الجهالات والخرافات ونزرح تحت

انتقال حكومات مستبدة جائرة وسخرة ظالمة واستعباد شنيع وإهدار كرامة الإنسانية ودوسها بالأقدام ، وقد كان السلاطين والملوك في جانب والعلماء و « رجال الدين » المحتكرون للعلم والدين في جانب آخر — آلهة تعبد وأرباباً تطاع طاعة مطلقة عمياء ، كما قال تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » (سورة التوبة الآية ٣١) وجاء الاسلام وأشرقت شمسه على أرض الله كلها شرقيها وغربيها ، وشماليها وجنوبيها ، وعربيها وعجميها ، فعمت نعمة الاسلام البشرية كلها ، وكان كغيث لايميز بين أسود وأحمر وفقير وغني ، وكانت سحابة انتظمت منها الديار والبلاد والوهاد والأنجاد .

وكان جديراً بأن يخاطب بقول الشاعر :

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة أثنى عليها السهل والأوعار ..

وأبلغ منه ما قاله شاعر فارسي :

پرتو مهر بويرانه وآباد يكيست
حسن چون تيغ كشد بنده وآزاد يكيست

وليست هناك نعمة أجل من هذه النعمة حتى الحياة نفسها التي هي مصدر كل لذة وسرور ، فلولا نعمة الاسلام ونعمة التوحيد

الخالص والإيمان بالله والرسول واليوم الآخر لكانت الحياة عذاباً وشقاءً وسلسلة من محن وخطوب ، ولم تكن إلا قنطرة إلى جهنم .

لقد أنعم الله علينا بنعمة الإسلام وله الحمد والمنة ، ولا شك أن الفضل الأكبر في الوصول إلى هذه النعمة يرجع بعد الله تعالى إلى سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي صلوات الله وسلامه عليه ، وبعثته ورسالته ودعوته وجهاده . لقد قال شاعركم العظيم فريد الدين عطار .

حمد بيحد حـــد مرخدائي پاكرا
آنكه إيمان داد مشت خاكرا

وقد تناوله شاعرنا محمد إقبال الذي تغنيتم بنشيده في هذه الحفلة بتغيير يسير فقال :

شكر بيحـــد مر نبيّ پاكرا
آنكه إيمان داد مشت خاكرا

ولم يبالغ ولم يجانب الصواب فلولا محمد عليه ألف سلام من أعماق القلوب ، ولولا أصحابه وأهل بيته ، ولولا الدعاة الأولون إلى دينه والمجاهدون في سبيله ؛ لما كانت إيران الاسلامية والهند الاسلامية والبلاد الاسلامية الأخرى ، حتى الجزيرة العربية التي ندين

بحيث ونوي وجوهنا شطرها ، وما كانت بيننا وبينكم أي صلة ونحن في أقصى الشرق وأنتم هنا في إيران ، وهو الذي جمع الله به شمل الشعوب والأمم والأقاليم والبلاد ، فتعارفت القلوب وتلاقت الأفكار وتنقيحت العلوم والمعارف ، فكان معين من العلم يجري في الهند ومعين من العلم يجري في إيران بينهما برزخ لا يبغيان ، وكانت عيون من العلوم والآداب تجري في مجراها الضيق منذ آلاف من السنين ، وجاء الاسلام فوصل بين هذه العيون المتفجرة المتفرقة ، فجعلها معيناً واحداً ، وحولها إلى غاية سامية مشتركة ، وجعلها كلها في صالح الانسانية .

والتقى الفكر الهندي بالفكر الايراني والتقى الفكر العربي بالفكر العجمي ، فكان تلقيحاً لا يوجد له نظير في تاريخ الحضارات والثقافات ، ولم يشاهد تلقيح أفضل من هذا التلقيح ولا أعود منه على الانسانية بالخير والبركة ، والتقى تذوق الايرانيين بالجمال ورقة شعورهم وخصوبة خيالهم بالعقيدة الاسلامية والايمان الجديد ، وبسلامة طباع العرب وقوة إرادتهم وحبهم للواقع ، فظهر من ذلك مزيج لم يعرف العالم أفضل منه ، وهبت إيران بعد رقدة طويلة واشتعلت مواهبها وتفتحت قرائحها ، فكأنما هي أرض خلقت لتنجب نوابغ وعباقرة ، وكأنما عجنت طينتها بالعلم والأدب ، وسرى

ذوق الجمال في هوائها ومائها ، وكأنما هي أرض لا يولد فيها إلا عالم أو أديب أو شاعر أو فنان ، أو روحاني أو صوفي ، أو مرب أو مدرس أو كاتب أو مؤلف ، وإذا ذهب أحد بعد أولئك النوابغ الذين كانوا في الطبقة الأولى ، وفي القمة من العلم والفقه والحديث والشعر والأدب والتأليف والتدريس عجز عن عدهم واعترف بقصوره ، ولا تزال كتب التراجم والسير والتاريخ مشحونة بأسمائهم ، مملوءة بذكر مآثرهم وأخبارهم .

وقد تطفلت بلاد كثيرة مثل بلادنا الهندية على مائدة إيران العلمية والأدبية تغترف من بحار فضلهم وتتغنى بشعرهم وأدبهم ، وتتلمذ عليهم في العلوم الاسلامية والأدبية ، وتفتخر بتقليدهم ومحاكاتهم ، وتتظرف بذلك وتتنبل .

ولكن هؤلاء النوابغ والعبقريين وأئمة العلم والدين المبرزين في الفنون الأدبية والكمالات البشرية كلهم غرس الاسلام ، وزرع الدعوة الاسلامية ، وصنائع الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ .

أيها السادة :

إنني سعيد بهذا اللقاء الكريم والاحتفاء العظيم في ظلال الاسلام ورحاب الأخوة الاسلامية التي نجتمع عليها ونتفيأ بظلها وإنني أؤكد لكم أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تصبو

نفوسهم وتهفو قلوبهم نحو هذه الأخوة العالمية التي تنبع من الإسلام وتقوم عليه ، ولكن لا تنسوا أن مصدر كل سعادة في الدنيا والآخرة هو الاسلام فقط ، ومحمد ﷺ الذي هدانا الله به بعد الضلال وأعزنا به بعد الذل ، وأغنانا به بعد الفقر ، وعلمنا به بعد الجهل ، ووحدنا به بعد الفرقة فلا حضارة إلا حضارة الاسلام ولا تاريخ لنا إلا تاريخ الاسلام ولا مجد لنا إلا مجد الاسلام ، وكلنا نعيش على فتات مائدة محمد ﷺ ، فنبوته هي فاتحة عهد جديد ، وكل من نال ذرة من السعادة والخير من أفراد بني آدم ولو كان في درجة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إنما نالها عن طريق سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، فلولاه هو لما كان لأحد فضل في دين أو نصيب من إيمان ويقين ، ولما كانت لأحد مواقف ومآثر بها يشيد التاريخ ، ويعتز بها المسلمون ، وكل من ينال اليوم ذرة من هذه السعادة لا ينالها إلا عن طريق محمد ﷺ .

السبل كلها منقطعة والطرق كلها مسدودة والنوافذ كلها مغلقة ، أيها السادة ، إلا طريق الاسلام ، والنافذة التي فتحها الله عن طريق محمد ﷺ « إن الدين عند الله الاسلام ، ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين[1] »

---

[1] الآية ٨٥ من سورة آل عمران

والحمد لله إننا جميعاً نرد الفضل في العرب والعجم إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، ونرجع بنسبنا العلمي ونسبنا العقلي ونسبنا الحضاري ونسبنا العقائدي إلى سيدنا محمد ﷺ . وكل من عداه فهو قبس من نوره وخريج من خريجي مدرسته لا غير ، ولا تزال الأمة بخير ما دامت مؤمنة بهذه الحقيقة متمسكة بهذا المبدأ .

وإنني أشكركم على هذه الحفاوة وحسن الوفادة وإكرام الضيف ، ونسأل الله أن يتم علينا نعمة الايمان ويحفظها ، وأن يختم لنا بالحسنى ، ويكتبنا من الذين تبيض وجوههم يوم القيامة ، فهو يقول : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله ، هم فيها خالدون[1] » .

---

(١) الآيتان ١٠٦ – ١٠٧ من سورة آل عمران

في لبنان ملتقى الشرق والغرب

على آثار دعاة الاسلام

قضينا فترة شهر ، وأسبوع في الحجاز — بعدما رجعنا من جولة في ربوع أفغانستان وإيران — قضيناها في ظلال الكعبة ، ورحاب المسجد النبوي ، فكانت هذه الأيام التي عشناها بين مكة والمدينة شحنة جديدة من ثقة جديدة بصلاحية الإسلام لتوحيد الشعوب ، وتأليف القلوب ، وحل المشكلات ، وقيادة ركب الحياة ، فكان زاداً جديداً لسفر جديد نستأنفه من مهد الاسلام ومركز الدعوة الاسلامية إلى الأقطار التي كانت في مقدمة البلاد التي أشرقت بنور الاسلام ، واحتضنت الدعوة الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم تناوبت الخلافة فظلت محتفظة بها إلى أوائل القرن السابع الهجري ، ومنها اتجه المد الاسلامي إلى جبال الأطلس ، والجزيرة الخضراء في الشمال والغرب ، وجبال « هندوكش » ووادي نهر السند في الشرق والجنوب ، وفيها نشأت واختمرت

العلوم الاسلامية ، وانتشرت في العالم ، وهي بلاد الشام -- بما فيها سوريا الحالية ، وفلسطين ، ولبنان ، وشرق الأردن - وبلاد الرافدين العراق ، وكان خطأ طبيعياً سلكه دعاة الاسلام حين خرجوا من الجزيرة .

وها نحن أولاء نقتفي آثارهم ، ونمشي على هداهم ، ولولاهم ولولا جهادهم ، ولولا إيمانهم وإخلاصهم ، وصدقهم ، وقوة نفسهم ، وعلو همتهم ، لما انتشر في هذه المنطقة هـذا الدين الذي نلتقي على صعيده ، ونناشد به ، ولما كانت هذه الأخوة الاسلامية التي نتفيأ بظلالها ، ونتنزل في رحابها ، ولما كانت هـذه اللغة العربية القرآنية التي يتفاهم بها أبناء العجم مع أبناء العرب ، ويفضلونها على لغاتهم الوطنية . ولما كان لهذه الأقطـار دور بناء رائع في تاريخ المدنية والعلوم ، والفكر الانساني ، لا يكمل تاريخ الانسانية بغير الحديث عنه ، ولما كانت دمشق ولا بغداد ، وما كان الوليد ولا هارون الرشيد ، ولما كان أبو تمام ولا البحتري ، ولا المتنبي ولا المعري ، ولا سيبويه ولا الكسائي ، ولا الكوفة ولا البصرة ، ولا الرصافة ولا الكرخ ، ولا أبو حنيفة ولا الأوزاعي [1] ،

---

(١) الإمام أبو حنيفة مدفون في بغداد والإمام الأوزاعي مدفون في بيروت .

ولا أبو يزيد البسطامي (١) ، ولا عبد القادر الكيلاني (٢) ، ولا المستنصرية ولا النورية (٣) ، فجزاهم الله عن الاسلام ، كما جزاهم عن العراق والشام ، وجزاهم الله عن الدين والعقيدة ، كما جزاهم عن الانسانية والمدنية ، وعن العلوم والآداب .

تركيب الوفد الجديد

كان الوفد مؤلفاً من المضوين السابقين ، كاتب هذه السطور وسعادة الأستاذ أحمد محمد جمال ، وهو الوفد الذي زار أفغانستان وإيران ، وكان من المفروض أن يزور لبنان ، وشرق الأردن ، وسوريا ، والعراق ، وكان الدكتور عبد الله عباس الندوي سكرتير الوفد ، إلا أنه اضطر إلى البقاء في مكة لبعض الأسباب القاهرة ، فاختارت الأمانة العامة للرابطة الأستاذ عبد الله باهبري سكرتير المنظمات الإسلامية في الرابطة ، سكرتيراً للوفد الذي سيزور هذه الأقطار العربية ، وهو شاب مثقف أديب ، خفيف الروح والظل ، وقد عاد حديثاً من جولته في المغرب العربي مع

---

(١) مات ودفن في دمشق .

(٢) قضى حياته في بغداد ودفن فيها .

(٣) مدرستان عظيمتان ، قامت الأولى في بغداد . والأخرى في دمشق .

فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية سابقاً ، وفضيلة الشيخ محمد محمود الصواف ، وفضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري عضوي الرابطة ، وكانت له جولة أخرى في إمارات الخليج العربي ، ولكن كل ذلك لم يمنعه من زمالة هذا الوفد واستئناف سفر جديد ، إيثاراً للعمل على الراحة ، وكان موضع الإعجاب والثقة من الوفد ، واضطلع بأعباء مهات الوفد بقوة ونشاط .

وقد تكرمت الرابطة بإضافة زميل جديد ، ومساعد شخصي لي - نظراً إلى ضعف صحتي وحاجتي إلى من يكون بجانبي في هذه الرحلة الطويلة - وهو ابن اختي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، أستاذ الأدب العربي في دار العلوم لندوة العلماء — لكهنؤ الهند — ومنشىء صحيفة « الرائد » العربية ، وقد وقعت الحاجة إليه بعدما تأخر الدكتور عبد الله عباس الندوي في مكة ، وقد تأخر وصوله من الهند إلى السعودية لمشاكل السفر التي يواجهها كل إنسان في هذا العصر ، رغم ما يزعمه المعجبون بهذه المدنية من تيسير السفر في هذا العصر ، فكان من أسباب تأخر هذه الرحلة ، حتى لم نتمكن منها إلا في آخر شهر جمادى الآخرة .

في بيروت

ركبنا الطائرة السعودية يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة ١٣٩٣هـ

(٢٩ من يوليه سنة ١٩٧٣ م) في الساعة الرابعة عصراً ، وكان في توديعنا الأستاذ محمد صفوت السقا الأميني المدير العام المساعد لشئون المجلس التأسيسي والمؤتمرات ، والأستاذ محمد العيناني رئيس مكتب الرابطة في جدة ، والدكتور عبد الله عباس ، وأعضاء بيت نوروني في جدة ، وغيرهم من الإخوان والأصدقاء ، ووصلنا إلى بيروت قبل الغروب بساعتين .

استقبلنا في المطار السيد حسين القوتلي مدير عام الإفتاء ، وفضيلة مفتي جبل لبنان ، فضيلة الشيخ محمد علي جوزو نيابة عن سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد ، وكان معهما القائم بالأعمال السعودي عبـــد المحسن السهان ، ومندوب من وزارة الخارجية اللبنانية ، وفضيلة الشيخ سعدي ياسين عضو رابطة العالم الإسلامي من لبنان ، كما حضر في المطار الأستاذ عبد الحكيم عابدين المحامي (١) .

علمنا في المطار أن سماحة مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد سبق فحجز لنا غرفاً في أحد الفنادق الكبيرة في الجبل ، وفي أحد الفنادق في مدينة بيروت ، حتى يكون لنا الخيار في النزول ،

---

(١) الأستاذ عبد الحكيم عابدين معروف في وسط « الإخوان المسلمين » .

وفضلنا الجبل نظراً إلى طقس البلد، ومن هنا علمنا أننا ضيوف سماحة المفتي ، فشكرناه على ذلك وتوجهنا إلى بحمدون حيث نزلنا في فندق شبرد .

جولة في المؤسسات الإسلامية ومناطق بيروت

في اليوم التالي يوم الإثنين غرة رجب ١٣٩٣ هـ (٣٠ يوليه ١٩٧٣ م) اجتمعنا بسماحة مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد في مكتبه بحضور مدير عام الإفتاء ، وتحدث سماحته مع الوفد زهاء ساعة ونصف ساعة حديثاً صريحاً واضحاً عن أحوال الشعب المسلم في لبنان ، وحاجة المؤسسات الإسلامية إلى الدعم الأدبي والمادي ، وعن الأخطار المحدقة بالشعب ، ثم رافق سماحته الوفد إلى أزهر لبنان ، في زيارة تفقدية ، وطاف الوفد في أنحاء المعهد . وفي مكتبته ، وكانت الأيام أيام إجازة صيفية ، وكان في قاعة المكتبة عدد من القراء والباحثين ، منصرفين إلى دراساتهم وبحوثهم ، وكان مع الوفد في هذه الزيارة مدير أزهر لبنان الشيخ خليل الميس ، ثم انتقل إلى دار الأيتام الإسلامية في بيروت حيث استقبله مديرها الأستاذ محمد بركات ، وتجول مع الوفد في أنحاء الدار ، وشرح نشاطها ، وطبيعة مهمتها ، وكان كل شيء يدل على زيادة الاهتمام بالنظام والأناقة ، ورعاية اليتيم المسلم الكريم ، ورفع معنوياته .

وقد مررنا بمناطق البلد المختلفة المتناقضة أحياناً في المستوى الديني ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، ومررنا في طريقنا إلى البحر ، وإلى الإمام الأوزاعي بالمناطق التي كانت مركزاً للفدائيين ، ووقعت فيها المعركة الحامية بين الجيش اللبناني والفدائيين وكيف استغلت العواطف الدينية المختلفة ، والأغراض السياسية في هذه المعركة ، وما كان لها من أثر في حياة البلد وفي علاقات العناصر المختلفة ، بعضها ببعض ، ورأينا ما تركته الرصاصات والقنابل من آثار في البنايات ، وفي قلوب سكان هذا البلد ، وما تكتنفه قضية اللاجئين ، ومسألة فلسطين من تعقد وغموض ، وتناقض وتردد ، لا يوجد نظيره في قضايا العالم المعاصر الأخرى .

مررنا بالمنطقة التي يسكنها اللاجئون الفلسطينيون وما تتسم به هذه المنطقة ، من تخلف ، وفقر ، وعدم نظافة ، وعدم ثقة بالمستقبل ، وتذمر من الأوضاع القائمة ، وكله نذير خطر ليس في هذا البلد فحسب ، بل في العالم العربي كله ، وهو وضع غير صالح للبقاء والاستمرار ، مهما طالت مدته ، وأرخي الستار عليه ، هذا والبلد يرفل في حلل من رغد العيش وفائض من الأموال والخيرات ، ويتقلب في أعطاف الحياة الرخية والعيش الهنيء .

نظرة إلى بيروت

وقبل أن نتوجه إلى طرابلس وصيدا ، نلقي نظرة إجمالية

على بيروت ، منتزه أبناء الشرق العربي ، ومصيفهم ، والبلد المحبب إليهم ، ومصب أموالهم وخيراتهم ، ومنتجع رواد المتعة والتسلية ، وينطبق عليه ما قاله الشاعر العربي الكبير أبو تمام حبيب بن أوس الطائي عن الربيع :

دنيا معاش للفتى حتى إذا حلَّ الربيع فإنما هي منظر

فبيروت مركز تجاري كبير ، ولكنه منظر ، ومنتزه في أيام الصيف ، وإذا أراد إنسان أن يشاهد ما فعلته الحضارة الغربية ، والفلسفة المادية بطبائع العرب ، وإلى أي مدى آمنوا بوجوب التمتع بالحياة ، والتحرر من الحدود والقيود ، سواء فرضتها الأديان والشرائع أو الأعراف والتقاليد ، وماهو مستوى الثراء والتضخم المالي في العواصم العربية ، وإلى أي مدى وصلت الحرية في المجتمعات العربية الاسلامية ، فعليه بزيارة هذا البلد وقضاء بعض الوقت في مصائف لبنان ، وقد قدر الله أن تأتي زيارتنا لهذا البلد في أشد أيام الصيف ، وفي أوج حركة الاصطياف وزهو المدينة ، وقد سبقت لنا عدة زيارات لهذا البلد في الصيف وفي الشتاء ، ولكنها كانت أياماً موجهة إلى غاية مخصوصة ومحصورة بين المكتبات ، ودور النشر ، وزيارة بعض المؤسسات الاسلامية ، وقد مكنتنا هذه الزيارة الأخيرة من

دراسة هذا البلد وأوضاعه ، وطبيعته ما لم تمكنه الزيارات السابقة .

وقد أحسن الأديب اللبناني المشهور أمين الريحاني في وصف بيروت ، في مقالٍ له :

« بيروت حسنة من حسنات التمدن ، وآفة من آفاته ، بيروت لؤلؤة شرقية في صيغة من النحاس غربية ، هي خلخال في رجل سلطانة المشرق عند الصباح ، وسوار في معصم ربّة المغرب عند الغروب ، هي درة في أوحال تئن فوقها الكهرباء ، هي مرجانة على ساحل اختلط تبره برماله ولجينه بأوحاله .

بيروت إحدى وصيفات باريس ، هي قمر ينعكس فيه نور المغرب فيضيء المشرق ، وتنعكس فيه أيضاً ظلمة الغرب ، فتزيد الشرق ظلاماً ، بيروت منبت العلوم ومغرس الخرافات(١) » .

ولا يعزبن عن البال أن هذا المقال قد كتب قبل ٦٢ سنة ؛ يوم كانت الشام كلها في حكم الدولة العثمانية ، ومعلوم أن لبنان وعاصمته بيروت بقيت في حكم فرنسا نحو ربع قرن ، وفرنسا من أرقى الدول الأوربية في الحضارة والآداب الغربية ،

---

(١) من مقال لأمين الريحاني في مجلة « المراقب » العدد ٧٢ . السنة الثانية أيار سنة ١٩١٠ م جمادى الأولى سنة ١٣٢٨ هـ .

والمجتمع الفرنسي من أكثر المجتمعات الأوربية رقة وتطرفاً ، وغراماً بالحرية والانطلاق في كل شيء ، ثم جاء دور الاستقلال ، فزاد الطين بلة ، وكل هذه العوامل قد ساعدت على أن تحتل بيروت مكان الزعامة أو الصدارة في تقليد الحضارة الغربية والسير في ركابها .

وقويت عناية أمريكا واهتمامها - لأغراض سياسية واقتصادية - ببسط نفوذها في هذا البلد الذي هو باب الشرق والمنفذ الطبيعي للعالم العربي ، والبلد العربي الوحيد الذي يغلب عليه الطابع المسيحي ، فأسست فيه المؤسسات العظيمة وأنشأت فيه المشاريع الضخمة ، ولا تزال الجامعة الأمريكية البيروتية كبرى الجامعات في الشرق العربي ، ولعبت دوراً خطيراً في التأثير في الفكر العربي والآداب العربية ، وكان لأساتذتها ومتخرجيها نفوذ كبير في المجتمع العربي العلمي .

بيروت أكبر بلد سياحي في الشرق العربي ، والسياحة أكبر مواردها ، وأكثر ما تعتمد عليه في اقتصادها ، والمدن السياحية لها طبيعة خاصة ، يرخى فيها العنان للمتعة والتسلية ، ويتساهل كثيراً مع ما تعتبره مجتمعات كثيرة مناقضاً للفضيلة والمروءة ، فأصبحت مصائف لبنان أيام القيظ والحر اللافح في

العواصم العربية، تسبح في بحر من الخيال والجمال ، ورخاء البال وتدفق الأموال .

وأصيب عدد من الأقطار العربية بثورات عسكرية وانقلابات سياسية ، وضاقت أرضها على كثير من القادة والزعماء وأصحاب الفكرة والصلاحية ، فغادروا البلاد ولجأوا إلى لبنان فآوتهم ، فهي « سويسرا » العالم العربي ، يكثر فيها عدد اللاجئين السياسيين ، وهم يتمتعون فيها بحرية النقد ، والتأليف ، والنشر وبث الفكرة ، حرية لا يجدونها في كثير من البلاد العربية ، وفي البلاد التي ولدوا ونشأوا فيها .

ونقلوا إليها رؤوس أموالهم ، واستثمروها في بيروت ، وكان مجال النشر والطباعة ، أصلح مجال لهم بحكم ثقافتهم ، وإقبال الشباب العرب على القراءة واقتناء الكتب ، فثمروا أموالهم فيه ، وكان في بيروت أضخم مطابع عربية في الشرق ، وقد استفادت من انتقال هذه العقول ، والأيدي العاملة ، والأموال الطائلة ، فقويت حركة النشر والتأليف ، والطباعة والإخراج ، وازداد عدد المكتبات ازدياداً هائلاً ، وأمها المؤلفون من كل ناحية ، خصوصاً بعدما ضعفت حركة النشر والتأليف في القاهرة ، وحد من حريتها في الفترة الأخيرة ، فأصبحت بيروت أكبر مركز

لحركة التأليف والنشر ، وإخراج الكتاب العربي والاسلامي.

هذه نظرة إجمالية على بيروت ، وسنلقي نظرة إجمالية على القطر اللبناني بعدما ننتهي من زيارة طرابلس وصيدا .

في طرابلس

توجهنا يوم الثلاثاء ٢/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣١/يوليه ١٩٧٣ م) إلى طرابلس البلد الاسلامي الجميل ، وهي تبعد من بيروت ٨٣ (ك م) وقد سبقت لكاتب هذه السطور زيارة قصيرة لها في شعبان ١٣٧٥ هـ (أبريل ١٩٥٦ م) وأعجب بهذا البلد ، وتمنى العودة إليه وقضاء بعض الوقت فيه ، ولم يكتب له ذلك إلا بعد سبع عشرة سنة ، وتوجهنا إلى طرابلس ، ومعنا الأستاذ حسين القوتلي صباح يوم الثلاثاء ، نسير على ساحل البحر ، وهو من أجمل الطرق التي رأيناهـــا في الشرق ، يسايرنا البحر الأبيض المتوسط ، ولا يفارقنا إلا قليلًا ، ثم بقرى ومدن جميلة نظيفة ، وتواجهنا مناظر طبيعية حلوة .

وصلنا إلى طرابلس ، فاستقبلنا عدد من العلماء ، والمشتغلون في القضاء الشرعي ، والإفتاء ، وبدأنا بزيارة مديرية الأوقاف ، وزرنا المسجد الكبير الذي لا يزال في دور البناء والتكميل ، ثم زرنا دار الأيتام الإسلامية ، وزرنا المستشفى الاسلامي ، وطاف

بنا الشيخ عدنان الجسر رئيس مجلس إدارة المستشفى في البناية الكبيرة ، المؤثثة المنظمة تنظيماً عصرياً ، ولفت الوفد نظر رئيس مجلس الإدارة إلى ضرورة تقيد الممرضات بالزي الاسلامي ، والآداب الاسلامية ، حتى يكون ذلك شعاراً للمستشفيات الاسلامية وميزة لها ، وقد تجلى في جميع هذه المؤسسات الذوق الرفيع ، والأناقة التي اشتهرت بها طرابلس ، والقدرة على التنظيم.

وزرنا مدرسة الايمان النموذجية ، وفوجئنا فيها بلقاء الشيخ صبغة الله المجددي الذي قابلناه في كابل ، وقد حضر المؤتمر الثقافي الليبي وكان عائداً إلى كابل ، ففوجىء بنبأ الانقلاب على مطار بيروت ، فألغى السفر ، وقرر البقاء في لبنان حتى يتضح الأمر .

ثم قام الوفد بزيارة عالم طرابلس الكبير ، وابن عالمها الأكبر فضيلة الشيخ نديم الجسر ، وقد كنت قرأت له كتاب « قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » وهو من أعمق الكتب التي قرأتها ، وأغزرها مادة في السنين القريبة ، وقد عرفنا نحن أبناء شبه القارة الهندية علامة الشام الشيخ حسين الجسر الطرابلسي بكتابه « الرسالة الحميدية » التي سارت بذكره الركبان في فجر هذا القرن الهجري ، وقد أعجب به علماء الهند واعتبروه دفاعاً علمياً قوياً عن العقيدة الاسلامية والدين ، والشيخ نديم الجسر ،

هو ابنه ووارث علمه ، ومفتي طرابلس ، وتوجهنا إلى « سير » وهو مصيف جميل ، ومحل لطيف في ضواحي طرابلس ، يرتفع عن سطح البحر ٩٠٠ متر .

جلسنا مع الشيخ جلسة لطيفة تجاذبنا فيها أطراف الحديث، وكان حديث الشيخ يدور حول تمثيل السيرة النبوية الذي وافقت عليه بعض الدول العربية ، وكان شديد التخوف من هذه البدعة ، لأنه يعتقد أن بعض كتب السيرة والتفسير التي ليست في المنزلة العالية من الإسناد والتحقيق ، والأحاديث الضعيفة ، مرتع خصب لأغراض المستشرقين والمعاندين على الاسلام يستغلونها لتشويه جمال السيرة ، وعرضها في أسلوب قصص غرامية وأسلوب روائي مثير ، ولا يمكن الحد من ذلك والحظر عليه .

حديثي في حفلة الغداء

وتناولنا طعام الغداء في « سير » على مائدة مفتي الجمهورية بحضور نفر كبير من العلماء ، وألقيت كلمة الترحيب للوفد ، وقام كاتب هذه السطور فشكره على هذه الضيافة الكريمة ، والحفاوة البليغة ، وقال : إن الشعب المسلم في لبنان يواجه وضعاً دقيقاً شاذاً ، فيه محنة لذكائه وقوة إرادته ، ومتانة عقيدته ، وإنه خليق بأن يعتمد في ذلك على نصر الله ، ثم على فضل رسالته

وقوة إرادته ، ويحمد الله على أنه رآه أهلاً لذلك ، واختاره لمواجهة هذه المشكلة ، والاضطلاع بهذه المسؤولية ، إنه موقف يدعو إلى الشكر والصبر ، لا الجزع والضجر ، وإن شعباً قد ظهرت كفاءته وجدارته وإنتاجه في هذه المؤسسات الاسلامية التي كان لنا شرف زيارتها ، والاطلاع عليها ، لا يضيعه الله ، فالله ينصر دائماً من يعمل ويسعى ، ويثبت صلاحيته للحياة ، ويشق طريقه بين المحن والخطوب .

لقاء وتعارف

والتقى الوفد خلال زيارته لطرابلس بنفر من العلماء ، منهم الأستاذ فيصل مولوي ، والشيخ طه الصابونجي ، والشيخ رشيد الميقاتي ، والأستاذ محمد علي ضناوي ، والشيخ ناصر الصالح ، وتحدث معهم في موضوعات إسلامية ، ومقاصد دينية ، وأوضاع البلد الاجتماعية والسياسية ، واستفاد بمعلوماتهم ووجهات نظرهم ، وعاد إلى بحمدون مسروراً بهذه الزيارة ، شاكراً فضل العلماء والسادة الذين احتفوا به ، وهيأوا له فرص اللقاء والتعارف والاطلاع والمعرفة.

في صيدا

وصباح يوم الأربعاء ٣/رجب ١٣٩٣ هـ (١ / آب ـ أغسطس ١٩٧٣ -) توجه الوفد إلى « صيدا » ثالثة المدن اللبنانية ، ورافقه

الشيخ خليل مدير أزهر لبنان ، وكان طريقاً جميلاً مرصوفاً ، وكان السفر مسلياً ممتعاً ، نمر بالقرى والمدن اللبنانية الجميلة النظيفة ، حتى وصلنا إلى « صيدا » ، وهي تبعد من بيروت ٤٣ (ك م) .

وزار الوفد فور وصوله مديرية أوقاف صيدا ، وجلس في مكتبها برهة من الزمان ، حيث حضر لفيف من العلمـــاء ، والشخصيات الدينية ، ثم خرج في معية مديرها الفاضل النشيط الشيخ سليم سوسان لزيارة مفتي « صيدا » الشيخ محمد أنيس حمود ، وطاب الجلوس وطال في قاعة الاستقبال في منزله العامر ، وأخذنا بأطراف الأحاديث ، وبحثنا في موضوع مشاكل المسلمين وقضاياهم الكبرى ، والوضع الشاذ المزري الذي يعيشون فيه والذي لم يسبق له مثيل في التاريخ ، وأبدى كل واحد وجهة نظره ، وجاء دور كاتب هذه السطور ، فقال ما خلاصته :

مركز علماء الدين في الأمة ، ولماذا ضعف نفوذهم على العامة

إن مجال الحديث واسع ، وإذا تناولنا العالم الإسلامي بجميع طبقاته وأوساطه ، وتحدثنا عن تقصيرها في أداء واجبهـــا ومسئوليتها ، لم نرجع بطائل ، ولم نصل إلى نتيجة ، فقد اتسع الخرق على الراقع ، فلنحدد حديثنا في واجب العلماء ومسؤوليتهم ، فذلك حديث مفيد وعملي ، وهذا مجلس خاص بالعلماء ، فأقول :

إن صلاح الأمة بصلاح علمائها ، واستقامتها بقدر استقامتهم ، وانحرافها بقدر انحرافهم وعدم صمودهم ، وضعف مقاومتهم للإغراءات المادية ، والتقدير الزائد للحياة ومتطلباتها ، وارتفاع مستوى المعيشة عندهم والخضوع لـ « الأمر الواقع » ، وقلة الزهد والقناعة ، والتقيد بالكماليات ، ومظاهر البذخ والرفاهيـــة ، وقد قال الشاعر قديماً :

يامعشرَ القراء ، يامِلحَ البلد ما يصلح الملح ، إذا الملح فسدْ

والإنسان مفطور على الهيام بالشيء الذي لا يجده عند نفسه ، ولا يتحلى به ، فكان المجتمع الاسلامي يجل العلماء الذين كانوا على جانب عظيم من الزهد والقناعة ، وكبر النفس ، وغنى القلب ، وعلى شيء من التقشف والبساطة ، حتى كان السلاطين والأمراء يهابونهم ويحترمونهم ، ويرونهم فوق نفوسهم ، أما وقد أصبح العلماء في مستوى المتنافسين في ترفيه الحياة ، والحصول على الكماليات ، وأصبحوا لا فرق بينهم وبين أبناء بلدهم وأفراد جيلهم ، أصبح المجتمع ينظر إليهم كعامة الناس ، وأصبح لايخضع لما يصدر عنهم من وعظ أو توجيه ، أو نقد وحسبة ، ومن واجب الاصلاح والدعوة أن يعود العلماء إلى مكانتهم الأولى ، ويعود إليهم اعتبارهم وقيمتهم الدينية والاجتماعية ، وقد لاحظنا

في تاريخ الاصلاح والتجديد ، أنه إذا اشتدت الأزمة بالاسلام والمسلمين ، واستولى اليأس ، وكثر التشاؤم ، لمع عالم من علماء الاسلام ، وبرز في ميدان الاصلاح والكفاح ، وتحدى الأمر الواقع ، فغير مجرى التاريخ والحوادث ، وحفظ على العقيدة سلامتها ، وعلى الشريعة الاسلامية كرامتها ، ونفخ في جسد الأمة روحاً جديدة ، وحياة جديدة ، وهذا مطرد مستمر من عهد الامام حسن البصري إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني ، إلى الشيخ ابن تيمية الحراني ، إلى الشيخ أحمد السرهندي المشهور بالامام الرباني ، إلى العلماء الربانيين ، الأئمة المصلحين في هذا القرن ، ويجب أن يستمر هذا النشاط والانتاج ، وهذا الكفاح والنضال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد سلم أكثر الحاضرين والمستمعين لهذه الملاحظة ووقفوا عليها ، وأيدوها .

جولة في « صيدا »

وخرجنا لزيارة جمعية رعاية اليتيم ، وهي دار واسعة ذات شعب وقاعات ورحاب ، قد تأنق مؤسسوها والقائمون عليها في بنائها وتزيينها ، حتى أصبحت تنافس المؤسسات الخيرية الحديثة من الطراز الراقي العصري ، وقد بالغ القائمون عليها في « تحضير »

هذه المؤسسة ، ومسايرتها للأساليب الحديثة ، فأدخلوا فيها بعض مظاهر لا توافق عليها الشريعة والآداب الاسلامية ، فنرى صورة في نشرتها ظهر فيها أبناؤها وبناتها في رقصة الدبكة ، وسرنا بتعليم الخياطة والأعمال اليدوية للطالبات .

وتوجهنا إلى منزل صاحب الفضيلة الشيخ سليم جلال الدين قاضي الشرع بـ « صيدا » وهو واقع على ربوة جميلة محاطة بالحدائق والمزارع ، والزهور والرياحين ، وأمامه واد تقوم فيه الأشجار الباسقة ، وتملؤه الأزهار والأنوار ، وقد أعجبنا بجمال هذا الوادي ، وبموقع هذه الربوة الطبيعي ، وطاب لنا الوقت فيها مع علماء أفاضل ، وإخوان كرام ، والتقى جمال الطبيعة بعذوبة الحديث ، وحلاوة الأخلاق وكرم النفس .

وزار الوفد القلعة الأثرية البحرية ، وتناول طعام الغداء في مطعم فاخر على ساحل البحر ، وعاد إلى بحمدون شاكراً مسروراً بزيارة هذه المدينة الاسلامية الجميلة .

في ضيافة سماحة المفتي أمين الحسيني :

وأقام مساء ذلك اليوم سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني رئيس مؤتمر العالم الاسلامي ، ورئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين حفل استقبال تكريماً للوفد في منزله بمنصورية المتن ،

حضره عدد من العلمـــاء والفضلاء ، وأعيان البلد ، والمهتمين بالحركة الاسلامية .

نظرة اجمالية الى وضع الشعب المسلم اللبناني

وقد آن الأوان للحديث عن وضع الشعب المسلم اللبناني السياسي والاجتماعي ، وهو وضع شاذ معقد ، لايعرفه كثير من المسلمين والسياسيين ، الذين يعيشون بعيداً عن لبنان ، ولا يحسن فهمه كثير ممن لم يزر هذا البلد ، ولم يدقق في فهم وضعه .

وخلاصة القول أن هذا الشعب المسلم العربي السوري الكريم لايزال ينوء بأعباء ثورة العرب ، وخصوصاً عرب الشام على الدولة العثمانية ، وثقتهم بمواعيد الحلفاء واعتمادهم عليهم ، والخروج من دائرة الخلافة العثمانية التي كانت - على علاتها وأخطائها الكثيرة - رمزاً للقوة الاسلامية والوحدة الاسلامية ، مرهوبة الجانب ، حامية المقدسات الاسلامية ، ولعل نصيب الشعب المسلم اللبناني في هذه الغرامة التي دفعها العرب ، ولايزالون يدفعونها أعظم من نصيب أبناء سوريا الآخرين ، فلايزال يئن تحت وطأة هذا الوضع الشاذ الطريف المعقد الذي يخصه .

وتفصيل هذا الاجمال : أن جبل لبنان كانت الاكثرية فيه للطائفة المسيحية بخلاف الساحل ، والبقاع التي كانت للمسلمين فيها

الجنوبية ، ثم ضم طرابلس ، وبيروت ، وصيدا ، وبعلبك والبقاع ، وحاصبيا وراشيا ، في ١٩٢٠ م ، الى لبنان .وجعل جبل لبنان أساساً ونواة للجمهورية الجديدة ، وأجرى الفرنسيون إحصاء في ١٩٣٢ م ، وجرى بتاريخ ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٣٢ م ، وكان إحصاء مغرضاً خاضعاً لارادة فرنسا وعزمها على تغليب طائفة على اخرى في التعداد السكاني ، ورافقته شائعة أن غرضه التجنيد الاجباري في الجيوش الفرنسية من أجل القتال في مستعمراتها ، والمسلمون يتحرجون من ذلك ، وضاعف المشكلة أنهم يرفضون التجزئة السورية ، فكان لكل ذلك أن تهرب عدد كبير من المسلمين من الاحصاء بكل طريق ، وكانت النتيجة أن أسفر هذا الاحصاء المزور عن أكثرية المسيحيين ، ورفضت السلطات العليا في لبنان ، ولاتزال ترفض اجراء احصاء شامل دقيق آخر ، وقد مر على الاحصاء أكثر من أربعين سنة .

وعلى أساس هذا الاحصاء تم تركيز الميثاق الوطني ، وتقسيم الوظائف ، ومقاعد المجلس النيابي ، ومن هنا تقرر مصير المسلمين في هذا البلد العربي الاسلامي ، وكان من حظهم أن يعيشوا في وطنهم كأقلية دائمة ، رغم انهم اكثرية عددا ، ويزيد الامر خطورة منح الجنسية اللبنانية لغير المسلمين بسخاء ، وذلك يؤمن وضعهم السياسي في المستقبل .

وقد سلمت فرنسا عند مغادرتها لهذه البلاد الطائفة المارونية الحكم في لبنان ، وقررت دستوراً السلطة كلها فيه بيد رئيس الجمهورية – وهو دائماً مسيحي ويتمتع بصلاحيات زائدة وهو ليس مسؤولاً أمام أحد ، أما رئيس الوزراء الذي ينص الدستور على أن يختار من المسلمين ، فهو معين من قبل رئيس الجمهورية ومسؤول أمام مجلس النواب ، الذي بإمكانه حجب الثقة عنه وعن وزرائه ، ولاسلطات خاصة له ، ويصح أن يقال أنه كباش كاتب لرئيس الجمهورية ، وان كان هو الدرع الواقي لفخامته عملياً .

هذا هو الدستور المكتوب ، وهو لا ينصف الشعب المسلم اللبناني انصافاً كلياً ، ولا يعطيه حقه كله ، ولكن هناك دستورا غير مكتوب ، وهو العرف أو المنهج الذي تتبعه الجمهورية اللبنانية ، فهنالك تناقض واضح بين الدستور المكتوب والدستور غير المكتوب ، فالوظائف الكبرى الرئيسية حكر على غير المسلمين ، والبرامج الاعلامية ، والمدارس والمعاهد ، والمنح كلها تصب على المناطق غير الاسلامية ، وهذا كله علاوة على محاربة الاخلاق والقيم ، والدعوة للزواج المدني الذي له خطورته في حياة هذا البلد ، وقد قررت الحكومة تعطيل يومي السبت والأحد بدل الجمعة ، وأوصت بإلغاء طائفية الوظيفة ، والمناطق الاسلامية ذات

الاكثرية المسلمة عرضة للإهمال في تهيئة أسباب الرقي والرفاهية، والمسلمون الذين هجروا بلادهم - بسبب ما - يواجهون المضايقة في منح الجنسية اللبنانية (١) .

ولاشك أن المسلمين في لبنان لا يتخلون عن المسؤولية ، ويرجع بعض ذلك الى قصر نظرهم ، وقلة تقديرهم للأمر الواقع ، فقد سارت الامور في لبنان دون تخطيط من قبل المسلمين ، وبتخطيط من قبل غير المسلمين ، ويرجع كذلك الى أنانية زعماء الأحزاب والقادة السياسيين ، وتنافسهم في القيادة ، وتولي رئاسة الوزراء بكل قيمة وثمن ، وعلى حساب مصلحة الشعب المسلم اللبناني في كثير من الأحيان ، وعدم تركيزهم على مطالبة المساواة للمسلمين ، وبحقوقهم الطبيعية المدنية ، وتسرعهم في بعض الأحيان ، إلى إجابة « فخامة الرئيس » في قبول رئاسة الوزراء والتمنع بها ، ولو مدة أسابيع وأيام .

يضاف إلى ذلك أن الشعب المسلم اللبناني يعيش في عزلة عن العالم العربي ، والحكومات العربية ، فلا يجد سندا أو دعماً من حكومة عربية ، وعطفاً على قضاياه واهتماماً بمشكلاته التي

---

(١) أكثر المعلومات التي جاءت في هذا العرض مستفادة من رسالة « المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا » للأستاذ محمد عبي الضناوي المحامي .

يواجهها ، بالعكس من ذلك الطائفة المسيحية مدعمة من جميع الشعوب الأوربية المسيحية ، ومن امريكا ، ومن الفاتيكان ، تنصب عليها مساعدات وتشجيعات وتأييدات من العالم المسيحي ، أما الشعب المسلم اللبناني فلاحظ له من مساعدات الدول العربية والاسلامية الا ما ترضخه بعض الحكومات ، أو بعض الأغنياء في بعض البلاد العربية من تبرعات لبعض المؤسسات الاسلامية والمشاريع الخيرية ، وذلك لا يقدم ولا يؤخر في الواقع الذي يعيش فيه المسلمون في هذا البلد العربي الاسلامي ، وفي مستقبل أجيالهم التي ارتبط مصيرها بهذا البلد ، مع ان هذا البلد بموقعه الجغرافي ، والاستراتيجي والسياسي ، بلد له أهميته البالغة ، وأثره البعيد في مصير الشعوب العربية والحكومات العربية .

في حفلة تكريم في دار الإفتاء :

أقام سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد حفل غداء تكريماً للوفد يوم الخميس في ٤ من رجب ١٣٩٣ هـ (٢ من آب ١٩٧٣ م) في دار الإفتاء ، حضرها دولة الرئيس الأستاذ تقي الدين الصلح رئيس وزراء لبنان ، ودولة الرئيس الأستاذ صائب سلام رئيس الوزراء الأسبق ، وعدد من الوزراء ، وأعضاء مجلس النواب ، وأعيان البلد ، وكبار العلماء ، والقضاة الشرعيين والأساتذة الكبار ، ورجال الفكر والثقافة في لبنان .

ألقى الدكتور صبحي الصالح الأستاذ بالجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية كلمة تعريف ، نوّه فيها في تفصيل وتوسع بمؤلفات كاتب هذه السطور ، وخاصة كتابه « العرب والإسلام » ونوه بحركة ندوة العلماء في الهند ، ثم ألقى كاتب هذه السطور كلمة شكر فيها السادة والإخوان الذين كان لهم فضل في تيسير مهمة الوفد ، وطيب الإقامة في هذا البلد ، ثم نوه بدقة موقف الشعب المسلم العربي اللبناني ، ووضعه في هـذا البلد العظيم العجيب ، وضخامة مسؤوليته نحو الإسلام ، ونحو البلد الذي يعيش فيه ، والمشكلات التي يواجهها ، وهنا خلاصة هذا الحديث ، أملاها صاحبه اعتماداً على ذاكرته ، وعلى الخطوط العريضة التي قيدت .

حديثي في حفلة تكريم سماحة المفتي ، موقف الشعب المسلم في ملتقى الحضارات والمسرح العالمي

إنني أصالة عن نفسي ، ونيابة عن أعضاء وفد رابطة العالم الإسلامي ، وعن زميلي المحترم الكاتب الإسلامي الكبير سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية ، والأستاذ في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وعضو الوفد ، أشكر سماحة المفتي الأكبر على ضيافته الكريمة ، وحفاوته البالغة التي لقيناها من سماحته مدة إقامتنا في لبنان ، وأشكره بصفة

خاصة على هذه الفرصة الطيبة التي أتاحها لنا للتعرف على هذه المجموعة الكريمة التي تمثل لبنان بمختلف طبقاته ، وثقافاته ، واتجاهاته ، والتحدث إلى هذه المجموعة ، فلو سعينا إليها بأنفسنا في هذا البلد الكبير لما تمكنا من لقائها والحديث إليها ، فله فضل كبير في تهيئة هذه الفرصة المباركة .

إنني أشعر كل الشعور بدقة موقفكم وضخامة مسؤوليتكم أيها السادة الاجلاء ، فإنكم تعيشون في بلد هو ملتقى الثقافات والحضارات ، والآداب واللغات ، ومسؤوليتكم عظيمة ، ومهمتكم دقيقة ، تطلب مقداراً كبيراً من الذكاء والأنعيّة وبعد النظر وعمل الفكر وحكمة الدعوة ، وقوة الإيمان بالدين الذي تمثلونه ، والرسالة التي تحملونها ، والصمود في وجه التيارات التي تغزو هذا البلد ، والعواصف التي تهب حولكم ، فأنتم تمثلون دور المسلم المثقف والمؤمن القوي الحكيم على هذا المسرح العالمي ، الذي تشخص إليه الأبصار وتشرئب إليه الأعناق ، وتصبو إليه النفوس ، فكل عملكم وكل تصرفكم ، والخطوة التي تخطونها والموقف الذي تتخذونه مسجل ومحسوب على الإسلام وتعاليمه ومبادئه ، إنكم تستطيعون أيها السادة النبلاء أن تثبتوا صلاحية الإسلام ، لا أقول للبقاء ، فإني أربأ به عن أن يستجدي حق البقاء والصلاحية

الحياة ، لابل صلاحيته للقيادة وحل المشكلات التي تشغل فكر المصلحين والمشرعين ، وبذلك تسدون خدمة لدينكم ، لا يقدر بثمنها كل شعب ، وكل بلد في العالم العربي بل في العالم الإسلامي .

سادتي : لم أعرف في دراستي المحدودة لتاريخ المدنيات والحضارات والمجتمعات الإنسانية حضارة ، إذا استثنينا الحضارة الإسلامية مع تفاوت الزمان والمكان ، والملابسات والأجواء ، كانت أقوى وأوسع وأعظم سيطرة ونفوذاً من الحضارة الغربية ، فقد تغلغلت في أحشاء المجتمع البشري ، وسيطرت على مشاعره وتفكيره ، وغيرت المفاهيم والقيم ، وأسلوب التفكير ووجهة النظر ، وماتركت بيت مدر ولاوبر ، ولا كوخ فقير وقصر غني ، إلا ودخلته ، ولهذه الحضارة الغربية وللحضارة الإسلامية التقاءات وانفصالات وموافقات ومفارقات ، بحكم أنها حضارتان تتصلان بالانسان ، والحياة الإنسانية ، وتبحثان عن قضاياهما وحاجاتها ، فمسؤوليتكم كقادة للفكر وفقهاء للإسلام ، وبفضل وجودكم في هذا البلد المتناقض أن ترسموا خطاً دقيقاً واضحاً بين هاتين الحضارتين ، بين مايجوز اقتباسه من الحضارة الغربية وبين ما لا يجوز ، بين السفور الوقح والتبرج الجاهلي ، وبين ما أمر الله به المرأة المسلمة من التستر والاحتشام ، وإبداء ما أخفه من الزينة ،

بين المتعة المباحة والتسلية البريئة ، وبين الوقوع في المشتبهات والتمتع النهم الذي لا حد له ، خطاً يجمع بين الدقة والوضوح ، خطاً لا يكون بمكان من الدقة لايرى ولا يظهر ، فإنه لا فائدة في خط دقيق لايكون واضحاً ظاهراً للأبصار ، ولا يكون من الوضوح بمكان يثقل ويمنع من ممارسة واجبات الحياة ، خطاً يقف عنده المسلم الذي يؤمن بدينه ويحترم شريعته ، ولا يريد أن يتخطاها أو يثور عليها ، وهذا الخط غير موجود في أي بلد إسلامي ابتلي بالحضارة الغربية والتيارات العصرية ، فأصبح الأمر فوضى ، وتخطى المسلمون جميع الحدود في الاستفادة من هذه الحضارة وأساليبها ، ومرافقها وعلومها وأفكارها ، واستسلم الشباب المثقفون ، بل وقادة الفكر وحملة العلم استسلاماً كلياً « الأمر الواقع » لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وأنتم على رسم هذا الخط الدقيق الواضح أقدر ، بفضل وجودكم في هذا البلد الذي قطع شوطاً واسعاً في الحضارة الغربية ، وبلغ شأواً بعيداً فيها ، وعندكم — وأنا أتحدث بهذا الحديث إلى دار الإفتاء اللبنانية - العلم الواسع العميق بروح الإسلام وبالتشريع الإسلامي ، وإني أدعو لكم وأتمنى كل توفيق ونجاح ، فإن هذا العمل له آثاره الواسعة العميقة في حياتنا ، وفي مصير الشعوب الإسلامية .

ومسؤوليتكم الثالثة كما أتصور أيها السادة العلماء أن تقدموا هذا المجتمع الذي تعيشون فيه ما يفقده ، وتملأوا ذلك الفراغ الذي وقع منذ مدة بعيدة ، إن هذا المجتمع قد أتخم بالعلم والثقافة ، والمدنية والحضارة ، والمظاهر والصورة ، والرفاهية والبذخ ، والإنسان مفطور على احترام الشيء المفقود وإجلال من يحمله ويملكه كما قلت في حديثي في « صيدا » ، فهذا المجتمع الذي بلغ أوجه في العلم والمدنية ، وعنده نوع من أنواع الرقي ، لا يخضع لكثرة المعلومات وغزارة العلم وذلاقة اللسان وقوة الخطابة والإتاقة في المظهر ، إنما يخضع لما أفلس فيه ، وهو القناعة باليسير ، والزهد في الكماليات ، وفضول الحياة ، والمظاهر الجوفاء والتعزوف عن الشهوات ، والتغلب على نزوات النفس ، والابتعاد عن التهالك على المناصب واتجاه الكاذب ، إن هذا المجتمع قد أصبح فقيراً في هذا المجال ، لا يكاد يصدق أن في الدنيا من يستهين بهذه اللذة والعزة ، ويتمرد على المادة و « المثل العليا » التي يؤمن بها الناس جميعاً ، ويعكفون عليها عبادة وتقديساً ، إن الأزمة اليوم ليست أزمة عقل وعلم ، ولا مال ولا مادة ولا مدنية ولا حضارة ، إنما هي أزمة ضمير حي لا يشترى . ولا يقبل المساومة ، إنما هي أزمة قلب فائض بالحياة والإيمان ، إن الضمائر اليوم - ولا أقصد بلداً ولا

أحداً ـ أصبحت سلعة وبضاعة تشترى وتباع ، وتقوم وتساوم ، وإنما القضية قضية الثمن الذي يدفع ، والسعر الذي تشترى به الضمائر والمبادىء ، فأصبح الزعماء والقادة يتهالكون على كراسي الحكم ، ومناصب الحكومة ، وقيادات الأحزاب ، مهما دفعوا في ذلك من الثمن ، إن هذه الأزمة ـ أزمة الضمائر والقلوب وأزمة الأخلاق والشخصية ـ هي التي سببت أزمة القيادة ، والزعامة الصحيحة في الأقطار الإسلامية ، وخلقت مشكلات لا حل لها ، وأفقدت الثقة بالقادة والزعماء ، وأنتم بصفتكم حملة الدين والدعاة إلى الله تستطيعون أن تملأوا هذا الفراغ وتسدوا الثغر ، وتقدموا إلى المجتمع المعاصر والمدنية التي تعيشونها طرازاً جديداً من الحياة ، ومن الخلق ، ومن الشخصية ، وبذلك تعيدون الثقة بالدين ، والاحترام للعلم والعلماء .

وأعود فأشكر سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية فضيلة الشيخ حسن خالد ، وتلاميذه وزملاءه والعاملين معه ، على حفاوتهم ، وإتاحتهم الفرص للقاءات والاجتماعات ، والتعرف على نشاط هذا الشعب الكريم ، والمؤسسات العلمية والخيرية .

أمكنة فاتتنا زيارتها

كان سماحة المفتي حسن خالد حريصاً على أن نزور البقاع ،

المنطقة الإسلامية الكبيرة ، وقد زارنا وفد من هذه المنطقة يدعونا إليها ، وكانت فرصة لزيارة بعلبك ، المدينة الأثرية الشهيرة ، التي قرع اسمها آذاننا منذ قرأنا أول كتاب في النحو ، ولكننا اعتذرنا لضيق الوقت ، فقد قررنا التوجه إلى دمشق يوم الجمعة ٥ / رجب ١٣٩٣ هـ (٣ / آب ١٩٧٣ م) ، وكان سائقاً يسوقنا إليها التقى تجربة من نوع جديد ، فلم نستطع له دفعاً ، وسيأتي تفصيلها .

لقاءات واجتماعات

كان من اللقاءات التي سعدنا بها في هـذه الزيارة لقاء مع العالم المجاهد فضيلة الشيخ محمد عمر الخطيب ، وهو صديق قديم لنا منذ سنة ١٩٥١ - ، وكان نزيـــلاً في دمشق ، حين قضينا فيها فترة من الزمن ، وهو الآن يرأس جمعية الرابطة الإسلامية في بيروت ، ويشرف على مدرسة الفتح الثانوية التابعة لهذه الجمعية ، وهي مدرسة خاصة بالبنات ، تأسست سنة ١٩٦٦ م ، وسدت فراغاً عظيماً في المجتمع اللبناني المسلم ، وقامت بدور مشكور في تخريج شابات صالحات ، وأمهات واعيات ، وكان لها أثر محمود في الأخذ بالآداب الإسلامية ، والشعائر الدينية . والأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة في دمشق سابقاً ، وأحـــد الوزراء

السابقين ، وأستاذ كلية الشريعة في مكة حالياً ، وهو في طليعة المربين والمفكرين الاسلاميين . والأستاذ محمد عمر الداعوق مؤسس جماعة « عباد الرحمن » في لبنان ، وأحد الدعاة العاملين المربين . والأستاذ زهير شاويش صاحب المكتب الاسلامي في بيروت ، وصاحب الفضل في نشر كتب علمية إسلامية لجهابذة الفكر الاسلامي ، بتحقيق ودقة وإتقان . والصديق الحبيب الأستاذ علي حسن فدعق رئيس بلدية جدة سابقاً .

لسنا في موقف استقصاء الجمعيات والمنظمات الاسلامية والحكم عليها وتزكيتها وتجريحها (١) ، فهذا يحتاج إلى إقامة طويلة ومعرفة دقيقة ، ولكن لا بأس من التلويح ببعضها كالتي كان لها أثر طيب ، وفي مقدمتها جمعية المقاصد الاسلامية ، وجمعية تعليم أبناء المسلمين في القرى ، ومؤسسة الخدمات الاجتماعية ، وجمعية المحافظة على القرآن الكريم ، والرابطة الاسلامية في بيروت ، هذا عدا مؤسسات وجمعيات ورد ذكرها في هذه العجالة .

في حفلة السفارة السعودية

وفي مساء يوم الخميس ٤ من رجب ١٣٩٣ هـ أقامت سفارة

---

(١) سمعنا أن عددها يصل إلى المئة ، وأكثرها في بيروت .

المملكة العربية السعودية حفل استقبـــال الوفد ، حضره سمو الأمير متعب بن عبد العزيز وعدد من سفراء الحكومات الاسلامية والعربية ، ورجال السلك السياسي ، وكبار العلماء والوجهاء والصحفيين ، وكان آخر اجتماع بمناسبـة زيارة الوفـد للبنان ، وكان ختاماً للمدة التي قضاها في ربوع لبنان العزيز ، وقد قرر السفر إلى دمشق على سلامة الله صباح يوم الجمعة ٥ / رجب ١٣٩٣ هـ (٣ / آب ١٩٧٣) .

★ ★ ★

زيارة خاطفة لدمشق

من بيروت الى دمشق

اتصلت السفارة السعودية في بيروت بالسفارة السعودية في دمشق ، وأخبرتها ببرنامج سفر الوفد من بيروت إلى دمشق صباح يوم الجمعة ٥ / رجب ١٣٩٣ هـ (٣ / آب ١٩٧٣ م) وتأهبنا للسفر ، من الصباح الباكر ، وكنا حريصين على التبكير في السفر ، لأن اليوم يوم جمعة ، وكنا مكلفين بالمرور بحدود البلدين لبنان وسوريا ، وكانت الحدود مقفلة بينهما في تلك الفترة ، ولكن وضعنا كان غير عادي ، فكنا نسافر في وفد لرابطة العالم الاسلامي في مكة ، وكانت الرابطة قد اتصلت بالجهات الرسمية في جدة وفي دمشق ، وقد حصلت على تأشيرة لأعضاء الوفد لزيارة سوريا ، ورحبت الحكومة السورية بدورها بالوفد ، وأبدت استعدادها

لاستقباله وضيافته (١) .

وجاء مندوب من السفارة السعودية في دمشق إلى بيروت وطمأن الوفد على الوضع ، وذكر أن كل شيء على مايرام ، وسبقنا إلى « شتورة » لينجز الاجراءات الرسمية ، ويوفر علينا الوقت ولحقنا به ، وانتهينا مما لا بد منه .

صلتي القديمة بدمشق

وتقدمنا إلى دمشق ، وهو البلد الذي أحبنا وأحببناه ، وقضينا فيها - أكثر من مرة - أياماً من أصفى أيام العمر وأطيبها ، وأحلاها ، وأبعدها عن الأكدار والأحزان ، ولا أعرف مدينة - بعد الحرمين الشريفين - حلت من قلبي محل دمشق ، وألفتها وعرفت كثيراً من أحيائها ، وشوارعهـــا ، ودروبها ، وحدائقهـــا ، ومناظرها ، وكان لي فيها خيرة أصدقاء وأحباب تجاوبت نفسي مع نفوسهم ، والتقى فكري بفكرهم ، وقد طابت لي الاقامة فيها في كل مرة ، وطابت الأسحار والآصال ، واستقرت النفس

---

(١) قد علمنا من بعض المصادر أن الحكومة السورية لم تكن عندها الخبرة الكافية بمقاصد الرابطة والأعضاء الذين كانوا يشكلون وفدها ، وكانت لاتزال في دور التحقيق والتثبت في الأمر ، والله أعلم بحقيقة الحال .

وهدأ البال ، واعتدلت الصحة ، ووافق المناخ ، وكنت إذا قرأت لشوقي بيته الذي قاله في دمشق وجدته دائماً لم يبالغ ، ولم يجانب الصواب :

آمنت بالله واستثنيت جنته دمشق رَوْح ،وجنات ،وريحان

كنا نتقدم إلى دمشق ، ومدخلها من أجمل المداخل في الدنيا ، وتمر بنا أمكنة معروفة مألوفة فأنشد أبيات الشاعر الحماسي الصمة ابن عبد الله :

بنفسيَ تلك الأرض ما أطيب الربى
وما أحسن المصطاف والمتربعا

وليستْ عشيّات الحمى برواجع
عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا

كانت زيارتي الأولى لدمشق في رمضان - ذي القعده سنة ١٣٧٠ هـ (حزيران - آب ١٩٥١ م) وكانت الأيام أيام حكم العقيد أديب الشيشكلي [١] ، وقد قيدت انطباعاتي في مذكراتي [٢] ،

---

(١) اقرأ تفاصيل هذه الزيارة ، ومذكراتها اليومية في كتاب المؤلف « مذكرات سائح في الشرق العربي طبع القاهرة ١٩٥٤ م . ص ٢١٨ - ٣٠٧ وقد طبعته من جديد مؤسسة الرسالة في بيروت .

(٢) راجع فصل « سوريا ، ما لها وما عليها » في هذا الكتاب

وكانت زيارتي الثانية في سنة ١٩٧٥ هـ (١٩٥٦ م) وطالت ثلاثة أشهر ، حين زرتها كأستاذ محاضر في كلية الشريعة في الجامعة السورية ، وكانت أيام رئاسة شكري القوتلي للجمهورية .

ملامح الحياة البارزة في العهد الماضي

وكانت من أوضح ملامح الحياة العامة والمجتمع السوري التي كانت تميز سوريا بين شقيقاتها وجاراتها العربية ، وما كان للدين في كلتا الفترتين — رغم ما كان بينها من تفاوت واختلاف — من نفوذ ومكانة في القلوب والنفوس ، ما كان للعلماء من احترام في المجتمع ، وقد كانت البلاد لا تزال متمسكة بكثير من الآداب الإسلامية ، والتقاليد الشرقية ، والطابع العربي الإسلامي ، وقد كان السفور نادراً في الفترة الأولى ، قليلاً في الفترة الثانية ، وإن كانت قد بدت طلائع الانتقال من عهد إلى عهد ، ومن اتجاه إلى اتجاه ، ومن « محافظة » إلى « تجدد » كانت واضحة يراها أهل الأبصار ، فضلاً عن أهل البصائر ، ويفهمها الأذكياء فضلاً عن الألمعيين المتوسمين .

وكانت هنالك نذر خطر تطلب عناية سريعة من المعنيين بمستقبل الاسلام وبمستقبل هذا البلد ، منها كثرة المذاهب السياسية ، والأحزاب المؤسسة عليها ، وسرعة سقوط الوزارات ؛

الأمر الذي يحدث عدم الاستقرار في الأمور ، ومنها الخلاف بين العلماء العاملين للإسلام والفرقة بينهم ، وعدم انسجام الجمعيات الدينية ، والمنظمات الاسلامية .

والسمة الثانية التي كانت تميز سوريه من بين الأقطار العربية والتي كان يشعر بها كل زائر لها من الخارج ، هو الرخاء العام الذي كان يعيش فيه أهل هذا القطر السعيد ، والهدوء الشامل الذي كان يسود على البلد كله ، وقد أكرم الله هذا البلد من قديم الزمان بكثرة الخيرات والطيبات ، من الحبوب والفواكه ، والثمرات والخضراوات ، وكثرة العيون والأنهار ، ووفرة المياه وكثرة البساتين والحدائق ، ونفاق التجارة والسلع ، وكان هنالك مجال واسع للتكسب الشريف ، والرزق الكريم ، فلا غلاء ولا جدب — إلا نادراً — ولا بطالة ولا كساد ، ولاتخلف أمطار ولا نقص في الثمرات — إلا على فترات طويلة فلا تجد في البلاد شاكياً للبطالة ، متذمراً من الأوضاع ، عاتباً على الزمان زارياً ، إلا من فطر على ذلك ، وكان كثير التشكي ، قليل التشكر ، وترى الناس يتمتعون بالحياة ، ويقضون أوقاتهم في أنس وصفاء ، تهون عليهم الولائم والمآدب ويتوسعون في المطاعم والمشارب ، ويخرجون إلى المصائف والجبال ، وإلى غوطة دمشق ، ومتنزهاتها ، فيجتمعون

على أكل وشرب ، وحديث وسمر [1] ، وكنت إذا رأيتهم محفوفين بهذه النعم ، راتعين في هذه الخيرات ، تخوفت عليهم من قلة الشكر وعدم الوفاء بحقها ومعرفة قيمتها .

ومن ملامح هذه الحياة الرخية وهذا المجتمع الوادع الهادىء الذي كان يؤمن بالتعاليم الخلقية الاسلامية في قليل أو كثير ، ويتمسك بالتقاليد الشرقية ، هو وجود الثقة المتبادلة بين أفراد الشعب وحب الخير من بعض لبعض ، بل وإيثاره على نفسه في كثير من الأحيان ، وماسبب ذلك من استقرار روحي ، وأمن عاطفي ، وقد هال هذا الجانب زائراً فاضلاً زار هذا البلد من أوربا في فترة بين الحربين العالميتين ، وقضى فيه مدة من الزمان ، يقول الأستاذ محمد أسد (Leopold veiss سابقاً) ، في كتابه المشهور « الطريق إلى مكة »[2] (Road to Mecca) في الحديث عن دمشق :

« وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها ، إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر » .

---

(١) يسمي ذلك أهل دمشق وأهل سوريا بـ « سيران » ويسميه أهل الحجاز بـ « قيلة » .

(٢) أصبح اسم هذا الكتاب فيما بعد « الطريق إلى الإسلام »

ويذكر تلك الطرق ، ثم يقول :

« وفي الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً ، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة ، الذين كانوا يبدون ، وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد ، حتى إن صاحب دكان فيهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت ، ومـا أكثر مارأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل في ما بينه وبين نفسه ما إذا كان ينتظر عودة البائع أو ينتقل إلى الدكان المجـاور ، فيتقدم التاجر المجاور دائماً — التاجر المزاحم — ويسأل الزبون عن حاجته ، ويبيعه ما يطلب من البضاعة — لا بضاعته هو بل بضاعة جـاره الغائب — ويترك له الثمن على مقعـده ، أين في أوربا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة ؟ (١) » .

ولاشك أن البلاد الشرقية بما فيها مركز الاسلام ومهده قد فقدت مع الأيام ، وبفعل الحضـارة الغربيـة ، والايمان بالفلسفة المادية ، الشيء الكثير من هذه الثقة المتبادلة ، والاخاء العام ، والتناصح الجماعي ، ففقد بفقد ذلك هذا الاستقرار الروحي ، والهدوء الباطني ، ولكني كنت ألاحظ بقاياه في المجتمع السوري

---

(١) « الطريق إلى مكة » ص : ١٦٧ .

في كلتا الفترتين اللتين زرت سوريا فيها .

تطور الحياة والأوضاع في سوريا في العهد الأخير

وكانت زيارتي الثالثة في أول شتاء ١٩٦٤ م في عودتي من أوربا وفي طريقي إلى الهند ، وقد قضيت في دمشق ثلاثة أيام ، وقد مرت بسوريا عدة انقلابات عسكرية اهتزت فيها جذور المجتمع ودعائم الحياة ، فرأيت كثيراً من هذه الملامح الجميلة قد غابت ، وغاب هذا الرخاء الذي كانت تنعم به سوريا ، وأصيبت البساتين التي هي من أكبر موارد السوريين الاقتصادية بقلة الحاصل ونقص في الثمرات ، وتخلفت الأمطار ، وأصيبت العيون التي كانت تخترق دمشق بالجفاف وقلة الماء .

وللناس أن يقولوا : هذه حوادث طبيعية لا شأن لها بسياسة أو تخطيط ، ونحن لا نناقشهم في ذلك ، ولكن المؤسف أن الناس قد أصيبوا بعدم ثقة بالمستقبل لعدم ثبات الحكومات وبقاء رؤسائها وقادتها في مراكز الحكم والقيادة زمناً طويلاً ، وتدخل الجيش في سياسة البلاد وانتزاعه الحكم الفينة بعد الفينة ، وظهر ضعف الثقة بالمستقبل في كل مجال من مجالات الحياة ومظاهرها ، من الانتاج العلمي والتعليمي إلى المجال الفكري

والأدبي ، من الدوائر الرسمية إلى الحياة المنزلية ، والمناسبات الاجتماعية ، وظهر ذلك في حديث الأصدقاء وفي وجوههم ، وعرفت من هنالك نتيجة الانقلابات السريعة ، والحكومات العسكرية ، وعرفت مقدار تحقق وعود الزعماء الاشتراكيين في إسعاد البلاد وإنهاضها ، وبث الرخاء والأمن ، والشعور بسلامة النفس وكرامة الانسان ، وحرية الفكر وإبداء الرأي ، ووجهات النظر فضلًا عن تحقيق الغايات التي لا يدّعونها ، ولا يعنون بها ، بل ينفونها ويحاربونها في كثير من الأحيان . كالدين والأخلاق والروح ، لقد كان هتاف هؤلاء القادة : الرغيف ، ولقمة عيش للجائع ، وتهيئة « الحاجيات » للشعب ، والكفالة بالعيش لرجل الشارع ، وكان جهادهم في سبيل ذلك ، فإذا لم يتحقق ذلك ، وتحقق كل شيء — على فرض أنه تحقق — فمعنى ذلك أن الاشتراكية ، والقومية ، والشيوعية نظم وفلسفات « تعبدية »[1] تقوم على مجرد عقيدة وإيمان وعاطفة ، لا توزن في ميزان العقل ، والتطبيق والنتائج ، أو مبادىء سلبية لا يقصد منهـــا إلا هدم كيان أو تخلص من النظام .

---

(١) ما يقوم على مجرد أمر (من مصدر غير بشري) من غير أن يدرك بالعقول .

وكانت هـــذه الزيارة الرابعـة جاءت على فترة ثمانية أعوام ، وهي فترة ليست طويلة ، ولكنهـــا مليئة بالحوادث ، قامت فيها عدة انقلابات ، وعدة تحولات ، وذهبت حكومات وجاءت حكومات ، وهي الفترة التي وقعت فيها نكبة حزيران ١٩٦٧ م ، وحدثت تغيرات عظيمـة في خارطة البلاد العربية المتاخمة لاسرائيل التي تواجه المشكلة وجهاً لوجه ، إذاً فهي فترة حاسمة عميقة الجذور بعيدة الأثر في تاريخ الأمة العربية الاسلامية ، وكنت أتلمس آثار هذه التحولات والتحديات في حياة هذه الشعوب المواجهة للخطر وفي أوضاع البلاد الواقعة على الثغر .

إن أول ما لفت نظرنا لافتة على الحدود السورية ، كتب فيها بقلم عريض « البعث تمرد على الحدود ، وحرب على الاقليمية ».

في دمشق

ودخلنا دمشق على بركة الله ، وزرنا سفارة المملكة العربية السعودية ، وسلمنا على سعادة السفير الشيـخ محمـد المطلق الذي رحب بنا ، وأخبرنا أن نزولنا في الفندق الأموي الجديد ، ولما وصلنا إلى الفندق عرفنا أن سماحة مفتي الجمهورية السورية الشيخ أحمد كفتارو جاء يستقبلنا في هذا الفندق ، وجلس طويلاً وكان عنده موعد إلقاء محاضرة في جامع البغا ، وسيقابلنا بعد أن

ينتهي منها ، ونائب عنه الشيخ بشير الباني قاضي دمشق ، وولد سماحة المفتي السيد زاهر كفتارو ، وبلغانا تحياته ورحبا بنا ، وبعد قليل شرفنا الشيخ أحمد ، وتقابلنا بعد فترة ثماني سنين ، وجددنا ذكريات الأيام الماضية ، أيام كنا نتلاقى كثيراً ونجلس طويلاً في منزله في حي الأكراد وفي الشيخ محيي الدين (١) ، وفي النوطة .

ارتسامات في الجامع الأموي

وخرجنا نصلي الجمعة في الجامع الأموي ، الجامع الذي كنا نحن إلى صلاة الجمعة فيه ، ولذلك تعمدنا يوم الجمعة لزيارة دمشق ، فصلاة الجمعة في الجامع الأموي سعادة وشرف ، ومتعة روحية ، وقد دمعت عيني ، وهاجت الأحزان والأشواق والذكريات حين دخلت في هذا المسجد ، وسمعت خطبة الجمعة ، وتذكرت دمشقية شوقي ، التي يقول فيها :

وقفت بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته ، ... إذا تعالى ، ولا الآذان آذان ،

---

(١) حي من أحياء دمشق منسوب إلى الشيخ محيي الدين بن عربي المدفون في هذا الحي .

لقاء وتحية

تسرب إلى أصدقائنا نبأ زيارتنا لدمشق بعد فترة طويلة وقد غادر أكثرهم هذا البلد ، وما بقي منهم إلا من قعـــدت به الشيخوخة ، أو رأى لزاماً عليه أن يبقى في هذا البلد يحرس الأمانة الاسلامية التي كان لبلاد الشام فيها القيادة والزعامة ، والتي وردت لأجلها في فضائلها أحاديث لم ترد ولم تصح عن بلد آخر من بلاد العالم الاسلامي ، فشرفنا بعضهم باللقاء والتحية ، وقررنا أن نزور الآخرين غداً ، ويكون لنا شرف زيارتهم والسعي إليهم.

لقاءات وزيارات

جلسنا مع سماحة الشيخ أحمد كفتارو مجلساً طيباً في مزرعته الجميلة في شارع المطار ، تطرق الحديث فيه إلى الربانية الصافية ، والتربية الاسلامية ، وحكمة الدعوة ، وسماحته كبير الثقة ، كثير التفاؤل ، قوي الأمل في النهضة الدينية ، وإقبال الشباب والجيل المثقف على الدين ، إذا تهيأ الدعاة المخلصون ، أصحاب الحكمة في الدعوة ، وأصحاب الايجابية ، وقـد ذكر في تفصيل تجاربه المشجعة في حقل الدعوة والاصلاح ، وما لقيه من استجابة وقبول في أمريكا وروسيا .

وزرناه في الصباح كذلك واتفقنا على أن نقابل وزير الأوقاف

عبد الستار السيد صباح يوم الأحد ، وهو الذي يرسم لنا برنامج هذه الزيارة ، وكيف نقضي هذه الأيام في دمشق ، وزرنا بعض المعالم العصرية ، والأحياء الاسلامية ، وتغدينا مع فضيلة الشيخ حسن حبنكة في بيت أحد أولاده ؛ وحضر الغداء أفراد أسرته ؛ وبعض تلاميذه ، وكانت جلسة أخوية ، وضيافة كريمة ، كان الحديث فيها دائراً حول مركز المرأة في الشريعة الاسلامية ، والمجتمع الاسلامي ، وما فطرها الله عليه من خصائص وطبائع .

قررت السفارة السعودية في دمشق إقامة حفلة تكريم للوفد مساء يوم الأحد تدعو إليها الوزراء والسفراء ، وأعيان البلد وكبار العلماء ، وقررنا رحلة صباح يوم الاثنين إلى « حلب » نعرج في الطريق إلى حمص أو حماة ، ونقضي فيها ساعة وساعتين ونرجع إلى دمشق يوم الأربعاء ، حيث نمكث يومين نحضر فيها حفلات وتعارف ولقاء ؛ ينظمها سماحة المفتي ويوافق عليها معالي وزير الأوقاف ، ثم نتوجه بإذن الله إلى عمان .

توجهنا بعد العصر إلى الزبداني أحد مصائف دمشق المشهورة لزيارة فضيلة الشيخ السيد مكي الكتاني رئيس رابطة العلماء في دمشق ، وعضو رابطة العالم الاسلامي ، وهو مريض وفي سن عالية ، يصعب عليه التنقل ، وقد اضطر إلى التغيب عن اجتماعات

الرابطة من سنتين ، وقضينا معه بعض الوقت في أنس وصفاء وفي عزلة وهدوء ، وهو من أسرة عريقة في العلم والدين ، وصاحب مواقف وجولات في مجال الدعوة والعمل الاسلامي .

واقع أشبه بخيال

رجعنا إلى الفندق متعبين في الساعة العاشرة في الليل ، وقد ضربنا مع بعض الاخوان وأصدقاء دمشق ، وبعض تلاميذنا الذين تخرجوا من ندوة العلماء مواعيد مختلفة ، تملي على بعضهم بعض المحاضرات التي ألقيناها في لبنان ، ونخرج مع بعضهم لزيارة أهل العلم والفضل ، وكبار العلماء الذين تربطنا بهم روابط علمية وأدبية ، وتوثقت بيننا وبينهم صلة الصداقة والأخوة في زياراتنا الأولى ، كعلامة الشام محمد بهجة البيطار ، والدكتور أبو اليسر عابدين مفتي الجمهورية سابقاً ، وفضيلة الشيخ أحمد الدقر ، رئيس الجمعية الغراء ، وفضيلة الشيخ زين العابدين ، وبعضهم مريض ، وبعضهم متقدم في السن ، ونزور مجمع اللغة العربية الذي أنا عضو مراسل فيه منذ سنة ١٩٥٦ م ، ونزور قبور الصحابة وأئمة الإسلام ، وقبر السلطان صلاح الدين الأيوبي . وأوينا إلى فرشنا ، وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ، والأمور تجري مجراها الطبيعي ، ولاشيء يبعث على قلق وانزعاج ، واستغرقت في النوم ، وإذا

يجرس التليفون يضرب وأنا أسمع ابن أختي « محمد الرابع » يتكلم مع موظف في الفندق على الهاتف ، هل هم في الأسفل أم طلعوا ؟ لا ، بل هم فوق ، هـــذا كان جواب المسؤول في مكتب الفندق ، وإذا بي أسمع دق الباب .

فتحنا الباب فإذا بثلاثة أشخاص يدخلون الغرفة وهم في اللباس المدني ، ويقولون لنا : ضبوا العفش واخرجوا معنا .

إلى أين ؟ هكذا كان سؤالنا ، لا ندري ، كان الجواب .

واتصلوا بالزميلين ، الأستاذ أحمد محمد جمال ، والأستاذ عبد الله باهبري ، ومنعوا بعضنا عن الاتصال ببعض ، وأدركنا الأمر ، وعرفنا أننا مطلوبون ومساقون .

وحاول الأستاذ أحمد محمد جمال أن يتصل بالسفير السعودي ، ويخبره بحقيقة الأمر ، فرفضوا ، واحتج الأستاذ من هذا التصرف القاسي ، وقال : لسنا غنماً حتى نساق سوقاً ، نريد أن نعرف السبب ، ولكن من غير جدوى .

وركبنا سيارة كانت واقفة أمام الفندق ، وركبوا معنا ، وانطلقت السيارة ، وفي الطريق عرفنا أننا متجهون أو بالأصح موجهون إلى حدود لبنان .

وتمت الإجراءات بسرعة ، وانتقلنا إلى سيارة لبنانية ، كأنها كانت على ميعاد ، وتوجهنا إلى بيروت حيث وصلنا مع الصباح ، وفوجىء إخواننا الذين ودعونا قبل يومين بعودتنا إلى بيروت ، مرة ثانية ، كما فوجىء إخواننا وأصدقاؤنا في دمشق بغادرتنا للبلد في نصف الليل ، ولا يعرفون السبب .

وقع كل هذا كمسرحية قليلة الفصول ، قريبة النهاية ، أما بالنسبة إلينا فهو حلم ، أوله لذيذ ، وآخره مزعج ؛ ونحن بين شك ويقين ، وتصديق وتكذيب للواقع ، هل الذي وقع لنا كان في المنام أم في اليقظة ؟ وكان عن تعقل وإرادة من ولاة الأمور ، أم كان على غير علم منهم ؟

إن القرآن يحكي عن سيدنا موسى ويقول :

« وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا(١) »

أما نحن فتصوير الواقع أننا خرجنـــا من المدينة على حين غفلة من أهلها .

هكذا كانت زيارة دمشق زيارة خاطفة ، حاجة في نفس يعقوب ما قضاها .

---

(١) الآية ١٥ من سورة القصص .

نشرت صحيفة « الحياة » البيروتية هذا الخبر يوم الإثنين ٨ / رجب ١٣٩٣ هـ (٦ / آب ١٩٧٣ م) ومنها علم الإخوان في بيروت ما وقع لنا في دمشق ، وأذاعته إذاعة بريطانيا ، وإذاعة إسرائيل في نفس ذلك اليوم ، وعلقت على الحـــادث الصحف الاسلامية والعربية في بيروت ، وفي العواصم العربية الأخرى ، واستنكرت الواقـع ، وزارنا الاخوان في بيروت يستوضحـون الأمر ، ويستغربون ما حدث ، ويبدون اهتمامهم بالقضية .

في عاصمة الرشيد

لابد من بغداد

قال شاعر قديم :

« لا بد من صنعا وإن طال السفر »

وكانت « صنعاء » في الزمن القديم يضرب بها المثل في البعد ، ووعورة الطريق ، وكانت مدينة الخيال والجمال في الجزيرة العربية .

وليست بغداد لقاصديها ورواديها بهذا المكان من البعد ، وصعوبة الوصول ؛ فالمواصلات موفورة والطرق ميسورة ، وقد قرب العلم البعيد وذلل الصعاب ، واستطاع الانسان بفضل العلم الذي ألهمه الله ، والقوة التي سخرها له أن يفطر في قطر ، ويتغدى في قطر ، ويصبح في الشرق ويمسي في الغرب .

المكان الذي تشغله بغداد ، في تاريخ الاسلام وثقافته

وبغداد يرتبط بها جزء من التاريخ الاسلامي السياسي ،

والثقافي ، والحضاري ، لا يرتبط ببلد آخر من بلاد الاسلام وعواصمه ، ويدور حولها حوادث وأساطير لاتدور حول مدينة أخرى لمعت في تاريخ الاسلام الطويل ، وقد ظلت مركز الخلافة الاسلامية العباسية خمسة قرون كوامل ، وحكمت معظم العالم المتمدن في العصر القديم ، وأنجبت أئمة في كل فن وفي كل علم ، وقصدها وآثرها بالاقامة الحذاق في كل علم وصناعة من أنحاء العالم ، فاجتمع فيها من أهل الفضل ، والحذق ، والنبوغ ، رجال لم يجتمعوا في مدينة أخرى من مدن الاسلام .

وقد رنّ اسمها في الآذان ونحن أطفال صغار ، قبل أن يدخل اسم مدينة أخرى في الأذن من المدن البعيدة بعد مكة والمدينة ، فكان أول كتاب تعلمنا منه حروف الهجاء « القاعدة البغدادية [1] » فكان

---

(١) سبب تسمية الكتاب بـ « القاعدة البغدادية » قصة رويت في مفتتح الكتاب ، وهي أن الخليفة هارون الرشيد جرب عدة معلمين لتعليم أبنيه الأمين والمأمون ، فلم ينجحوا في تعليمها ، فرشح أحد المعلمين في بغداد نفسه ، لتعليم ابني الخليفة ، وتطوع لهذه المهمة الخطيرة ، فابتكر لهم طريقة جديدة في تعليم حروف الهجاء والكلمات والجمل المركبة منها ، فنجح نجاحاً باهراً ، في مدة قصيرة ، فأجزل له الخليفة الصلات ، وخلع عليه ، ومن هنا سمي الكتاب « القاعدة البغدادية » وكان يعتمد عليها في التعليم الابتدائي ، في الكتاتيب المنتشرة في شبه القارة الهندية .

مدخلا إلى المكتبة الاسلامية بل مدخلاً إلى القرآن والسنة وعلوم الإسلام ، ومدخلاً كذلك إلى اللغة الأردية والفارسية ، ثم كانت كل الطرق التي نسلكها في مطالعة التاريخ الاسلامي ، وفي دراسة الصرف والنحو ، وفي دراسة ثلاثة مذاهب من المذاهب الفقهية المنتشرة في العالم الاسلامي ، وهي : المذهب الحنفي ، والشافعي ، والحنبلي ، تمر ببغداد ، أو تنشق منها أو تعود إليها ، فلا بد من الإشارة اليها أو الاحالة عليها ، في تاريخ حدوث الآراء ونشوء المذاهب ، واختلاف بين مدرسة الكوفة والبصرة ، والمعتزلة والأشعرية مرة ، وأهل الكلام والمحدثين مرة أخرى ، وهنا كانت محنة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل التي ثبت فيها ثبوت الجبال ، وهنا بلغت حلقات درس الامام أبي حامد الغزالي وشهرته العلمية أوجها ، حتى كانت تزري بمجالس الخلفاء ، وهنا قامت مجالس وعظ العلامة ابن الجوزي التي كان يكثر فيها عدد التائبين والخاشعين ، وهنا كانت مدرسة الشيخ الامام عبد القادر الكيلاني التي كانت تجمع بين العلم وتزكية النفوس ، وهنا كانت حياة الزهد والعفاف والتبتل التي يتحدث عنها كتاب « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهاني و « صفة الصفوة » لابن الجوزي ، وهنا كانت حياة المجون واللهو والطرب التي يتحدث عنها كتاب الأغاني لأبي الفرج

الأصفهاني ، وكتاب « ألف ليلة وليلة » لجماعة من المؤلفين المغمورين ، فكانت بغداد زعيمة في كلتا الحياتين ، وفي كلا الاتجاهين ، وكل من الكتب التي مر ذكرها يصور جانباً من جوانب هذه الحياة المتناقضة التي تجمعها مدينة فاضت فيها الأموال والخيرات فيضان دجلة والفرات ، وأمها أئمة كل فن ، وحذاق كل صناعة ، وزعماء كل دعوة ، واجتمع فيها دواعي الخير ودواعي الشر ودعاة الاصلاح ودعاة الإفساد ، وهو طابع العواصم الكبرى والمدن الزاخرة بالعمران والثروة والنفوذ السياسي .

إذن لا بد من بغداد وإن طال السفر، وخشينا أن نلقى نفس التجربة التي لقيناها في دمشق .

من بيروت إلى بغداد

قضينا في بيروت ثلاثة أيام في انتظار الطائرة التي تقلنا إلى بغداد . وكان موعد الطائرة اللبنانية يوم الثلاثاء ٧ / ٨/٧٣ م ، وقد اتصلت السفارة السعودية في بيروت بالسفارة السعودية في بغداد واتصل السفير السعودي بالجهات الرسمية ، وأخبرنا أن الحكومة العراقية ترحب بالوفد ، وهي مستعدة لاستقباله وضيافته مدة خمسة أيام .

وتوجهنا على بركة الله مساء الثلاثاء عند العشاء ووصلنا بغداد

في منتصف الليل تقريباً ، وكان في استقبالنا سعادة الشيخ علي الصقير ، سفير المملكة العربية السعودية ، وسعادة الشيخ عبدالرزاق الفياض ، نائب رئيس ديوان الأوقاف العراقي ، ونفـــر من علماء بغداد وأعضاء السفارة السعودية، وقضينا ساعة في قاعة الاستقبال في المطار حيث تعرفنا على أصحاب الفضيلة العلماء ، وأكثرهم موظفون في وزارة الأوقاف ، وأئمة وخطبـاء في المساجـد ، وأساتذة في المدارس ، ثم توجهنا إلى فندق « أمبسادور » (Ambas sador) وهو فندق فخم واقع في شارع أبي نواس ، مواجه لدجلة ، وقـــد استقبلنا حراً شديداً وسموماً لافحاً ، وإن كان قد انتصف الليل ، ولكن الفندق مكيف ، وقضينا الليلة في هدوء وراحة .

زيارات ومقابلات رسمية

وفي صباح اليوم الثاني : يوم الأربعاء ٧٣/٨/٨ م بدأ الوفد نشاطه بزيارة ديوان الأوقاف ، حيث علمنا أن وزارة الخارجيـة ستتولى وضع برنامجنا الذي نسير في ضوئه ، وهي التي ستعين لنا اللقاءات والزيارات ، وقد عينت لنا مرافقاً ، وهو أحد الموظفين في وزارة الخارجية ، وأننا سوف لانتحرك إلا في حفارته ومرافقته ، وشعرنا بعدُ بوجود شخصين معينين من قبل الحكومة يظلان بجانبنا ، ويرافقاننا ونكون دائماً « تحت رعايتهما » .

ومن هنا توجهنا إلى القصر الجمهوري ، حيث سجلنا أسماءنا في سجل التشريفات ، وعلمنا من مرافقنا الرسمي أنه من الممكن أن يدعونا السيد رئيس الجمهورية الأستاذ أحمد حسن البكر للمقابلة ، فيحسن بنا أن لا نغادر بغداد خشية أن توجه إلينا الدعوة ونحن في الخارج .

بدأنا بزيارة مسجد الامام الاعظم حيث صلينا الظهر ، ومسجد تلميذه الوفي النابغة وأحد أساطين مذهبه الامام أبي يوسف ، وبعد العصر ذهبنا إلى الحضرة القادرية (١) لزيارة سيدنا عبد القادر الكيلاني ، وصلينا العصر في مسجده وزرنا المكتبة المنسوبة إليه ، وألمنا بالكاظمية (٢) إلماماً .

وصباح يوم الخميس خرجنا لزيارة بعض الوزراء الذين نص على أسمائهم البرنامج الرسمي ، منهم وزير التعليم الابتدائي والمهني الأستاذ أحمد عبد الستار الجواري ثم وزير التعليم العالي الدكتور

---

(١) المكان الذي دفن فيه الشيخ عبد القادر الكيلاني ، مشهور في بغداد بالحضرة القادرية ، أو الحضرة الكيلانية .

(٢) مدفن الإمام موسى الكاظم بن الامام جعفر وحفيده محمد التقي الجواد ، وهما من الأئمة الاثني عشر عند الشيعة ، والمكان يسمى بالكاظمية كذلك .

حسين الشاوي وكان قد عاد حديثاً من زيارة للهند ، ودار الحديث حول طبيعة التوجيه والتربية في بلد إسلامي عربي كالعراق ، كان مصدر الاشعاع الاسلامي والقيادة العلمية في العالم الاسلامي كله ، وكان حديث الوزيرين حديثاً لبقاً فيه التحفظ وفيه الدقة ، وقد بدر كلمة نم عن شعور بشخصية هذا الشعب وماضي هذا البلد العريق في العلم والدين ، إن محاولة القضاء على المشاعر والعواطف ورواسب العهد الماضي وواقع الحياة قد أخفقت حتى في روسيا ، إنها معاكسة للطبيعة ومغالطة للحقائق .

في حفلة تكريم ديوان الأوقاف

أقام ديوان الأوقاف الذي كان يرأسه الشيخ عبد الرزاق الفياض نيابة عن رئيسه الذي كان في زيارة لموسكو ، حفل عشاء بجامع الشهداء تكريماً للوفد ، حضره عدد كبير من علماء بغداد وأئمة المساجد والوعاظ والمشايخ ، كان على رأسهم وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ نجم الدين الواعظ مفتي العراق سابقاً ، والشيخ عبد الكريم أستاذ مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وقد ساد الصمت على أكثر الوقت ، وإذا تكلم أحد تكلم بالقدر اللازم ، وكان سكوتهم أبلغ من كلامهم وأدل على الأمر الواقع ، وكانت أسارير وجوههم المضيئة ولمعان عيونهم الذكية تقول : « لقد كان لنا معكم شأن

لو اتسع مجال الكلام ، وغاب الرقيب العتيد الذي يحسب علينا الأنفاس ، ويحصي علينا الألفاظ ، وقد رأينا دمعة تترقرق في بعض العيون ، وكلمة تحشرج في الصدور ، ولسان حالهم ينشد بيت المتنبي :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيٌّ طيّعُ

أماني لم تتحقق

زارنا وفد من علماء الرمادي - وهو مركز علمي وديني كبير - في العراق يدعوننا إلى بلدهم ليعبروا عن عاطفتهم الإسلامية وشعورهم الديني ولنطلع على نشاطهم العلمي والديني ، ونزور هذا البلد الذي كان مركزاً للعلماء الأفاضل ، وشكرنا روحهم الطيبة وعاطفتهم النبيلة ، وقلنا لا مانع عندنا إذا وافقت وزارة الخارجية التي رسمت برامجنا وخطت لنا خطاً نسير عليه ، وقد شعرنا بتوقهم الشديد لزيارتنا وتلهفهم للاجتماع بنا في بلدهم ، واتصلوا بالوزارة فعلاً ، وقدموا إليها طلباً يترجون فيه السماح لنا بزيارتهم في بلدهم والسماح لهم بتكريم إخوانهم في العلم والدين ، ووفد لرابطة العالم الإسلامي يزور هذا البلد الاسلامي على فترة طويلة من الزمان ، ومسافة بعيدة من المكان ، وقد مهدوا لهذه الدعوة وهيأوا لها بذكر أنهم وجهوا مثل هذه الدعوة إلى فضيلة الشيخ ضياء الدين

بابا خانوف كبير علماء روسيا عند زيارته للعراق ، وسمع لهم بذلك ، كأنهم يبررون بذلك موقفهم تجاه هذا الوفد الذي يمثل الرابطة ، ويستعطفون به قلوب ولاة الأمر الذين أذنوا لهم بتكريم أحد العلماء من الخارج ، وقد فهمنا من هذا المثال من المعاني والمضمرات وطبيعة الواقع الذي يعيش فيه هذا البلد مالا نفهمه من كتاب كبير وعبارة بليغة ، وعرفنا بعد أنهم لم ينجحوا في مهمتهم ، ولم توافق الخارجية على هذه الزيارة .

وطلبنا زيارة « النجف » بلد العلم والعلماء البلد الذي يقيم فيه آلاف من طلبة العلم وعدد كبير منهم من الهند ، ويدرس فيه كبار علماء الشيعة في العالم الاسلامي ، وزيارة « كربلاء » والكوفة ، فقيل لنا : إننا نخاف أن يطلبكم السيد رئيس الجمهورية للمقابلة فلا نجدكم في البلد ، وكان هذا هو الجواب والعذر ، كلما طلبنا زيارة مكان خارج بغداد باستثناء « سلمان پاك » وزيارة معالم المدائن الأثرية التي تبعد من بغداد بمسافة ١٣٠ (ك م) على الضفة الشرقية من دجلة في جنوب بغداد ، وكانت زيارة خاطفة عابرة .

وزارنا وفد من علماء الشيعة فجلسوا معنا في الفندق جلسة قصيرة ، وعن يميننا رقيب وعن يسارنا رقيب ، وحثّونا على زيارة النجف وكربلاء ، وذكروا ضرورة هذه الزيارة ، وقيمتها العلمية والدينية ،

وأن العلماء هناك في شوق إلينا ، فأبدينا استعدادنا لهذه الزيارة ، وقضاء بعض الوقت مع المشتغلين بالعلم هناك ، ولكننا قلنا : إننا لسنا أحراراً في التنقل في هذا البلد ، وعذر الوزارة في بقائنا في بغداد أن يطلبنا السيد رئيس الجمهورية ليكرمنا بلقائه ، ونكون بعيدين عن بغداد ، فلا نحظى بهذه الزيارة الكريمة .

في جامعة بغداد والمجمعين العلمي العراقي والكردي

وزرنا خلال هذه الإقامة القصيرة رئيس جامعة بغداد الدكتور سعد الراوي ، وجلسنا معه بعض الوقت نحدثنا في موضوع التعليم ورسالة الجامعة ، ونحدثنا عن نشوء جامعة بغداد وتوسعها وأقسامها واختصاصاتها ، فكانت الزيارة الرسمية الأخيرة التي نص عليها البرنامج الرسمي .

وحدانا الذوق العلمي والأدبي إلى زيارة المجمع العلمي العراقي والكردي الذي نقدر وجوده وإنتاجه ، واستقبلنا فيه العالم البحاثة الدكتور ناجي معروف الذي استفدنا من آثاره وبحوثه قديماً ، والأستاذ عبد الرزاق محيي الدين رئيس المجمع ، وأمينه العام الأستاذ فاضل الطائي ، وصديقنا القديم الأستاذ وليد الأعظمي ، واقترح علينا رئيس المجمع والدكتور معروف زيارة المجمع العلمي الكردي كذلك ، وأتحفنا كلا المجمعين ببعض مطبوعاتها .

تجارب جديدة

وزرنا بعض المكتبات الكبرى في شارع المتنبي وبحثنا عن بعض مؤلفاتنا فلم نجد لها عيناً ولا أثراً ، وكانت هي المكتبة الوحيدة التي تجردت عن هذه الكتب الإسلامية ، وعرفنا أن لها ممنوعة في هذا البلد الذي هو في مقدمة المراكز الثقافية في الشرق العربي ، والذي يحكمه حزب يدافع عن حرية الرأي والفكر والعقيدة والضمير ، ويقوم على التقدمية .

عقدت السفارة السعودية حفل عشاء تكريماً للوفد ، اقتصر على أعضاء السفارة ، ولم يحضره إلا المعينون لمرافقتنا ، وكانوا وحدهم يمثلون وزارة الخارجية والحكومة العراقية ، ولم يحضره أحد من العلماء رغم شدة حرصهم على الاجتماع بأعضاء الوفد وزملائهم في العلم والدين .

انطباعات في المتحف العراقي

زرنا يوم الجمعة : ١٠ / ٨ / ٧٣ م المتحف العراقي ، وكان هناك مديره الفاضل المتخصص في الآثار والحفريات ، وقد طاف بنا على العهود والمراحل التي مرت بها حضارة هذه البلاد ، وتاريخها ومجتمعاتها وحكوماتها ، من زمن عريق في القدم إلى العهد الأكدي ببضعة آلاف من السنين قبل الميلاد إلى العهد البابلي ، إلى

العهد الكشي ، إلى السلوقي ، إلى العهد الفرثي ، إلى آخرها ، وعنينا بصفة خاصة بالعهد الإسلامي والآثار الإسلامية على قلة بقاء هذه الآثار ، وكأننا نشاهد شريطاً من تمثيلية تاريخية ، يأتي فيها حاكم ، ويذهب حاكم ، وتقوم حكومة وتنقرض حكومة ، وتزدهر مدينة وتبيد مدينة ، وتقوم قصور وتنشأ حدائق ، ثم تتحول إلى أطلال وخرائب ، يمر بنا كل ذلك ، وكأن التاريخ رواية هزلية ، لا جد فيها ولا حقيقة ، وكأنها مسرحية للأطفال يمثل فيها بعضهم دور الملك ، وبعضهم دور الوزير ، وبعضهم دور القائد ، وبعضهم دور القوي وبعضهم دور الضعيف ، وكأنها قصة « علي بابا » أو قصة تاجر بغداد من قصص ألف ليلة وليلة ، وعجبنا لكل من يدخل في هذه التمثيلية ، يمثل دوراً أسند إليه من واضع القصة ، حاذق في صناعته ، قادر على إدارته ، يأمر أبطال القصة فيطيعون ، وينهاهم فينتهون ، وحبلهم في يده ، يتحركون بتحريكه ، ويقفون بإشارته ، وكل واحد ينسى أنه مسير لامخير ، ومقيد لا حـــر ، فيسترسل في الخيال ويستغرق في الأماني ويعتقد أنه يقوم بدوره أبداً ، وأنه ملك دائم ، وحاكم دائم ،

وقد أتخمت بهذه المعلومات التاريخية والتقلبات السريعة ، وزالت ثقتي بالقوة والقدرة ، والحكم والسلطان ، مهما طالت مدتها واتسعت رقعتها .

زرنا ضريح الشيخ الإمام عبد القادر الكيلاني ، وصلينا في مسجده أكثر من مرة ، وهو من أعلام هذه الأمة الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، وسارت بذكرهم الرفاق ، وقد رزق من القبول والشهرة حظاً لم يرزقه إلا القليل النادر ، وتمثلت أمامي - وقد سعدت بترجمته والحديث عنه في كتابي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » أيامه الزاهرة ومواقفه المجيدة ، في مجال الدعوة إلى الاسلام ، والاقبال إلى الله ، والاقلاع عن المعاصي ، وتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس ، والثورة على الآلهة الزائفة ، وتحطيم الأصنام المصطنعة ، وإخـــلاص الدين لله ، وإفراد الرجاء منه والخوف[1] له ، وكيف كانت مجالسه تكتظ بالحاضرين والمستمعين ،

---

(١) ولكن من الغريب المؤسف أن دعوته للدين الخالص وقطع الرجاء من الخلق ودفاعه عن السنة المحضة ، لم يمنع الجهال والمسرفين في الحب والتعظيم أن يأتوا له بأعمال تنافي التوحيد ، وتعارض الاسلام ، من سجود وتمسح واستلام للقبر ، وطواف حوله ، وعن أن يتخذوا قبره عيداً ومسجداً ، وقد امتعضنا من مشاهدة هذه المناظر المخجلة ، ونبهنا بعض المسؤولين على العناية بهذا الموضوع ، وعدم تمكين الجهال من هذه المنكرات . ونعتقد أن وزارة الأوقاف أو نقابة الأشراف ، قادرة على ذلك إذا صح منها العزم .

وكيف كان يسلم فيها عدد كبير من اليهود والنصارى ، ويتوب قطاع الطريق ، وقاتلو النفس ، والشطارون ، والعيـــارون ، ويستأنفون حياة جديدة ، وكيف كانت القلوب ترق ، والنفوس تخشع ، والعيون تدمع .

كيف لو عاش الشيخ عبد القادر ، ورأى بغـداد في هذه الفترة التاريخية ؟

وقد عاش الشيخ عبد القادر في أوج الخلافة العباسية الاسلامية ، والاسلام في إقبال ، والدين له صولة ، والدنيا خاضعة للمسلمين ، والأعداء راغمون ، ولكنـه لم يكن راضياً بالوضع الذي كان يسود في بغداد وفي العالم الاسلامي ، وكان يرى أن الاسلام قد تطرق إليه الوهن ، والمسلمين قد تسرب فيهم النفاق ، ودب في المجتمع الاسلامي داء الأمم السابقة والمجتمعات الماضية ، من التقديس الزائد للمادة ، والانغماس في الشهوات ، والتكالب على حطام الدنيا وإجـلال غير الله من الملوك والوزراء ، والأمراء والرؤساء ، والرجاء والخوف منهم ، وقلة العناية بالأخلاق والنفوس ولبـاب الدين وجوهره .

وقلت في نفسي : كيف لو عاش الشيخ في هذا العصر ، ورأى المسلمين من أبناء بلده قد هووا لأصنام حديثة ، فعبدوها ،

من دون الله ، وخاقوا بالاسلام ذرعاً ، وزهدوا فيه ، واستبدلوا به شرائع وديانات أخرى ، ونظما من صنع أيديهم ونسج خيالهم ، وكيف استوردوا مناهج الحياة وأساليب الحكم والنظم السياسية والاقتصادية من الخارج ، وكيف لو رأى وكان ينكر على الخليفة المسلم الهاشمي كثيراً من تصرفاته وأخلاقه قائداً مسيحياً أو زعيماً ملحداً لايمت إلى هذه البلاد بصلة من دين أو نسب ، يتربع على كرسي هارون الرشيد وأبنائه ، ويسوق هذا الشعب المسلم العربي من الخرج بعصاه كما يسوق الراعي قطعانا من الغنم ؟

رثاؤه للاسلام وتوجعه لحال المسلمين

وتذكرت أنه قال في بعض خطبه وهو في بغداد في القرن السادس الهجري الذي قويت فيه حركة العلم والإصلاح ، وقويت شوكة الإسلام في داخل البلاد وخارجها .

« دين محمد ـ ﷺ ـ تتواقع حيطانه ، ويتناثر أساسه ، هلموا يا أهل الأرض ، نشيد ما انهدم ونشيد ما وقع ، هذا شيء ، وما يتم ، ياشمس ، يا قمر ، ويا نهار ، تعالوا .

ويا قوم ، الإسلام يبكي ويستغيث ، يده في رأسه من هؤلاء الفجار ، من هؤلاء الفساق ، من هؤلاء أهل البدع والضلال ، من الظلمة ومن اللابسين ثياب الزور (١) .

---

(١) الفتح الرباني ، ص : ٦٦ .

هذا تأمله مما كان يشاهده في عصره الذى كان عصر خير وبركة ، فكيف لو أدرك هـذا العصر ، ورأى جفاء المسلمين للاسلام وإقصاءهم له من الحياة وما اختاروه لهم واستبدلوه بما كان الله أكرمهم به عن طريق محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ، وفي ظل نبوته وقيادته من علم صحيح ، وشريعة حكيمة عادلة ، وكتاب ناطق معجز نزل بلغتهم ، فنشرها في العالم وخلدها وحفظها من التحريف ، ومن رئاسة وشرف وقيادة الأمم ومحبة في النفوس ، فكانوا يحكمون من هنا نصف العالم ويجمعون بين سعادتي الدنيا والآخرة وبين السيطرة على القلوب والأجسام .

العراق قبل الثورة وبعدها

كنا نخرج كل يوم في البلد نمر بشارع الرشيد الذي هو أقرب الشوارع إلى الفندق الذي كنا نازلين فيه ، ونتردد بين « الرصافة » و « الكرخ (١) » فنستحضر تاريخها والحوادث التي اقترنت بها ، والأبيات التي قيلت فيها ، ونمر بالجسر الذي كان يصل هاتين

---

(١) الجانب الغربي من بغداد يسمى « الكرخ » وهو الذي يقول فيه أبو العلاء المعري :

فيا برق ليس «الكرخ» داري وإنما ... رماني إليه الدهر منذ ليـــال

فهل فيك من ماء « المعرة » قطرة ... تغيث بها ظمآن ليس بسال . =

المنطقتين إحداهما بالأخرى ، وما قيل فيه من شعر غزلي ، وقد أحدثت عدة قناطر وجسور يعبر بها الانسان دجلة التي تخترق هذا البلد العظيم .

وقد زرت بغداد في سنة ١٩٥٦ م في عهد الملك فيصل بن غازي ووزارة دولة نوري السعيد باشا ، انه لاشك أنه لم يكن عهداً مثالياً ولم يكن الحكم على المنهج الإسلامي ، لقد كانت هنالك مآخذ شديدة على سياسة البلاد وتصرفات الولاة والأوضاع القائمة ، لقد كانت ثغرات وفجوات بين الشعب والحاكم ، لقد كان هناك استبداد وحيف وسوء تصرف ، لقد كان ارتباط الحكومة العراقية بعجلة السياسة البريطانية موضع نقد شديد ، ومجالاً لنقاش طويل ، لقد كان من الممكن للبلاد وللأمة أن تكون أسعد وأقوى وأهنأ عيشاً مما كانت عليه في ذلك العهد ، لو استقام الحكام ، وصلح الراعي وطبقت الشريعة الإسلامية والمبادىء العادلة .

= وهو حي بغداد القديم ، ويسمى الجانب الشرقي منها بـ «الرصافة» ، سماه بذلك هارون الرشيد ، وكان قد بنى فيه قصراً ، وفيها يقول علي بن الجهم :

عيون المها بين «الرصافة»والجسر . جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أشرن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمراً على جمر

ولكن كنت أشعر وأنا أتجول في شوارع بغداد ، وأطالع وجوه الناس وأسمع حديثهم ، وفي ضوء تجربتي الخاصة في هذه الزيارة الأخيرة أن البلاد كانت أكثر رخاءً وسعادة ، والأمة أقوى ثقة وأكثر حرية قبل الثورة التي قام بها عبد الكريم قاسم منها الآن ، لقد زرت بغداد في سنة ١٩٥٦ م فما شعرت بكبت ولاضغط ولا رقابة ولا تقييد ، كنت أمشي حراً في بغداد وفي خارج بغداد وأتنقل من مكان إلى مكان ، وقد زرت من شئت زيارته ، وزارني من شاء زيارتي من غير أن نخشى رقابة أو تساؤلاً ، وألقيت محاضرتي التي نشرت بعد بعنوان « أزمة إيمان وأخلاق » في دار جمعية إنقاذ فلسطين ، حضرها عدد كبير من الشباب والمثقفين ، وتكلمت فيها بحرية ، وعلقت على الأوضاع الخلقية السائدة في البلد وفي العالم الإسلامي وما يواجهه المجتمع المعاصر من أزمة إيمان وأخلاق ، وفقدان أصحاب الضمائر والمبادىء ، فلم يثر ذلك اهتماماً ولم يحدث ذلك لي مشكلة ، وخرجت من بغداد كما دخلتها حراً كريماً راضياً مسروراً .

إن الانسان مفطور على المقارنة بين الربح والخسارة ، وبين العطاء والحرمان ، وبين الكسب والخسران ، فما الذي استفادته هذه البلاد يترى بعد الثورات التي قامت لإعادة الأمور إلى نصابها ،

والحقوق إلى أصحابها ، وتخليص الشعب من الظلم والحيف والاستبداد وخنق الحريات وسلبها ؟ هذا سؤال نوجهه إلى جميع المعنيين بقضية الأقطار العربية الاسلامية ، ولكل محب للحقيقة ، وواقد لحق .

حديثي في جامع الشهداء

عين لنا ديوان الأوقاف جامع الشهداء لنصلي فيه صلاة الجمعة ، وهو يبعد عن بغداد بعدة كيلو مترات ، ولايصل إليه الناس في هذا الحر الشديد ، وفي وقت الظهيرة إلا بشق الأنفس ، ولست أدري كيف تسرب هذا الخبر إلى العلماء والشباب والمتعطشين إلى سماع الكلمة الحسنة وزيارة إخوانهم في الاسلام ، فقد امتلأ المسجد بالمصلين وفوجئت بطلب كلمة ألقيها عقب الصلاة ، فاعتذرت ، ولكن من غير جدوى ، فأحلت الأمر إلى المسؤولين ، وخشيت أن أتورط فيما لايحمد ويؤثر على إخواني الذين طلبوا هذه الكلمة ، وحضروا الصلاة في هذا الجامع ، ووافق المسؤول .

وفكرت في موضوع الحديث الذي أتحدث به فوجدت مجال الحديث ضيقاً والموقف دقيقاً ، وهناك أسعفني القرآن — وهو دائماً يسعف الطالب الحائر وينير السبيل — وكان من الإلهام والتوفيق أن الأستاذ عبد الرزاق الفياض كان قد تلا سورة الأنبياء بصوته العذب

الرنان ، فتمسكت بآية من آياتها ، وهي قوله تعالى :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١) » .

وفتحت لي هذه الآية الكريمة مجالاً واسعاً لحديث يمس القلوب ، ويتصل بالحياة ، وينطبق على الواقع .

فقلت : القرآن مرآة وضيئة يرى فيها الأفراد والجماعات وجوهها وتعرف مكانتها .

إخواني وسادتي ، لقد سمعت أخاً كريماً يتلو سورة الأنبياء ، ومرت بي آية أثارت في نفسي معاني كثيرة ، وعبراً ودروساً عميقة ، وهي قوله تعالى :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ » .

إن هذه الآية تنبهنا إلى أن القرآن مرآة صافية وضيئة ، صادقة أمينة وفية ، يرى فيها كل إنسان وجهه ، وملامحه ، وسماته ، فيعرف مكانه من بين الناس ، وطبقته من بين طبقات الناس ، ويعرف مكانته عند الله ، فإنه كتاب يحدث عن أخلاق الناس وصفاتهم ومخايلهم ، ومجموع صور لجميع أنماط البشرية ونماذج الإنسانية .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الأنبياء .

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ » .

يعني فيه حديثكم وخبركم كما فهمه كثير من العلماء ، وقد كان السلف ينظرون إلى القرآن ككتاب حي ناطق دافق بالحياة ، لا ككتاب تاريخي أثري يحدث عن الذين عاشوا في القرون الغابرة ، ومضوا لسبيلهم ، لاشأن له بالأحياء ، ولا بالحياة الإنسانية المتطورة والأنماط البشرية الخالدة الموجودة في كل زمان ومكان .

وكانوا يعرفون نفوسهم وأخلاقهم جيداً ، ولا يلتبس عليهم أمرهم ، فكانوا يستوحون هذا القرآن ، ويتلمسون وجوههم وأخلاقهم وتصويرهم الدقيق في هذا الكتاب العجيب ، وكانوا يجدون أنفسهم بسهولة في هذا الكتاب ويهتدون إليها ويعرفونها ، فيحمدون الله إذا وجدوا خيراً ، ويستغفرون الله إذا وجدوا غير ذلك ، ثم يقبلون على أنفسهم فيصلحونها .

تذكرت بمناسبة تلاوة هذه الآية قصة كنت قرأتها لسيدنا الأحنف بن قيس ، وهو من فضلاء التابعين ومن أخص أصحاب سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبه يضرب المثل في الحلم فيقال : « أحلم من الأحنف بن قيس » وكان مع ذلك شديد الغيرة عظيم الحمية إذا ثار وغضب ، فكان يقال : « إذا غضب الأحنف غضبت معه مائة ألف سيف » ، قرأت هذه القصة في

كتاب « قيام الليل » لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي (م ٢٧٥ هـ) أحد كبار تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل ، والمرجع أن هذا الكتاب ألف في بلدكم : بغداد ، يقول :

« إن الأحنف بن قيس كان جالساً يوماً فعرضت له هذه الآية :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » .

فانتبه وقال : « عليَّ بالمصحف لألتمس ذكري اليوم حتى أعلم من أنا ومن أشبه ؟ » فنشر المصحف ، فمر بقوم .

« كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ والمَحْرُومِ [1] » .

ومر بقوم :

« تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [2] » .

---

(١) الآيات ١٧ – ١٨ – ١٩ من سورة الذاريات .

(٢) الآية ١٦ من سورة السجدة .

ومر بقوم :

« يبيتون لربهم سجدا وقياما [1] » .

ومر بقوم :

« ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ؛ والله يحب المحسنين [2] » .

ومر بقوم :

« يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون [3] » .

ومر بقوم :

« يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون [4] » .

قال : فوقف ؛ ثم قال : « اللهم لست أعرف نفسي ههنا » ثم أخذ في السبيل الآخر ؛ فمر بقوم :

---

(١) الآية ٦٤ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٩ من سورة الحشر .

(٤) الآيتان ٣٧ — ٣٨ من سورة الشورى .

« إذا قِيْلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلاَّ الله ، يَسْتَكْبِرُونَ .. وَيَقُولُونَ : أَإِنا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونَ [1] » ..

ومر بقوم :

« إذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ ، وإذا ذُكِرَ الَّذِيْنَ مِنْ دُونِهِ اذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [2] » .

ومر بقوم يقال لهم :

« ماذا سَلَكَكُمْ في سَقَر ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِيْنَ . وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِيْنَ . وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا اليَقِيْنُ [3] » .

قال : فوقف ؛ ثم قال : « اللهـــم ! إني أبرأ إليك من هؤلاء » قال : فما زال يقلب الورق ؛ ويلتمس حتى وقع على هذه الآية :

---

(١) الآيتان ٣٥ – ٣٦ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٤٥ من سورة الزمر .

(٣) الآيات ٤٢ – ٤٧ من سورة المدثر .

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم (١) » .

فقال : « اللهم ! هؤلاء (٢) » .

وتعالوا نلتمس ذكرنا وتصويرنا في القرآن بأمانة ودقة وجد وعزم ؛ إن القرآن يقرن بين التبشير والإنذار ؛ ويأتي بوصف الصالحين والمنحرفين ؛ ويصور الجماعات كما يصور الأفراد ؛ فيقول :

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد (٣) » .

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة التوبة .

(٢) كتاب « قيام الليل » طبع ملتان ، الهند — باكستان حاليا — سنة ١٣٢٠ ، ص ١٣ .

(٣) الآيات ٢٠٤ — ٢٠٥ — ٢٠٦ من سورة البقرة .

ثم يعقب ذلك بقوله :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ ، واللهُ رَؤُوفٌ بالعِبَادِ [1] » .

ويصف جماعة بقوله :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ [2] »

ويصف جماعة بقوله :

« مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً [3] » .

ويحث على الشكر وتقدير النعمة ؛ فيذكر الأنبياء وأتباعهم

---

(١) الآية ٢٠٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٥٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

ويحذر من كفران النعمة وبطرها ؛ وتبديل نعمـــة الله كفراً ومعاملة الإحسان بالإساءة ؛ فيقول محذراً منذراً :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ [1] » .

ويضرب مثلاً بقرية بطرت معيشتها وجحدت النعمة فقال :

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ [2] » .

إن النماذج الخلقية والمعنوية التي عرضها القرآن باسم بعض الملوك الجبابرة ، كـ « فرعون » ، وبعض الأمراء والوزراء الطغاة ، كـ « هامان » ، وبعض الأغنيـاء الأثرياء الأشحـاء المتكبرين كـ « قارون » ، وبعض الأمم القاهرة العاتية الظالمة كـ « عاد » و « إرم » ذات العماد ، وبعض الأمم الحـاذقة في الصناعات ، المتـأنقة في المدنيات كـ « ثمود » ، كلها أنماط بشرية خالدة لا تختص بزمان دون زمان ، وهي تمثل نواحي من الفطرة البشرية ، ومواضع ضعف وانحراف فيها ، وقد حدث القرآن عن هذه الجماعات والأفراد

---

١ : الآية ٢٨ من سورة إبراهيم .

٢ : الآية ١١٢ من سورة النحل .

ومصيرها الذي صارت إليه ، وسيلقى كل من يسير على آثارها ويتخذها إماماً وقدوةً ، نفس المصير ونفس العاقبة « سنة الله في الذين خلَوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً[1] »[2] .

فانهال الناس علي يصافحون ويعانقون ويقبلون ، وهمس في أذني أحد الحاضرين فقال : « لقد كان الجمع عشرة أضعاف ، وأكبت بغداد عليك، لوكانت الأوضاع طبيعيةً ، والناس في حريتهم» .

أسف على عدم زيارة البصرة

وطلبنا أن نزور « البصرة » بلد العلم والزهد والدعوة في التاريخ القديم ، وأكبر مدينة بعد دمشق في العهد الأموي ، ومركز سيد التابعين الحسن البصري ، ولكن كان الجواب القديم : لعل السيد رئيس الجمهورية يطلبكم فلا يجدكم ، وأردنا أن نعرج على البصرة في طريقنا إلى الكويت ، ومن هنا نتوجه إلى عمان ، فلم يتفق لنا ذلك .

مغادرة بغداد

وغادرنا بغداد مساء الأحد وفي النفس شوق إليها ، وتقدير لها .

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

(٢) قد تناول الكاتب هذا الحديث بشيء من التنقيح والزيادة والإيضاح حين أراد أن يسجله في هذا الكتاب .

في أرض الشهداء والمرابطين

من بغداد الى عمان

كانت نهاية المطاف في هذه الجولة التي انتظمت أربعة أقطار عربية إسلامية ، شرق الأردن ، ولعل ذلك كان خيراً ، فقد كان في هذا القطر متنفس ومجال للحديث والتعبير عن العواطف لم نجدهما في الأقطار التي تحكمها الحكومات الجمهورية الشعبية ، وهي تتعبر وتعاف أن تحكمها أسرة أو شخص وتعتبر ذلك رجعية وتخلفاً لا مسوغ له في هذا العصر الراقي المتحور .

غادرنا بغداد مساء ليلة الاثنين (١٢/٨/٧٣ م) في الساعة التاسعة في الليل تقريباً ، وكان في توديعنا السفير السعودي وبعض أساتذة بغداد ممن يشتغلون بالتدريس في السعودية . ونزلنا في مطار البصرة ، وقضينا هناك ساعة ، وقد أحيل بيننا وبين زيارة هذا

البلد العلمي التاريخي الذي كان مدرسة مستقلة في الدين والعلم ، والأدب والنحو ، وفوجئنا في المطار بوجود القنصل السعودي ... وكان حريصاً شديد الحرص على زيارتنا للبصرة ، وقضاء بعض الوقت فيها تحت ضيافته الكريمة ، وقد سررنا جميعاً بهذه الزيارة المفاجئة ، وركبنا الطائرة للكويت حيث بتنا تلك الليلة ، ونزلنا في فندق « شيراتون » وأكرمنا فضيلة الشيخ عبد الرزاق الصالح، وصديقنا الدكتور عبد اللطيف خان ، والأخ العزيز إبراهيم الحسني بزيارتهم ، وجلسوا معنا قليلاً ، ثم تركونا لنستريح .

وفي صباح يوم الاثنين (١٣/٨/٧٣ م) توجهنا إلى عمان ، ووصلنا قبل الظهر ، واستقبلنا في المطار وكيل وزارة الأوقاف الأستاذ عبد خلف ، وسعادة الأستاذ كامل الشريف ، سفير الأردن في باكستان ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي ، والقائم بالأعمال في السفارة السعودية الأستاذ محمد ميمش وآخرون ، وتوجهنا من المطار إلى فندق الأردن « انتركونتيننتال » وذكر لنا الأستاذ كامل الشريف في الطريق أن جلالة الملك حسين لما علم قصد الوفد لزيارة المملكة الأردنية الهاشمية رحب بها ، وأبدى سروره ، وأنه من المتوقع أن يدعو أعضاء الوفـــد للمقابلة في ظرف إقامته في العاصمة ، وقد شكرناه بدورنا على هذه الروح الطيبة والكرم الذي لم يكن مستغرباً من هذه الأسرة الكريمة .

ضيافة وزارة الأوقاف ومناسبة الموسم الثقافي

نزلنا في الفندق في ضيافة وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية ، التي يتولاها ويشرف عليها معالي الدكتور إسحاق الفرحان ، وكانت هذه الوزارة تحتفل في هذه الأيام بالموسم الثقافي ، وتنظم محاضرات ونوادي علمية لنشر الثقافة الاسلامية ، وإيجاد الوعي الاسلامي ، وكان قد اتصل بنا وكيل الوزارة ونحن في دمشق يدعونا للاسهام في هذا الموسم ، وكان معالي الوزير وجه دعوة إلى كاتب هذه السطور إلى مقره في الهند ، فانتهزت الوزارة فرصة زيارة هذا الوفد الأردني وأنزلت أعضاء الوفد في ضيافتها الكريمة ، ونظمت المحاضرات والزيارات واللقاءات ونشرت برنامج الزيارة .

زارنا في الفندق معالي وزير الأوقاف ، وهو من رجال التربية والتعليم المعدودين في الشرق العربي ، ومن أصحاب الفكرة الاسلامية ، وكان يجمع في السابق بين وزارة التربية والأوقاف ، ثم فصل بينهما أخيراً ، وقد عرفناه من خلال كتاباته الاسلامية ، وكان بعض بحوثه حول منهج التربية والتوجيه في البلاد الاسلامية من أحسن ما قرأناه في هـــذا الموضوع ، ووجوده في الوزارة مكسب كبير بالنسبة إلى البلاد ، وإن كان محله الطبيعي في

وزارة التربية والتعليم ، وزارنا كذلك مدير الإعلام في الوزارة الأستاذ « علي فريج » والدكتور عبد الله عزام ، الذي عين مرافقاً للوفد ، وهو من خيرة الاخوان الذين تعرفنا بهم في هذه الجولة التي ابتدأت من كابل وانتهت إلى عمان ، ديناً وتقوى ، وغيرة ونشاطاً ، والأستاذ عز الدين الخطيب مدير عام الوزارة ، والأستاذ حسن التل رئيس تحرير « اللواء » الاسبوعية .

مع معالي الوزير وزملائه

بدأ الوفد نشاطه يوم الثلاثاء ١٤ / ٨ / ١٩٧٣ م في الساعة التاسعة صباحاً بزيارة معالي وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية في مكتبه ، وبقي أعضاء الوفد ساعتين مع معاليه ، يتحدث إليهم عن نشاط وزارة الأوقاف ، ومجالات عملها وانتاجها وتطورها في العهد الأخير ، وأنها كانت تخاطب الأموات أولاً فأصبحت تخاطب الأحياء وتعنى بشؤونهم إضافة إلى مهمتها الأولى ، وتقوي الصلة بينهم وبين التعاليم الدينية ، والثقافة الاسلامية وتنميتها ، وكان حديثه حديث واع ناضج . قد فهم رسالة الاسلام ورسالة العلم وروح العصر ، ومرونة مؤسسة « الوقف » الاسلامية وصلاحيتها لمسايرة العصر ومجاراة المسلمين في حاجاتهم ومتطلباتهم في ضوء الكتاب والسنة ، والفقه الاسلامي الواسع ،

واستعرض في حديثه الجهاز الاداري ، والمؤسسات التابعة لوزارته ، ومظاهر النشاط في المملكة استعراضاً دقيقاً شاملاً ، استفدنا منه معلومات كثيرة في وقت قليل ، وأخذنا فكرة واضحة منسقة عن هذه الوزارة التي تستطيع أن تمثل دوراً خطيراً في الاحتفاظ بالثروة الاسلامية القديمة مع الزيادة في الثروة الحديثة .

وخرجنا في الساعة الحادية عشرة لزيارة المعهـــد الشرعي واجتمعنا بمديره الشيخ محمد إبراهيم شقرة ، وهو من خيار المربين والموجهين في هذا البلد الاسلامي وطاقة دينية تربوية ، يجمع بين الرسوخ في العلم ومتانة العقيدة ، واستنارة الفكر ، وقوة البيان ؛ اشتغل مدرساً في الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة مدة من الزمان ؛ وقد زار الوفد كذلك مدرسة القرآن الملحقة .

لقاء مع الملك حسين

وكان المفروض أن نزور المركز الثقافي الاسلامي ـ فرع النساء ـ ولكننا فوجئنا ـ ونحن نستعد لصلاة الظهر في المسجد المجـــاور للمعهد الشرعي ـــ بطلب مستعجل من جلالة الملك حسين للمقابلة في القصر ، فصلينا الظهر ، ثم قصدنا مكتب معالي وزير الاوقاف لنتوجه منه الى القصر في معية الأستاذ كامل الشريف ، الذي كان يرافق الوفد إلى القصر كعضو في الوفد ودليل .

وصلنا إلى القصر ووجدنا هناك سعادة الشيخ محمد أمين الشنقيطي سفير المملكة الاردنية الهاشمية في السعودية ، وقد جاء في مقابلة الملك وزيارة للعاصمة قريباً ، وتذكرنا بوجوده مقابلتنا الأولى لجلالة الملك المرحوم عبد الله بن حسين جد الملك الحالي قبل ٢٢ سنة في قصر « رغدان » يوم الثلاثاء ٦ — ١٠ — ٧٠ هـ ١٠ ٧ — ٥١ م ، ومقابلته الثانية في يوم الجمعة ٧٠/١٠/٩ هـ ٥١/٧/١٣ م ، وها نحن نقابل اليوم حفيده الكبير ، ولكن ما أوسع الفرق وما أضخمه بين الأمس واليوم .

إنها فترة قصيرة بالحساب الرياضي مدة اثنتين وعشرين سنة ، وما أقصرها من مدة في تاريخ الأمم والأشخاص ، وفي تاريخ الأسر والحكومات ، وقد تتوالى أعقاب وأجيال في مدة قليلة وتتداول الحكم ، وتتربع على العرش ، ولكنها فترة طويلة ، إذا قيست بالحوادث والتطورات ، والربح والخسارة ، والتغيير في خارطة العالم عموماً وفي هذا البلد خصوصاً ، السياسية والجغرافية .

إن الملك حسين قد ورث عن جده الكبير مملكة تواجه تحديات ومعضلات وتناقضات قلما تواجهها الحكومات والمملكات في هذا العصر ، وقد اختير للقيادة والحكم في فترة من أدق الفترات وأكثرها تعقداً ، ثقل لا ينوء به إلا القادة العصاميون ، وقد آمنت بضعف الانسان وقصر هذه الحياة وسرعة التقلب حين كنت

أمشي من غرفة الاستقبال إلى غرفة الانتظار ، ومن غرفة الانتظار إلى مكتب الملك ، وكأني أشاهد مسرحية أو أرى رؤيا ، فقد فوجئت وأنا في بيت مضيفي الكريم الشيخ قاسم الأمعري تاجر عمان ، وعلى مائدته بطاب مستعجل من جلالة الملك عبد الله ، وقيل لي : « ان سيدنا[1] يريدك » . فلبيت الدعوة مسرعا ، ثم فوجئت وقد انصرفت من صلاة الجمعة في الجامع الذي صلى فيه الملك ، وقيل لي : « إن سيدنا يريدك » وقد توجه هذا الطلب المفاجىء من حفيده العظيم وقيل لنا : « إن سيدنا في انتظاركم » ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، ولكن ما أعظم الفرق بين الأمس واليوم !

دخلنا في مكتب جلالة الملك ، فمشى بضع خطوات لاستقبالنا ، وفتح الباب ، وأبدى دماثة وتواضعاً زائداً ، واعتذر أنه يقابلنا في هذا المكتب الذي كان فيه ، ثم جلسنا جلسة لاتكلف فيها ولا آداب ملوكية ، وتكلمنا بكل حرية وصراحة ، وتطرق الحديث إلى وضع البلاد الدقيق المحرج الممتحن للذكاء والايمان القوي والعزم الصادق ، وهنا تصوير لقوله تعالى : « حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما

---

١ أهل الاردن يخاطبون ملكهم بهذه الكلمة ، وقد اقتبسوها من حجاز ، وجروا على هذه العادة .

رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه » ، فقد شاهدنا بالعيان ، وجربنا عمليا أنه لا ملجأ للمسلمين وللعرب عموما ، ولهذه المملكة التي تقـــع بين فكي الاسد ، أو طبقي الرحا ، وتعيش على شفرة السيف وسنان الرمح خصوصا إلا إلى الله ، ولا عاصم لها اليوم الا الايمان بالله ، والاخلاص لهـــذا الدين ، والاعتماد على صلاحية الاسلام للبقاء والقيـــادة ، وتطهير الحياة من كل ما يبعد النصر ، ويثير الغضب ، ويزيد في الضعف ، والدخول في السلم كافـة ، كما يقول القرآن ، وترك المحاربة لله والرسول والايمان بقوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . وذكرته بمسؤوليته العظيمة نحو اللاجئين الفلسطينيين وعقيدتهم ، وعقيدة أطفالهم وأجيالهـم المقبلة ، وأن لايتركوا تحت رحمة المبشرين المسيحيين ، وجمعية غوث اللاجئين ، تستغل وضعهم الشاذ المزري المغري الذي يعيشونـــه ، وقلت : « إنها أكبر مسؤولية في الدنيا والآخرة ، وإننا جميعاً موقوفون أمام الله ، مسؤولون عن هؤلاء البؤساء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، واعترفت ببعض مواقفـــه الحاسمة الحازمة ، والبطولة الفريدة التي ظهرت منـه في بعض المجالات » .

وقلت للملك : (إن بعض الصالحين في الزمن السابق كان يقول : « لو لم تكن لي إلا دعوة مستجابة لجعلتها لولي الأمر ، فإن في صلاحه صلاح البلد ، وفي فساده فساد البلد » . وإني وإن لم أكن بهذه المكانة ولكني أتجاسر وأقولها للملك) .

ولم يكن من جلالته إلا حسن الاصغاء والتواضع ، وقد شارك في الحديث الزميل المحترم سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال . وسعادة الأستاذ كامل الشريف ، وقد قال الأستاذ أحمد محمد جمال : « انني قلت في مناسبات كثيرة : ما بقي لنا أمل إلا في الفيصل والحسين » .

وانتهى المجلس ومشى الملك يودعنا ، وسلمنا عليه ، وعدنا إلى محلنا في الفندق .

زيارة المؤسسات الاسلامية في البلد

وفي يوم الأربعاء ١٥/ ٨/ ٧٣م خرجنا في الساعة التاسعة صباحاً ، وزرنا بناء المستشفى الاسلامي الخيري الكبير الذي تقوم بإنشائه جمعية المركز الاسلامية الخيرية في عمان ، وهو مشروع عملاق ، إذا كمل كان من أكبر المستشفيات في هذه المنطقة الاسلامية العربية ، وسد حاجة كبيرة في البلد الذي نشطت فيه الجمعيات التبشيرية ، والمؤسسات المسيحية الغربية في انشاء المستشفيات ،

ودور الاسعاف الطبي ، وكانت مركزاً كبيراً للدعوة إلى المسيحية ، والدخول إلى النفوس والعقول من جانب رقيق ناعم حساس . وهو العطف على المريض وازالة ما يعانيه من وجع وسقم ، أو التخفيف منه على الأقل ، والكلمة الرقيقة اللطيفة التي تمس القلب ، وتحل عقد النفس ، ولا شك أنه أضعف جانب وأرقه في حياة الانسان .

وقد قطع هذا المستشفى شوطا كبير من البناء والتصميم ، وقد طاف بنا الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ومساعده الأستاذ مشهور حسن حمود المدير العام للجمعية ، ولمشروع المستشفى ، وحكى لنا ما حققه هذا المشروع من النجاح ، وكيف استطاع أن يستفيد ببراعة المهندسين الكبار ، وحذاقة الاطباء أصحاب الشهرة العالمية ، وهو مبني على أحدث طراز ، مؤثث بأرقى أثاث ، وسيلحق به مسجد كبير ، ومركز ثقافي ، وقاعة محاضرات ، ومكتبة اسلامية ، ومنزل للممرضات ، ومعهد تمريض وقبالة .

وزرنا مسجد الجامعة الاردنية ، ولا يزال في دور البناء ، ينبىء عن جامع كبير لائق بالمركز الجامعي الحساس ، وزرنا مديرية أوقاف عمان ، وقضينا بعض الوقت مع كبار المسؤولين ، وزرنا مكتبة الأقصى وهي من إحـــدى المكتبات الكبيرة

التي زرناها في جولتنا ، وهي غنية بالكتب الاسلامية ، وجدت فيها أكثر مؤلفاتي المطبوعة في بيروت والقاهرة .

وزرنا مسجد أحمد قارة أحد المساجد الرئيسية في العاصمة ، ومنه يذاع الأذان الموحد في أوقات الصلاة الخمسة ، وهي فكرة ظريفة لم نجدها في مكان آخر ، والفكرة جديرة للنقاش والتفكير ، فقد يتعطل المذياع أو ينام المؤذن ، ويفقد أهل البلد الاذان ، هذا عدا أن هذا يفقد فضل الأذان وما وعد عليه من الثواب في مساجد أخرى من مساجد البلد ، ونجولنا في أنحاء هذا المسجد العظيم وقاعاته ، ومكتبته المنسقة تنسيقا حديثا ، وأعجبنا بجمال البناء وحسن النظام .

وزرنا أرض مشروع دار الأيتام ، وبجوارها مركز لاستقبال الحجاج القادمين من القرى والبوادي واستراحتهم .

نظرة على اللاجئين الفلسطينيين

ومررنا في طريقنا بأحد الملاجىء الفلسطينية ، ورأينا أطفال اللاجئين – وهم ينحدرون عن أصول شريفة كريمة لها دور في تاريخ الفتح الاسلامي والدعوة الاسلامية – وما يعانونه من فقر وبؤس ، تتفتت له الاكباد ، وتدمع له العيون ، ورأينا مركز جمعية « شلتر » الالمانية ، وما تحتوي عليه من شعب ومكاتب

واسعاف طبي ، وتموين وتغذية ، وتعليم وتربية ، فقلنا : « لقد رفع الحاجز بين الذئب والخروف وتركا وشأنهما ، فما بقاء الخروف المسكين الجائع الهزيل أمام هذا الذئب القوي السمين ، والفطرة هي الفطرة ؟ »

في جمعية المركز الاسلامي الخيرية

زرنا في المساء جمعية المركز الاسلامي الخيرية ، وهي في الحقيقة مركز نشاط بقـــايا « الاخوان المسلمون » ودعاتهم ، يقودهم ويشرف عليهم صديقنا القديم الزعيم الاردني المجاهد الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ، وهو من خيرة العاملين في حقل العمل الاسلامي الذين تعرفنا بهـــم في الخمسينات الاولى ، وكان أول لقـاءنا به في دمشق عـام ١٩٥٦ م يوم جـاء إلى دمشق ليحضر المؤتمر الاسلامي الذي دعا اليه صديقنـا العزيز الدكتور سعيد رمضان ، ويدعو الضيوف لزيارة القرى الأماميـة ، ومـلاجىء الفلسطينيين في الاردن ، ثم جاءنا في الهند وزار قريتنا الصغيرة ليدعوني لحضور المؤتمر الاسلامي ، الذي أزمع على عقده ، وأراد أن يكون له السبق في تكريمنا ، فعقد حفلة تكريم وتعارف في مركز الجمعية حضرها عدد كبير من أعيان البلد والعاملين في الحقل الاسلامي وأصحاب الفكرة الاسلامية ، وكبار المثقفين

وعلماء البلد ، وحضر معالي وزير الاوقاف ، والاستاذ كامل الشريف وغيرهم ، وتقدم الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ، فألقى كلمة رقيقة متحمسة ، رحب فيها بالوفد ، وعرف أعضاءه إلى الحاضرين ، وذكر صلته العزيزة القديمة ببعض أعضاء الوفد ، وذكر ما لهذا البلد من مكانة ومركز دقيق حساس في العالم الاسلامي والعالم العربي .

حديثي عن مسؤولية البلد الاسلامي المرابط

وقمت بعده ، فألقيت الكلمة الآتية :

« نحمد الله وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد : فإني أشكر الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة على كلمته الرقيقة الكريمة التي تفضل بها ، ولا نستغرب فإنها حديث أخ عن أخ ، ومحب عن محب ، يلتقيان على العقيدة والفكرة ، ويشتركان في العاطفة والشعور ، وأشكره بصفة خاصة على إتاحته فرصة التعرف على هذه الصفوة المختارة من رجال الفكر والدعوة ، وللتحدث اليهم ، إنها قيمة هذه الرحلة الطويلة ، فإننا لم نقم بهذه الرحلة لزيارة المعالم والآثار ، بل قمنا بها للاجتماع بالاخوان والحديث إليهم وتبادل الرأي معهم .

إخواني : لقد كان المتوقع المطلوب من إخواننا العرب الساكنين

في هذه الديار حمل الدعوة الإسلامية ، وحمل مشعل الاسلام إلى الأقطار البعيدة ، ولا شك أنهم قاموا بدورهم في العصر الأول ، ونحن في شبه القارة الهندية ، ندين لهم بهذا الفضل ، فقد أكرمنا الله بالاسلام عن طريقهم ، ولم تزل بلادكم مصدر الاشعاع الاسلامي ، ولم نزل نستمد من تاريخ هذه البلاد ـ تاريخ الغزوات والفتوح ، والجهاد في سبيل الله ، وتاريخ البطولة الاسلامية ـ الايمان والثقة والاعتزاز بالدين ، والصمود في وجه التيارات العنيفة التي كانت تغزو المسلمين بين حين وآخر ، وقوة المقاومة للدعوات المعارضة للاسلام ، بل الصبر على المكاره والمصائب ، ونستمد منه العزاء والسلوى في الحوادث ، فقد كان تاريخ فتوح الشام هو الملجأ الذي يلجأ اليه المسلمون ويستمدون منه الايمان والحماس وقوة المقاومة للنوازل والحوادث ، إنني لا أزال أذكر أيام طفولتي حين كانت السيدات يجتمعن وتنشد إحداهن ترجمة فتوح الشام للواقدي في الشعر الأردي ، هذه الملحمة الإسلامية الكبيرة التي نظمها أحد أفراد أسرتنا نقلا من فتوح الشام للواقدي ، وكانت تحتوي على خمسة وعشرين ألف بيت ، وكنا ندخل في هذه المجالس في حاجة من حاجات الاطفال التي تكثر وتتجدد ، فنأتي إلى أمهاتنا أو اخواتنا فنرى العيون تذرف والدموع تهطل ،

وسحابة من سكينة وإيمان تحلق على رؤوس السيدات المؤمنات القانتات الصالحات ، وهن يسمعن أخبار هذه المعارك التي يخوضها الصحابة والتابعون ، ويكثر فيها القتلى والجرحى وتتناثر فيها الرؤوس وتسيل فيها الدماء ، ويفجع المسلمون في أعز إخوانهم وأحب أقاربهم فينسين حادثتهن الشخصية بجنب هذه الحوادث الاسلامية العامة ، وتغمرهن موجة من الحماس الديني ، والشوق إلى لقاء الله ، والصبر على المكروه ، وهكذا كان الرجال يتناشدون هذه الملحمة ويستمعون اليها في شوق ولهف ، ويسري في عروقهم تيار كهربائي من الايمان والبطولة ، والحنين إلى الشهادة ، وكانت عادة متبعة وتقليدا شائعا في الاسر الإسلامية الكريمة وأوساطهم .

أقول : لقد كان المتوقع المطلوب في ضوء هذه التجارب وفي ضوء هذا التاريخ المشرق الزاهر أن يقوم اخواننا العرب في هذه البلاد التي انطلقت منها قوافل الدعاة إلى الله ، والدعاة إلى دينه الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فينقلون هذه الرسالة إلى أنحاء لا تزال بعيدة عن الاسلام ، ويفتحون للاسلام مناطق جديدة ، ولكن من المؤسف المحزن ، ومن عجائب الدهر أنه قد أصبح المطلوب المنتظر منكم اليوم أن تحافظوا على هذه

الأرض التي هي مادة الاسلام ورصيده ورأسماله ، والعالم الإسلامي كله امتداد لهذا المركز الإسلامي ، وظل لهذا الأصل ، فأنتم في الصميم ونحن والمسلمون جميعا على الهامش ، نستمد منكم القوة والثقة والاعتزاز ، والشرف والكرامة ، وبقدر قوتكم يقوى العالم الإسلامي ، وبقدر عزكم وشرفكم يعز العالم الاسلامي ويشرف ، إن كل وهن يقع هنا يتجسم ويتضخم في عواصم العالم الإسلامي ومدنه ، ولا يستطيع المسلمون أن يمشوا رافعي رؤوسهم معتزين في دلهي او كراتشي ، أو في جاكرتا أو في أي بلد إذا أصابكم ذل أو ضيم .

تعلمون جميعاً أيها السادة أن هذه المنطقة كان يحكمها الرومان قبل الفتح الإسلامي ، وكانت المسيحية هي ديانتها السائدة وديانتها الرسمية ، وكانت من أعز ممتلكات الحكومة البيزنطية وأحبها اليها ، ومن أخصب البلاد وأكثرها خيرات وطيبات ، وكانت فيها مقدساتها الدينية ، ومولد المسيح ومنشأ النصرانية ، وأرادت حكمة الله ولطفه بعباده أن ينتشر فيها الإسلام وتدخل في وصاية المسلمين وحضانتهم ، ففتحها العرب ونشروا فيها الاسلام ، وانتشرت فيها حضارتهم ولغتهم ، وأصبحت وطناً اسلامياً وعربياً ، فكان طبيعياً أن تهتم بذلك أوربا المسيحية وأن يشغل ذلك خاطرهم ،

إنني لا أعتقد أن اهتمام القوى الكبرى في أوربا بهذه المنطقة ظاهرة طارئة ، وتحول جديد في تفكيرها وتاريخها ، إنهم بالعكس ظلوا مستشرفين لهذه المنطقة ، طامحين اليها ، لم تمر بهم ساعة تناسوها فيها وصرفوا النظر عنها ، وقد كانت منهم محاولات لاسترداد هذه المنطقة والاستيلاء عليها ، وكان من ضمنها الحروب الصليبية التي يعرفهـــا الجميع ، وكانوا يستخدمون كل الطرق والوسائل لتحقيق هذا الغرض ، ولكنها تبوء بالفشل ، لأن الذين اختارهم الله للاحتفاظ بهذه البلاد والحكم عليهـا كانوا اقوياء أمناء أوفياء ، وكانوا فوق كل مساومة وأبعد من كل تنازل ومن كل استسلام ، ومن كل خذلان وخيانة ، أذكر منهم على سبيل المثال السلطان صلاح الدين الأيوبي داحر الصليبيين ، ومعيد مجد المسلمين ، وكان حكام هذه البلاد وقادة المسلمين ـ على علاتهم واختلاف نزعاتهم أمناء في قضية قدسية هذه البلاد وكرامتها ، وأقول : إن الاتراك العثمانيين كانوا غيارى على هـذه المقدسات والأماكن الاسلامية ، فقد استطاعوا أن يحرسوا هذه البلاد ويظلوا محافظين عليها طيلة خمسة قرون ، إنني لا أتصل بهم بنسب ولا بوطنية ولا بقومية ، ولا لغة ولا ثقافة ، ولكنني أقوله تقريراً للواقع وانصافاً للتاريخ ، وشهادة للحق ، فأخفقت هذه المحاولات

كلها ، ومن الشواهد التاريخية على ذلك أن الدكتور هرتزل رئيس المؤتمر اليهودي الذي يعتبره كثير من الناس « نبي الصهيونية » قابل السلطان عبد الحميد خان وطلب منه أن يسمح بإنشاء وطن قومي لليهود في ظل العرش العثماني ، ووعد في مقابل ذلك بتسديد ديون الحكومة العثمانية ـ وكانت كثيرة باهظة ـ وانشاء اسطول بحري للدولة على نفقة اليهود ، وقدم اضافة إلى ذلك أموالاً لإنعاش الدولة العثمانية ، هذا عدا الهدايا الثمينة ذات قيمة كبيرة يقدمها اليهود « للذات الهمايوني » يعني شخص السلطان عبد الحميد خان ، فكان جواب السلطان عبد الحميد خان رحمه الله على كل ذلك أن قال : ادخروا هذه الاموال لصالحكم ، أما أنا فكل أموال اليهود في العالم لا تساوي حفنة تراب في القدس الشريف ، وكان نتيجة ذلك أن اليهود أطاحوا بعرش السلطان عبد الحميد خان واضطهدوه وآذوه وهو معتقل ، وعرف الطامحون الأوربيون أنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، وكانت الدولة العثمانية على ما أصابها من ضعف ووهن صرحاً كبيراً للقوة الاسلامية ، يهابه الأجانب ، وكانت كعود[1] ينصبه الفلاح في مزرعته ويلقي عليه ثوبا فيحسبه الطائر انساناً واقفاً أو شبحا مخيفاً فلا يقربه ، وحين يسقط

---

(١) الجدار .

العود أو يطّلع غراب ذكي على أنه عود أو يراه ساقطاً على الأرض تعيث فيه الطيور وتأتي عليه . وهذه قصة هذه البلاد التي كانت تحكمها الدولة العثمانية ، تهيّبها الأعداء ، وابتعدوا عنها مهابة لهذه الدولة الحامية ، فلما انهار هذا الصرح ، وسقط هذا العود تخيف تجاسروا عليها وعاثوا فيها .

واجه الغرب بعد انسحاب الدولة العثمانية وبعد الحرب الأولى قادة وزعماء في هذه المنطقة ، قد أثرت فيهم المادية وأثرت فيهم الحضارة الغربية ، وأثرفيهم نظام التعليم الغربي الحديث ، ونخرفيهم كما ينخر السوس في الخشب فيكون أجوف لا تماسك فيه ، أوترابا تذروه الرياح ، وأصيبوا بفقد الضمير والغيرة الدينية ، والأمانة والوفاء للبلاد ، والوطنية الصادقة ، فطمح الغرب في هذه البلاد ، وعرف أنه قد جاء دور المساومة وشراء الضمائر ، والاستحواذ على هذه المنطقة العزيزة اليهم في كل زمان ، فقد خضع قادتنا للقيم المادية خضوعا لم يعرف من قبل ، وصاروا ينظرون إلى الدنيا العاجلة والحياة الفانية بغير العين التي كانوا ينظرون بها في السابق ، إن المسلمين كانوا يسمعون قول الله تعالى : « انما الحياة الدنيا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » . وقوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر

بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديد » . وكانوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة . وصاروا ينظرون إلى الدنيا ومتاعها ، وفخارها وجاهها كأنها هي الغاية القصوى ، واستولت عليهم شهوة الحكم ولو كان ذلك على حساب المبادىء والاخلاق والكرامات والأعراض والمقدسات .

إن أول معركة أيها الأخوان تقوم في ضمير الانسان وفي قلبه قبل أن تقوم في ساحة حرب أو ميدان قتال ، فإذا انتصر الانسان في هذه المعركة فالانتصار محقق في المعارك التي تقوم في الخارج ، إن معركة الضمائر تتقدم وتفوق على المعارك الحربية ، وقد انهزمنا في معركة الضمائر وأصبحت ضمائرنا معروضة للبيع والشراء ، مستعدة للمساومة والمقاولة ، فزالت كل عقبة في سبيل الطامعين والطامحين ، وأصبح الطريق مفتوحاً مكشوفاً للداخلين والسالكين ، وحينئذ وقعت هـــذه البلاد تحت أقدامهم ، يتصرفون فيها كما يشاؤون وينفذون مخططاتهم ومشاريعهم وهي لا تدافع عن نفسها ، فإنما يمنع عن الخيانة والغدر بالبـلاد والشعوب إما دين متين وهو الجدير بكل اعتماد وثقة ، وإما وطنية صادقـة ، وهي التي تمنـع

قادة الشعوب الاوربية وبعض الشعوب الشرقية عن الخيانة وبيع البلاد بثمن بخس ، وماذا يمنع سادتنا وزعماءنا عن ذلك إذا كان لا دين ولا وطنية ، لذلك نسمع كثيراً أن بعض القادة وزعماء الأحزاب سلموا أجزاء ثمينة من الوطن العربي الاسلامي ، ومناطق استراتيجية للعدو ، أو أنهم وكلاء مصالحهم وأغراضهم السياسية ، وقد يبدو للناظر أنهم أشد إخلاصاً لهـــم وحرصاً على مصالحهم من أنفسهم .

إنكم أيها السادة على أدق ثغر من ثغور الاسلام وفي آخر حصن من حصونهم وقد وصل الفيضان إلى أسوار المدينة ، وإذا تخطى هذه الأسوار فلا شيء يوقفه ، أنتم على خط الدفاع الاخير ، فإذا تخطي هذا الخط فالعالم الاسلامي كله مفتوح مكشوف ، وأنظار المسلمين كلهم عليكم ، وأنتم مقياس قوتهم وشرفهم ، ومصدر عزهم وكرامتهم ، وانني لا أقول لكم اتقوا الله في أنفسكم وبلادكم وفي شرفكم وكراماتكم ، بل أقول : اتقوا الله في أعراض المسلمين وكراماتهم ، وفي عز الاسلام وكرامتـه . اتقوا الله في الشعوب الاسلامية التي تنظر اليكم كمثال للمسلم الأول وحامل رسالة الاسـلام الاولى ، اتقـوا الله في النسمات والأرواح التي لا تزال في أصلاب الآباء وأرحـام الامهـات ، التي لم تعرفكم ولم تعرفوها ، وهي إما تحمد الله وتشكركم على حماية المقدسات

والحرمات ، وتهيئة أسباب الشرف والكرامة ، والاعتزاز بالماضي والافتخار بالآباء ، وإما تشكوكم الى الله من تضييع هذه المقدسات ، وتلويث ماضيها وتوريطها في العار والذل .

إن هذا الاجتماع وهذه الفرصة الكريمة قد أثارت في قلبي شجناً وأحزاناً ونكأت الجروح ، فإنني أعتبر قضية الاسلام والمسلمين قضية واحدة ، وأعتبر البلد الاسلامي بلداً واحـــداً ، وأرى كل حادث يفجع المسلمين وكل شبر من العـــالم الاسلامي يتنازلون عنه رزيئة وفاجعة ، وأرى قضية فلسطين تتمثل في كل مكان ، فأقف عندها وقفة خاشع دامع ، وأنشد قول الشاعر العربي متمم بن نويرة :

لقد لامني عند القبور على البـــكا
رفيقي لتدراف الدموع الســـوافك
فقال : أتبـــكي كـــل قبر رأيتـــه
لقبر ثـوى بين اللـــوى فالدكادك
فقلت له ، إن الشـــجا يبعث الشجـــا
فدعني فهذا كله قبر مـــالك

وقام بعدي الأستاذ يوسف العظم فألقى كلمة بليغة قوية في الترحيب بالوفد والشكر على زيارته ، تعرض فيها بما يقاسيه

المسلمون بصفة عامة ، وهذا البلد بصفة خاصة من محنة قاسية ، وأوضاع شاذة ، وصراع فكري ونفسي .

في دار المؤتمر الاسلامي

زرنا في الساعة السابعة مساءً المؤتمر الاسلامي الذي يرأسه الأستاذ كامل الشريف ، وتعرفنا على مجموعة طيبة من أعضاء المؤتمر والمتصلين به .

تكريم من معالي الوزير

أقام معالي وزير الأوقاف حفلة عشاء على شرف الوفد الضيف في مجمع النقابات ، حضرها لفيف من كبار الوجهاء والاساتذة ، كان من جملتهم صديقنا القديم والعالم الجليل الشيخ مصطفى أحمد الزرقا ، وهو يشتغل الآن مدرساً في كلية الشريعة في عمان ، وعاكف على وضع قانون اسلامي مدني ، من المؤمل أن يطبق في المملكة ويكون قانونها المدني العام .

لقـــاءات

وفي يوم الخميس ١٦ — ٨ — ١٩٧٣ - أكرمنا بالزيارة واللقاء عدد من كبار العلماء والمثقفين ، منهم الأستاذ تيسير الظبيان رئيس رابطة العلوم الاسلامية ، وسعادة الشيخ محمد أمين الشنقيطي ، والمجاهد الكردي الشيخ أمين بروسك ، وقـد قابلناه في زيارتنا

الاولى سنة ١٩٥١ م وحفظنا له بيتا أبرق به إلى الدكتور مصدق رئيس وزراء إيران يومئذ الذي استرعى انتباه العالم بتأميمه للبترول في إيران ومواقفه البطولية :

لقفت عصاك عصيهم فتصالحـــوا
لاسحر بعد اليوم ، أنت مصدق

ولم يزل يمتعنا بحديثه ، وحكايات كفاحه وأبياته ، ولم يزل يتردد إلى الوفد مدة اقامته في عمان .

محاضرة في السلط

كان اليوم موعد محاضرة لكاتب هذه السطور في السلط ، فتوجهنا في الساعة الرابعة في العصر ، وقد أيقظت فينا مناظر الجبال والاودية ، وانعطاف الطرق ووعورة المسالك ، الشعور بعظمة العرب الفاتحين لهذه البلاد ، والحاملين لمشعل الاسلام ، وأوحت إلي بأن يكون حديثي اليوم عن العرب الأولين الذين أكرمهم الله برسالة الاسلام ، فنفخت فيهم هـذه الرسالة روحاً جديدة ، وحياة جديدة ، ونقلتهم من حياة محـدودة مفصولة عن العالم ومن سجن مظلم ضيق إلى حياة أوسع ومجال أفسح ، وقارنت بين الجاهلية والاسلام ، وذكرت ما كان للاسلام من فضل في بعث العرب

وبعث العالم من جديد ، وكان الحفل مشهوداً والمكان غاصاً بالمجتمعين ، ولقيت الكلمة حسن الاستجابة وحسن القبول .

في دار الأستاذ كامل الشريف

أقام سعادة السفير السيد كامل الشريف حفلة عشاء في داره على شرف الوفد الضيف

بين عمان واربد

كان يوم الجمعة ١٧ / ٨ / ١٩٧٣ م مخصصاً لزيارة « اربد » وهو البلد الاسلامي الرئيسي بعد عمان في الاردن ، عرف بوضوح السمة الاسلامية وقوة العاطفة والغيرة الدينية ، وهو يقع على الحدود الشمالية من الاردن ، وكانت رحلة تاريخية أثرية غنية بالمشاهد والمناظر ، والآثار « والعادات » ، ومررنا في طريقنا بعد خروجنا من عمان بسهل يسمى البقعة ، وزرنا هناك مخيماً من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، وهو عبارة عن بيوت حقيرة قامت على جدران رقيقة من قرميد أو صفائح من الاسمنت ، وفي القرية أسواق ودكاكين . ويسودها جو من البؤس والفقر ، وبجوار هذه القرية مدرسة تبشيرية لتعليم الأطفال .

ونزلنا عند مدينة «جرش» وهناك الآثار الرومانية العتيقة الباقية ، الناطقة بما بلغته المدنية في عهد الرومان من الزهو والأناقة والفن

المعاري ، والولوع بالفنون الرياضية ، ومظاهر الفتوة حتى بلغت حد القسوة والوحشية ، والتفرج والتسلي بتعذيب الإنسان واهانة انسانيته ، ومناظر الاحتضار مما حدث عنه تاريخ الأخلاق وتاريخ المدنية في أوربا ، ولا يزال مدرج الألعاب الرياضية آثار ظاهرة ومقاعد مرصوفة وأعمدة شامخة ، ومن المدينة طرق مرصوفة تؤدي إلى الملعب المدرج ، وشوارع مبلطة تنبيء عن عناية بالنظام وذوق رفيع بالهندسة .

وبعد ماخلفناجرش وراءنا استقبلنا سهل آخر ، وفيه مخيم اللاجئين الفلسطينيين يسمى : « الشوف » ، ومررنا قبل أن نصل إلى اربد بمخيم آخر يسمى بمخيمات الحسن .

ارتسامات الحدود الشمالية

تركنا « اربد » بجانب وواصلنا سيرنا إلى الحدود الشمالية حتى وصلنا إلى المنطقة الجبلية ، ووقفنا في قرية تسمى « أم القيس » وهنا استقبلتنا مرتفعات « الجولان » التي دوى اسمها في العالم في الأيام الأخيرة لأهميتها الاستراتيجية ، وما بيننا وبينها إلا واد عميق نحن واقفون على رأسه ، وفي هذا الوادي يجري نهر اليرموك منعطفاً ملتوياً كأنه حية تلتوي وتنساب ، واستعرضنا قصة اليرموك ، وثارت الأحزان وهاجت الذكريات ، وتنكأت الجروح ، وأنشدنا بيتي الشاعر الأندلسي صالح بن شريف الرندي :

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
مثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان في القلب اسلام وايمان

وتقع في هذا الوادي قريتان عامرتان إحداهما على جنوب النهر والأخرى على شماله ، وكانت لسوريا سيطرة وحكم في الجهة الشمالية من النهر ومن مرتفعات الجولان إلى مسافة بعيدة ، وكان الاردن ولا يزال يحكم الجهة الجنوبية ، وزال الحكم السوري من المنطقة الشمالية في سنة ١٩٦٧ م واستولت اسرائيل على الجولان .

ولما شاهدنا مرتفعات الجولان بعيوننا عرفنا من الحقيقة والواقع ما لم نكن نستطيع أن نفهمه ولو قرأنا خمسين كتاباً ، إننا وقفنا مشدوهين أمام هذه التحصينات الطبيعية التي أكرم الله بها بلاد الشام وحصنها تحصيناً لا يتطرق بفضلها وهن إلى هذه البلاد ، التي ظهرت فيها العناية الالهية من طرق شتى ، ولا يدخلها عدو من هذا الجانب إلا إذا جحد أبناؤها بهذه النعمة ، وهانت عليهم هذه الأرض التي تدر لبنا وعسلاً ، ومثلت دوراً رائعاً بناءً في الدعوة الاسلامية والفتح الاسلامي والحضارة الاسلامية ، وهانت عليهم ذممهم وأعراضهم ، إنها قلعة تعطى ولا تؤخذ ، وتسلم خيانة ولا تنزع عنوة ، وهي الآن في يد اسرائيل ، وتستطيع مدافعها أن ترسل قنابلها إلى اربد في جانب ، وإلى دمشق في جانب آخر .

وفي شمال الجولان بحيرة طبرية وعلى ساحلها المدينة الاسرائيلية ، المعروفة بطبرية ، وهي تبدو واضحة جلية للواقف على قلل أم القيس ، ومن شاطىء نهر اليرموك الواقع في المنطقة الاردنية يستطيع الناظر أن يرى المنطقة السورية ، التي استولت عليها اسرائيل ، وهي لا تبعد عنها الا بضعة كيلو مترات ، وفيها تقوم القرية المعروفة السورية « الحمة » مع مئات مساجدها الخالية ، وبيوتها الخاوية ، وقد أنشأت اسرائيل في تلك الجهة شوارعاً وطرقاً كما اقتضت الضرورة .

رجعنا محزونين بهذه الزيارة وأدركنا صلاة الجمعة في أحد جوامع المدينة الكبرى ، وقد خطب للجمعة خطيب كان بارعاً في خطبته ، ثم تغدينا في بيت أحد أعيان البلد ، واسترحنا قليلاً ، وصلينا العصر ، وخرجنا إلى قاعدة المحاضرات وهي غاصة بالمجتمعين ، وفيهم عـــدد كبير من السيدات المثقفات ، وتلقانا الحاضرون بتحيات اسلامية ، وهتـافات حماسية ، وقلوب متلهفة دلت على روح البلد الاسلامية .

محاضرتي في إربد « نظرات الى الاسلام »

وكان موضوع المحاضرة « نظرات إلى الاسـلام » ، وقد ذكرت أنواعاً من النظرات الـــتي ينظر بها طبقات مختلفة من المسلمين إلى الاسلام وقيمته ، ودوره ومستقبله ، فمنهم من ينظر

إلى الاسلام كدين ونظام لا محل لهما في هذا العصر « العلمي الذري » ، وأحسنهم من يعتقد أنه دين قد أدى رسالته ، وقام بدوره الاصلاحي في دنيا محدودة ، وعصر متخلف ، فأزال بعض العيوب الاجتماعية ، وحارب بعض العقائد الخرافية ، وأدخل بعض اصلاحات طيبة ، وكان لا يخلو من الفائدة في عصر لم ينتشر فيه العلم ، ولم تتقدم فيه المدنية ، ولم تكتشف فيه الوسائل الحديثة ، فمنهم من يقول متسامحاً متنازلاً « كثّر خيره » وقد ساهم في التقدم بالبشرية ، وأسدى معروفاً ، ولكنه الآن أشبه ببندقية فارغة قد أفرغت شحنتها وأطلقت رصاصتها ، ومن قبيل إضاعة الوقت وإضاعة القوة أن نجربه في هذا العصر الذي بلغ القمة في المدنية والصناعة ، وفي العلم والسياسة والحكمة ، وهو عصر « الذرة » .

ونقشت هذه النظرة الخاطئة التي لا تنصف الاسلام ولا تفهمه ، ولا تفهم طبيعة هذا العصر وما يعاني من مشكلات. وأزمات لا حل لها ولا مفتاح عند قادة الفكر وزعماء العصر ، ولا يعرف الدور الذي يستطيع الاسلام أن يمثله في إنقاذ الانسانية ، وحل المشكلات وإعادة الأمور إلى نصابها .

قلت : وفيما يختص بالعرب فقد أخفقت جميع تجاربهم

للنظم والفلسفات التي آمنت بها الشعوب المعاصرة ، وجربتها ، ونجحت بعض النجاح ، أما العرب فلم يفلحوا ولم تستقم أمورهم حين تبنوا الحركة القومية أو النظام الاشتراكي ، أو الفلسفة الشيوعية ، وكانوا أسوأ حالاً من قبل ، وقد دل ذلك على أن الله ربط مصيرهم بمصير الاسلام وعقد بينهما صلة خالدة لا تنقطع ولا تنفصم ، ويدل على أنهم أمة مختارة ذات الرسالة المعينة ، والأهداف المعينة ، وأنهم قد اختيروا لحمل رسالة الاسلام والمحافظة عليها والاحتفاظ بها ، والغيرة عليها ، وإيثارها على كل رسالة ، وأن مثلهم في ذلك كمثل التلميذ الحبيب المدلل الذي قد هيىء لأن يكون معلماً حاذقاً ، وعالماً كبيراً كان فيه إمارات النبوغ والعبقرية ، فتشتد به عناية المعلم فلا يسامح في الإهمال والتغيب عن الكتّاب أو المدرسة ، ولا يترك حبله على غاربه ، ولا يتسامح معه ويغض الطرف عنه كما يتسامح عن التلاميذ الأغبياء ، والشباب الغرباء ، ولقطاء الطريق ، وشذاذ الآفاق ، بل يعـــاقبه إذا أخطأ ، ويطلبه إذا غاب ، وينبهه إذا غفل .

وقد دلت الحوادث الأخيرة ، وما تعيش فيه الأقطـــار العربية من قلق وذعر واضطراب ، أنه لا منجأ لها إلا الاسلام وإخلاص الدين لله ، ونبذ النفاق والحياة اللاهية الســـاهية التي

تكثر فيها المهازل والملاعب والرخاوة والرقة ، والاستهتار والمجون ، والإيمان بفلسفة اللذة والمنفعة ، وأن تعيش كما تعيش الشعوب والبلاد في حالة الطوارىء وعلى الحدود والثغور ، حياة تقوم على التقشف والاقتصاد ، والجهد ، والتهيؤ والاستعداد ، وإعداد العدة والعتاد لتحيى حياة شريفة كريمة ، وتستحق النصر من الله .

استقبلت الكلمة بالتأييد والتحسين وسجلت . وخرجنا من اربد ونحن نسمع الكلمة المسجلة في الأسواق والبيوت .

وفاة القائد عبد الله التل وتعزية أسرته

فوجئنا ونحن ندخل عمان بنبأ وفاة القائد الاسلامي الكبير المجاهد الأستاذ عبد الله التل ، وقد قابلته في ١٩٥١ - في بيت الأستاذ محمد علي الطاهر ، وكنا نسمع أخبار جهاده في ميدان فلسطين وحسن بلائه واستقامته في قضية فلسطين ، وهو كاتب مؤلف أيضاً ، وحزنا لهذا النبأ ، والقائد عبد الله التل من أبناء اربد ، ورأينا من حقه علينا وعلى كل مسلم يقدر جهاده ووفاءه لمبدئه والاسلام أن نعزي أسرة الفقيد ، ونجلس مع اخوته ساعة ، فزرناهم في بيتهم وعزيناهم في فقيدهم الكبير ، وتحدثنا عن مواقفه ، وأبدينا مشاعرنا نحوها .

وسائل الاضعاف المعنوي والخلقي

رجعنا إلى عمان ونحن نمر كل مرة ذهاباً وإياباً بمدينة الملاهي

التي تقوم في احدى ضواحي العاصمة ، ونعجب لوجودها في هذا الظرف القاسي الذي أخذ فيه بخناق الشعب ، ويتوقع حالة حرب في كل وقت ، وسمعنا أن في المدينة سبعة أحواض للسباحة والاستحمام أو « مسابح » (Swiming pools) يختلط فيها الفتيان بالفتيات ، وكان أحد هذه الأحواض متصلاً بفندق عمان ، الذي كنا نازلين فيه ، وفي المدينة عدد كبير من دور السينما ، ومراكز التسلية الحرة ، والبلد واقف على فوهة بركان لا يدري أحد متى ينفجر ، وهذا وضع البلد السياسي والحربي والديني .

وقد علمنا أن القوة الخارجية الأجنبية تغذي هذا الوضع المنافي لروح الاسلام الجدية المتقشفة ، وتشجع على استمراره وتوسعه ، وقد اقتنعنا بدراسة أوضاع الأقطار الاسلامية ، وما تجتاحها من موجات التحلل والانهيار الخلقي ، أن لأمريكا قسطاً كبيراً في اتجاه هذه الأقطار إلى ما يجعلها فريسة لهذه الغزوات الفكرية والخلقية ، وتلجئها إلى أن تعيش عيالاً على امريكا متطفلة على فتاة مائدتها ، وأن تبقى منافسة ضعيفة مهلهلة لاسرائيل الفتاة الدافقة بالحيوية والرجولة والنشاط ، وأن للفاتيكان كذلك مصالح في بقاء هذه الأوضاع واستفحالها .

في كهف أهل الكهف

زرنا يوم السبت ١٨ / ٨ / ١٩٧٣ م مغارة أهل الكهف في

إحدى ضواحي عمان في قيادة العالم الأثري الكبير الأستاذ رفيق وفا الدجاني المساعد الفني لمدير الآثار العامة في الاردن ، وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه هو المكان الذي آوى اليه أصحاب الكهف الذين جاءت قصتهم في سورة الكهف ، وفي المصادر المسيحية ، وكتب التاريخ والأدب ، ولما كنت عالجت الموضوع في كتابي « الصراع بين الايمان والمادية » أو « تأملات في سورة الكهف » (١) ، ورجحت ما ذهب اليه الاكثرون أن هذه القصة وقعت في مدينة « أفسوس » أو « أفيسس » وهي إحدى المدن الآيونية الاثني عشرة من الأناطول على الجانب الجنوبي من نهر قسيطرة ، على مسافة ٦٠ (كم) من أزمير في آسيا الصغرى (٢) ، وهي الآن في تركيا ، ويسمى : « طرسوس » . وأن كهفهم الذي آووا اليه كان في نواحي هـــذا البلد في جبل قريب كان يسمى بـ (Anchilis) والأستاذ يلح على أن المكان هو كهف الرجيب الذي كنا نزوره ذلك اليوم ، وهو يبرهن على ذلك بدلائل وآيات لها قيمتها العلمية ، والأثرية الكبيرة ، وقد استقصاها في كتابه « اكتشاف كهف أهل الكهف » وقد أهدى الينا نسخة منه ، وطاف بنا الأستاذ الفاضل على هذه المغارة ووقف بنا على الآثار والشواهد التي تدل على أنه هو المكان.

---

(١) طبع دار القلم الكويتية ، سنة ١٣٩١ هـ .

(٢) راجع الكتاب ص : ٢٦ .

الذي ينطبق عليه ما جاء في وصفه في القرآن ، وقد جعلنا بحثه العلمي واطلاعه الواسع على أن استعرض ما كتبته وأستأنف النظر فيه ، وأستفيد بمعلوماته ، والحق قديم ، والعلم دائما في حاجة إلى تجديد وزيادة ، وكهف الرجيب يقع على مسافة ٨ كم جنوب شرقي عمان ، ويقول الأستاذ أنه ذهب إلى ذلك المقدسي وياقوت والسائح الهروي والبيروني وغيرهم ، والله أعلم وعلمه أحكم ، ولا شك أن الأستاذ ثروة علمية غالية للمملكة ، يجب أن تقدر وتستثمر ، وهو من كبار المخلصين لفنه ، ومن كبار علماء الآثار في الشرق العربي .

تغدينا في ضيافة النائب المحترم الشيخ عبد الباقي جمو نائب الزرقاء في المجلس النيابي في بيته العامر بالزرقاء ، وقد حضر الغداء عدد كبير من العلماء وأعيان البلد وكبار الأساتذة .

في الندوة العلمية

كان اليوم يوم ندوة علمية كانت أفضل ثمار هذه الجولة ، وقد انعقدت في ٨/٣٠ الساعة الخامسة مساء في قاعة الكلية العلمية الاسلامية ، حضرتها نخبة من الأساتذة الكبار والمثقفين وفضلاء البلد ، والمعنيين بالثقافة الاسلامية . وأدارها الأستاذ محمد ابراهيم شقرة بلباقة ومقدرة ، وشارك كاتب هذه السطور ، والأستاذ أحمد محمد جمال ، والأستاذ كامل الشريف ، وكان العنوان : دور الشباب المسلم في المجتمعات

المعاصرة » والى القارىء الكريم الأسئلة التي وجهها المدير الفاضل ، ونص ما أجاب به كاتب هذه السطور .

أسباب حيرة الشباب وعلاجها

وقد قدم الأستاذ محمد ابراهيم شقرة للندوة مقدمة قيمة صور فيها واقع الشباب ووقوعهم فريسة لحيرة تورطوا فيها ، وصور العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه تصويراً دقيقاً شاملاً ، تعرض فيه للطاقات والفلسفات المتنافسة التي تتوزعه وتتحكم فيه ، ثم وجه السؤال الأول وهو :

« أستاذنا ، العالم الاسلامي بأسره اليوم يعيش حيرة مردية ، عقيدة وتصوراً وسلوكاً ، وأبرز ما تكون هذه الحيرة في الشباب المسلم في بلادنا خاصة ، فنريد أن نعرف أولاً ، ما هي الأسباب التي خلقت هذه الحيرة أو ساعدت على وجودها ؟

وكان جوابي على ذلك كما يلي منقولاً من الشريط المسجل بعد تنقيح وتهذيب .

يسعدني جداً أن أكون موضع ثقة في هذه الندوة العلمية ، وأن يوجه إلي والى زملائي هذا السؤال الذي هو في صميم الواقع ، وهو تصوير واقعي للواقع الذي نعيش فيه .

إني أصارحكم - أيها السادة - اني كنت مستغرباً جداً إذا لم يكن الشباب الاسلامي في حيرة كما تجدونه وتشعرون به ، إن

الشجرة لا تلام على ثمرتها ، ان في إمكان البستاني أن لا يغرس شجرة من الشجرات ولكن ليس من المعقول وليس من الطبيعي أنه إذا غرس شجرة معينة ، ثم سهر عليها ، وغذاها ونماها ، وسقاها وأحيى ليالي متوالية ، ووقف في وهج الشمس ، وفي البرد القارس ليحرس هـــذه الشجرة ، ولتؤتي أكلها بعد حين ، ثم إذا آتت أكلها الطبيعية لامها ونزل عليها غضباً وأنكر منها هذه الشجرة ، هذا شيء غير معقول وغير طبيعي ، لأن طبيعة الشجرة هي طبيعة الشجرة منذ خلق الله هذا الكون ، ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون هي ستعطي ثمر الزيتون وشجرة الرمان ستعطي الرمان ، وهكذا .

ان من أعظم الأسباب في هذه الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة وشباب العالم بصفة عامة . هو التناقض في التوجيه والاعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقينا وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذي سلط عليهم ومنوا به هو السر في هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت اسلامي في أسرة اسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الاسلام ، وقرأ التاريخ الاسلامي — إذا أكرمه الله بذلك وتسنت له هذه الفرصة الكريمة — وكان سعيداً بوجوده في بيئة واعية دينية ، ثم

سيق ـ ومعذرتي الى اختيار هذه الكلمة ، لأنه لايزال في سن مبكرة وليس له خيار - إلى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة ـ الذين يجلهم ، لأنهم أصحاب اختصاص وأصحاب زعـــامة في كثير من العلوم ـ كل ما ينقض ما أبرمته البيئة ، وكل ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الاسلاميـــة . يسمع ويرى ماينفي كل ذلك ، أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقض عجيب وفي صراع فكري عنيف ، وهذا الصراع الفكري يدوم معه الى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنها معجزة حقاً في هذه البيئة التي نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة ، إنه قد يواجه الصراع في ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وان طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنه يعالجه في المسجد ، ويعالجه في المدرسة ، ويعالجه في البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، هذا الصراع المرير الهائل العميق يتلقى من مؤسسة « الاعلام » ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذي جاء حديثاً ، يسمعون إذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية الباقية من آثار التربية القديمة ، وتحدث فيهم ثورة فكرية وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي « صاحبة الجلالة » في نظر كثير من الناس تقدم اليهم في أول النهار الغداء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسر الصُّفْرا

على تعبير إخواننا السوريين ، وقبل أن يتلو شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظرهم صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للايمان والثقة ، فيتلقون هذا في رغبة ونهامة ، وفي شوق واستجابة ، انه يقع في أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم في الدين ، يشككهم في التاريخ الاسلامي ، يشككهم في مصادر الشريعة الاسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي يحملونها، يشككهم في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهـــذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادىء واغراءات ومن نظريات علميـة ، ويقعون من كل ذلك في حيرة لاتعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يوقع الانسان — وان كان ناضج الفكرة ، مختمر العقـــل حصيف الرأي — في حيرة ، فكيف بالشباب الغض الناعم ، وكيف لهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد ، كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة .

إن مثل ذلك — أيها الاخوان السادة — كمثل عجلة أو مركبة ركب فيها فرس في الأمام وركب فيها فرس في الوراء وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون ركبها

في حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً .

إن الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى ، التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، وهذه غرست في قلوب الناشئة وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كل متواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التي أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف أو تصفيق حاد ، ان هذه كلها غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسي والسر في حيرة الشباب .

ثم وجه الأستاذ سؤالاً ثانياً وهو « ما هو العلاج الصحيح لهذه الحيرة التي يقع فيها الشباب » ؟ وكان جوابي على ذلك : « انني أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو انقاذ الشباب من هذه الحيرة المزرية هي توحيد نظام التعليم ، ولست في حاجة الى شرح هذه النقطة ، إن المعسكر التعليمي موزع بين قسمين ، المعسكر الديني ، والمعسكر اللاديني أو العلماني ، أو المعسكر القديم ، والمعسكر الجديد ، وهذه الثنوية أو الازدواجية في التعليم هو السبب الأكبر

في خلق هـذه الحيرة التي يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها إلى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هو تنسيق غايات التعليم ومـواد التعليم ، لا أعني بالتنسيق التنسيق بين تعليم قطر وبين تعليم قطر آخر ، انما أعني به التنسيق في تعليم القطر ، فهنالك كما قلت تناقض في المواد الدراسية ، فالذي يبنيه تعليم يهدمه تعليم آخر ، والعلوم التي لم تكن لها صلة بالعقائد أصبح لها اتصال بالعقائد ، رما أصبح التعليم مجرداً ، إن اعتقاد أن من التعليم ما هو محايد ومـ هو نزيه كل النزاهة ، وما هو بعيد كل البعد عن التأثير في العقيدة قد أصبح نظرية قديمة ولا نصيب لها من الصحة ، فالخطوة الأولى الخطوة الثورية الجذرية هي إحداث تنسيق في نظام التعليم . فلا قديم ولا جديد ولا ديني بالمعنى اللاهوتي ، وبالمعنى الكهنوتي المسيحي الأوروبي ، لا بالمعنى الاسلامي الصحيح ، فلا تعليم لاهوتي ولا تعليم دنيوي أو زمني أو علماني ، بل التعليم وحدة لا تتجزأ ، إنما ينقسم بين غايات ووسائل ولا بد أن تكون بين هذه الوسائل وحدة تربطها وتخضعها للغاية الأساسية .

ثم إزالة هذا التناقض الذي يعبر عنه لسان الشريعة ، ولسان القرآن بكلمة : « النفاق » إن هذا يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب ، يعني إحداث نظـام تعليمي كوحـدة متكاملة متناسقة ،

وهذا يحتاج إلى ثورة عارمة ، الى ثورة جريئة ودقيقة وشاملة ، ويحتاج طبعاً الى أناس عندهم الاصالة الفكرية ، لا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب . انه يحتاج الى الاجتهاد في المواد الدراسية ، وهذا يحتاج طبعاً إلى مشاريع عملاقة ، وإلى جهود كبيرة واسعة النطاق عميقة الجذور ، ويحتاج كذلك إلى أن تتبناها الحكومات الاسلامية والمجامع الاسلامية الكبيرة ، فإذا نجحنا في تطوير نظام التعليم تطويراً جديداً ، وإذا نجحنا في إزالة النفاق عن هذا المجتمع الذي نعيش فيه ، اذن من المؤمل أن ننقذ الشباب من هذه الحيرة المردية .

ثم وجه الأستاذ سؤالاً ثالثاً وهو : « لعل أستاذنا أبا الحسن يبين لنا الدور الايجابي الذي ينبغي للدولة أن تقدمه لهذه المؤسسات؛ حتى يتم التناسق الصحيح بين هذه المؤسسات كلها » .

وكان جوابي على ذلك :

في الحقيقة أن دور الدولة عظيم وحاسم في ازالة هذه العوامل الهدامة وفي رد المجتمع إلى حياة سليمة لا صراع فيها ولا حيرة ، ولكن هذا يتوقف على أن تكون عند الدولة فكرة واضحة ـ لست أعني دولة دون دولة ، ولا أعرّض بدولة ، انما هو موضوع علمي ـ فكرة واضحة عن الدين الذي تؤمن به وتدين ، وعن الأهداف التي تتبناها وتريد أن تعيش هذه الأهداف ، ولاتعيش فقط بل تنمو

وتزدهر ، وإذا آثرنا التعبير الاسلامي الديني ، قلنا : « الايمان والعقيدة » ايمان راسخ ، وعقيدة جازمة بفضل الاسلام أو بفضل الأهداف التي تدعو اليها وتعيش لها ، وأن تكون متمسكة بمبدأ الهداية لا الجباية [1] .

ثم الاخلاص والعزم الصادق والتضحية التي لا غنى عنها ، هذه كلها عوامل لوجود بيئة مناسبة أو الاجواء المناسبة لنمو الشخصية الاسلامية واكمالها ووصولها إلى الغاية المطلوبة .

ثم ختم الندوة بالسؤال الأخير وهو : ونترك في الختام التعليق على هذه الخطوة الأخيرة للأستاذ أبي الحسن صاحب التجارب الكثيرة التي مر بها في دور الشباب والكهولة ، وهو الآن في دور الشيخوخة ، ولا بد أخيراً من نصيحة فيها إلى الشباب بارك الله فيه » .

قلت : لست متشائماً ولا يائساً من دور الشباب ومن صلاحيتهم ومن حرصهم على أن يعملوا شيئاً في مجال الدعوة الاسلامية ، والفكرة الاسلامية ، وفي أن يمثلوا دورهم كشباب مسلم في هذا

---

(١) وتمثل هذه الفكرة خير تمثيل جملة مأثورة عن سيدنا عمر ابن عبد العزيز يخاطب بها أحد عماله الذي شكا إليه انتشار الاسلام والنقص في الجزية . « ويحك ! إن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما بعث هادياً ولم يبعث جابياً » .

لمعترك الفكري الذي لم يشاهد تاريخ الانسانية معتركاً فكرياً مثله ، إن الشباب طبقات وأقسام كثيرة وليس هناك طراز واحد من الشباب ، إننا شاهدنا عدداً كبيراً من الشباب يتلهفون شوقاً الى أن يلعبوا دورهم ، وهم في استعداد تام وعندهم التألم الشديد بما واقع حولهم ، ان هؤلاء الشباب هم أمل اليوم وجيل المستقبل ، وفي الحقيقة ان الشباب هم الذين يستطيعون أن يحولوا هذا التيار ، وعندي من المعلومات ما تؤكد لي أن في الشباب مجالاً واسعاً للعمل الاسلامي والفكر الاسلامي ، وعندهم قلق والقلق أول خطوات النمو والتقدم والتحسن ، إن الشباب قلقون اليوم ، وإن الحضارة الغربية قد عجزت عن تسليتهم وارضائهم ، وإن هنالك فراغاً لم يملأ ولا يمكن أن يملأ كما تفضل الأستاذ كامل الشريف ، ان هنالك ديناً واحداً يستطيع أن يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته أوروبا بين القلب والروح والجسم والمادة ، وهذا من خصائص الحضارة الغربية التي لها تجارب خاصة ، ومراحل معينة مرت في رحلتها الطويلة ، ولكن ـ مع الأسف الشديد ومن سوء حظ الانسانية ـ لما آلت القيادة إلى أوروبا أثرت هذه التجارب في تفكير الأمم التي كانت في عزلة عن هذه التجارب ، تجارب مجتمع خاص ، كانت لدينه طبيعة خاصة ، وقد حدث فيه صراع بين الكنيسة والحكم ، وصراع بين تعليم

الدين ، وصراع بين الكهنوت والعقل السليم والعلم الحديث ، هذا كله من تجارب الغرب ، وكان الشرق غنياً عن هذه التجارب ، لم يكن منها في عير ولا نفير ، ولكن فرض الغرب وفرضت الثقافة الغربية هذه التجارب وانطباعات هذه التجارب ، ومردود هذه التجارب ، وقيمة هذه التجارب ، فنظرية « الدين قضية شخصية » و « الفصل بين الدين والسياسة » ، هذه كلها تجارب الامم الاوروبية لظروف خاصة ، وأجواء خاصة وللطبيعة المسيحية التي دانت بها أوروبا ، ولكنها قد أشركت فيها الشعوب الشرقية من غير سبب ومن غير مبرر ، فهذا الفراغ موجود في الشباب ، والشباب بدأوا يشعرون بهذا الفراغ ، إن ما نشاهده من انحرافات وشذوذ ومن مبالغات ومن تطرف في حياة الشباب ، كل ذلك شعور لهذا الفراغ ، وإنني أستطيع أن أقول في ضوء تجاربي ومشاهداتي في الشرق وفي آسيا : إن الشباب فيهم قابلية واستعداد كبير ليكونوا قادة حركة جديدة ، وليخوضوا هذه المعركة .

ولكننا نعيش في عزلة عن الشباب وعندنا كثير من سوء تفاهم ، ومن اساءة ظن ومن جهل للوضع الذي يعيش فيه الشباب ، فإذا ملئت هذه الفجوة بين الكهول والشباب ، وبين الدعاة إلى الدين وبين الشباب الجامعيين والشباب المثقفين بالثقافة الغربية ، يمكن أن نجرّ عدداً كبيراً ونجعلهم مقتنعين مستجيبين لهذه الدعوة،

متحمسين لها ، ولكن ذلك يحتاج الى مخططات دقيقة عميقة ، مخططات علمية مدروسة ، يحتاج ذلك إلى مكتبة جديدة ، يحتاج ذلك إلى أسلوب جديد في الحديث مع الشباب ، يحتاج ذلك إلى الحكمة التي أشار اليها القرآن بقوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » يحتاج ذلك إلى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة ، وأن تكون عندنا تلك المقدرة البيانية والطلاوة الأدبية ، وحلاوة التعبير التي لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام وأن تنفذ في عقول الشباب وفي نفوسهم عن غير هذا الطريق .

إننا نرى — مع الأسف الشديد — أن كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلع من آداب اللغة ، والحصول على تلك المقدرة البيانية والاسلوب البليغ الذي يدخل إلى قرارة النفوس من فضول واجبات العلماء وعلى هامشها ، وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم وانحرافاً عن جادتهم ، مع أننا نرى أن القرآن نوه بهذه الحقيقة ، وكلنا نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء ، ولكنه أنزل كتابه في أسلوب معجز ، وفي لسان عربي مبين ، ولم ينزل في لسان عربي مبين فحسب ، بل نوه بهذه الناحية في غير موضع من مواضع القرآن ، فقال : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فمعنى

ذلك أن ناحية اللفظ وناحية الاسلوب وناحية البلاغة ناحية مهمة ، وإذا رجعنا إلى تاريخ الاصلاح والتجديد رأينا أن الذين كانوا على قمة الاخلاص وعلى ذروة الانقطاع إلى الله وإلى الربانية الصادقة ، كانوا لا يستهينون بهذه الناحية ، إنما كانوا يهتمون بها كل الاهتمام ، ولا نضرب المثل بالنبي ﷺ في هذه المناسبة لأنه ﷺ أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء من غير شك وهذا معروف عند الجميع ، ولكني أضرب المثل بسيدنا علي بن أبي طالب ، إنه كان في قمة من البلاغة ، ونواصل سيرنا إلى آخر القرون الاسلامية ، فنرى أن من تبوأ القيادة أو الزعامة في الدعوة الاسلامية كانوا على جانب عظيم من البلاغة ومن فهم نفسية المخاطبين ، إنني في الحقيقة أوخذ بالحيرة إذا قرأت خطب سيدنا عبد القادر الكيلاني ، فأنا أرى أن هذا الرجل الذي اشتهر في العالم كله ، وفي جميع العصور بزهده وبقناعته ، وربانيته ، وبإشراقه وتبتله ، إنه يخاطب الجيل المعاصر والمجتمع الذي كان يعيش فيه في بغداد البلد الذي ولد فيه الحريري وولد فيه ابن الجوزي ، وولد فيه الصـــابي وولد فيه هؤلاء الشعراء وتغنى فيه البحتري ، والشريف الرضـــي ، والمتنبي ، وأبو تمام ، والمعري .

كانت بغداد عاصمة عالم الاسلام ومركز الخلافة العباسية ، كانت محطة كل عبقري من جميع الأصناف ، فسيدنا عبد القادر

الكيلاني نراه يخاطب الجيل المعاصر في بغداد بلسان يحلق في البلاغة ، ويخاطبهم بأسلوب ساحر ، بأسلوب يبلغ إلى الأعماق ، بأسلوب لا تزال له الصولة إلى الآن ، وإذا قرأنا خطبه التي دونها المدونون ، وحرصوا على نقل اللفظ الصحيح لاعتقادهم أن ما يصدر من القلب يدخل في القلب ، وهذا كان من دواعي الحرص على نقل الكلام بالحرف .

وهذا كله يعطينا الفكرة عن أهمية الأدب والاسلوب ، أننا إذا أردنا أن نوجه الشباب التوجيه الاسلامي العميق ، فعلينا أن نتسلح لذلك ، وأن نعد له عدته ، وأن نستوفي تلك الشروط التي كانت لكل زمان ومكان ، وهي لاتزال لها قيمتها وأهميتها وتأثيرها ، وهو إحداث مكتبة اسلامية علمية ، تلائم عقلية الشباب وتؤثر فيها ، ويتقبلها الشباب بقبول حسن بل يتشوقون اليها ويمدون اليها يدهم ، فإذا وفينا هذه الشروط فإني واثق بأن الشباب مستعدون ليكونوا لا مؤمنين بهذه الفكرة فحسب ، بل دعاة متحمسين لهذه الفكرة والدعوة ، متفانين فيها ، متهالكين عليها ، لايعدلون بها شيئاً » .

ومساء هذا اليوم حضر الوفد حفلة العشاء التي أقامها سعادة الأستاذ محمد ميمش القائم بالأعمال في السفارة السعودية في عمان ،

تكريماً للوفد ، وحضرها عدد كبير من الأعيان والفضلاء والشخصيات الاسلامية ورجال السلك السياسي .

من عمان الى الكرك

كان يوم الاحد ١٩/٨/١٩٧٣ م من أزخر الأيام في الاردن بالزيارات والتنقلات ، وأغناها مشاهدات أثرية وتاريخية .

توجهنا في الساعة السادسة والنصف صباحاً إلى الكرك ، يرافقنا الأستاذ عبد خلف وكيل الوزارة ، وله خبرة فائقة واطلاع واسع على المشاهد والآثار ، والسيرة والتاريخ ، وهو كثير التردد الى هذه الأمكنة ، لأن قريته تقع بجوار هذه الامكنة ، وزادت هذه الزيارة قيمة علمية وأثرية مرافقة الأستاذ رفيق وفا الدجاني العالم الأثري الكبير الذي سبق ذكره في زيارة الكهف ، فكانت زيارة تجمع بين المتعة والتسلية ، والدراسة والعبرة ، فسّرت لنا شيئا كثيرا مما قرأناه في كتب السيرة والتاريخ ، وكتب الجغرافية والآثار ، لم نكن لنعرف حقيقته وما اكتنفه من أجواء وحوادث ، لو لم نشاهد هذه الأمكنة التي تتصل بهذه الحوادث والحروب والمعارك مشاهدة عيان تحت قيادة أصحاب الاختصاص ودلالتهم ، ولو قرأنا خمسين كتابا في هذا الموضوع فضلاً عن تأثير المكان في النفس والقلب ، ومايوحيه من معان ويبعثه من شعور ، وقديماً قالت العرب : « ليس الخبر كالمعاينة » .

حديث الى الجنود المرابطين

بدأنا بزيارة مركز القوات المسلحة لاحدى الدول الاسلامية الكبيرة ، وقد طلب منا ونحن في عمان أن نزور هذه الثكنة ، ونخاطب الجنود المرابطين في ثغر كبير حساس ، وقد شكرنا هذه الثقة الغالية والتقدير الكبير من قادة هذه المنطقة ، وكانت أول تجربة لي في حياتي أزور فيها القوات المسلحة لحكومة اسلامية كبيرة ، واخاطب فيها المجاهدين المرابطين الذين وهبوا نفوسهم وأجسامهم للدفاع عن الاســـلام ، والبلد الاسلامي ، وللذود عن حرمات المسلمين والمقدسات الاسلامية ، ولمواجهة أي خطر يأتي من قبلهم .

ولما اصطف الشباب المسلحون ، وحيونا بتحية اسلامية ، وكان أول منظر رأيته في حياتي غمرتني موجة من سرور وإيمان ونشوة لم يكن لي عهد بها قبل هذا اليوم ، وأخذتني هزة لم أعرفها من قبل ، فأدمعت عيني وفتقت قريحتي ، وتكلمت بلسان القلب قبل أن أتكلم بلسان الفم فقلت :

« إنني نشأت في بيئة دينية علمية ، نشأت بين العلماء وقادة الفكر وحملة الاقلام ، وحضرت حفلات ونوادي يكثر فيها عدد العلماء والخطباء ، وتزينها شخصيات فريدة ، تتزعم العلم وتقود المسلمين ، ولكنني لم أر كاليوم تهتز نفسي ولم ترق ولم تخشع ،

ولم أشعر بسعادة ولذة كما شعرت بها اليوم ، وانني لو استطعت – ولو سمح لي ... لحاولت أن أقبل يد كل جندي منكم ، فانها اليد التي تناضل عن الاسلام ، وتأخذ السلاح لتذود عن الاسلام والمسلمين ، وقد قال الله تعالى : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة [1] » ، وأنتم مرابطون حارسون للبلاد الاسلامية ، حارسون لكرامات المسلمين وأعراض نسائهم وحياة أطفالهم ، وقدسية مساجدهم ، وهدوء مدارسهم ، ومؤسساتهم الدينية التي يشتغلون فيها بعبـــادة الله وذكره ، والدعوة الى الله ، ونشر العلم ، وتعليم الفرائض والسنن ، وتزكية الاخلاق ، وتهذيب النفوس ، فلولا أنتم أيها المرابطون على الثغور الاسلامية ، ولولا رباطكم ومخاطرتكم بنفوسكم وأرواحكم ، ولولا فتوتكم وفروسيتكم لما تمكن المؤذنون برفع صوتهم بالآذان ، ولما سعى المصلون لأداء الفريضة إلى بيوت الله في هدوء وأمان ، ولما كان لنشر العلم ونقل الامانة من جيل إلى جيل مركز ومكان ، ولما استطاع الشيوخ والنساء والضعفـــاء والعجز أن يناموا نوماً هادئاً ، وأن يشتغل التجار بتجاراتهم ، وأهل الصنائع بصنائعهم ، فلكم فضل على كل شعار ديني ، واشتغال علمي ، وعمل مدني ،

---

(١) الآية ٩٥ من سورة النساء .

عرف الناس ذلك أم جهلوا ، وشكروه أو كفروا ، لذلك جاء في حديث أن رسول الله ﷺ قال : « عينان لا تمسها النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله [1] » . وجاء في حديث آخر : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها [2] » . وجاء في حديث آخر : « ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار [3] » . وفي حديث آخر : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها [4] » وقد سمى النبي ﷺ الجهاد ذروة سنام الاسلام ، فقد جاء في حديث صحيح أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل : « ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » قلت : بلى يارسول الله ، قال : « رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد [5] » .

وحكيت لهم قصة من تاريخ الجهاد الاسلامي في شبه القارة

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري والترمذي والنسائي عن أبي عبس مرفوعاً .

(٤) متفق عليه .

(٥) أخرجه الترمذي وأحمد وابن ماجه عن معاذ بن جبل مرفوعاً في حديث طويل ، هذا وكنت قد ذكرت معنى هذه الأحاديث لضعف ذاكرتي ، ولما جاء دور تقييد هذه الكلمة رجعت فنقلتها بحرفها وزدت إليها بعض أحاديث في معناها .

الهندية ، لقائد دعوة التوحيد والجهاد في القرن الثالث عشر الهجري ، السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد ، وهي أنه لما رجع المجاهدون — تحت قيادة أميرهم « السيد أحمد » - من ساحة القتال في إحدى المعارك الكبرى ظافرين منتصرين ، وقد اغبرت وجوههم وثيابهم بالنقع ، حتى تقنعت وجوههم وتنكروا .

وقام الرئيس بهرام خان - من كبار المجاهدين - بالمنديل لينفض النقع عن وجه السيد الامام ، فقال السيد : (مهلاً يا أخا الأفغان ، فإن هذا النقع هو الغبار الذي قال فيه النبي ﷺ : « لايجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم[1] » وما جئنا إلى هنا ، وما تحملنا المشاق الا لأجل هذا الغبار ، فمهلاً يا أخا الأفغان مهلاً) .

ومكث المجاهدون ، ولم ينفضوا هذا الغبار ذلك الحين (٢)

ثم لفت نظر هؤلاء المرابطين إلى نقطتين هامتين : إحداهما اخلاص النية ، والتركيز على إعلاء كلمة الله ، وعلى أن يكون هذا العمل خالصا لوجه الكريم ، ولا يكون من ورائه غرض الا أن تكون كلمة الله هي العليا ، وذكرتهم بالحديث المشهور

---

(١) في السنن .

(٢) اقرأ القصة بتفصيلها ، وأخبار هذا الجهاد العظيم في كتاب المؤلف الحديث « إذا هبت رياح الايمان » . طبع « دار عرفات » : دائي برديي ، الهند ١٣٧٩ هـ ومؤسسة الرسالة في بيروت ١٣٩٤ هـ .

الوارد في الصحاح : « سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءا ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[1] » .

والنقطة الثانية هي التحرز من المعاصي وعن كل ما يغضب الله ويمنع من نصره ، وقد جاء في كتاب وجهه الخليفة الراشد سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى أحد قواده : « وأموه أن لا يكون من شيء من عدوه أشد احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله ، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم[2] » إلى آخر ما حضرني وفتح الله به علي في هذا الموقف الرائع المثير .

وكان تأثير الحديث عميقاً في نفوس المجتمعين ، وقد سجل هذا الحديث ، وأعتقد أن قواتنا المسلحة في كل بلد اسلامي في حاجة ملحة إلى إثارة هذه المعاني ، والوعي الديني ، وما للجهاد من مكانة عند الله وعند رسوله ، وما للشهادة والشهداء من ثواب وفضل ، وما وعد الله عليه من الأجر الجزيل ، وقد كانت خسارة الاسلام والمسلمين فادحة بإهمال هذه الطاقة ، التي ليست فوقها طاقة ،

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) راجع كتاب « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » صفحة ٤٠ - طبع جامعة دمشق سنة ١٩٦٠ م .

وأصبحت الحكومات الاسلامية ، وقوتها الدفاعية والحربية ، والحكومات غير الاسلامية وقوتها الدفاعية والحربية في منزلة سواء ، إذ كان الفارق الأكبر بينها وبين حكومات الدنيا ، ما كان يمتاز به المسلمون من الإيمان والاحتساب ، والطمع في الأجر والثواب ، لذلك يقول الله تعالى مخاطباً المسلمين الأولين : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً » .

وجاء دور الأستاذ الكبير أحمد محمد جمال وهو يمتاز باستحضار الآيات القرآنية ، وحسن الاقتباس منها وحفظ متون أحاديث كثيرة ، فأيد كلمته وزينها باستشهاد بالآيات المناسبة للمقام ، والأحاديث الواردة في فضل الجهاد والرباط ، والشهادة في سبيل الله ، وتلقيت كلمته الفاضلة المؤمنة باستجابة من النفوس ، وحسن استماع وقبول ، وانصرفنا إلى مائدة الفطور ، وغادرنا المركز معجبين بكرم الضيافة ، مأخوذين بالروح الطيبة الاسلامية التي كانت تخلق على هذا المكان والسكان ، داعين لاخواننا المرابطين بنصر الله وتأييده .

وقفة عند شهداء مؤتة

واصلنا سيرنا إلى الأمام فوصلنا إلى مؤتة ، مكان المعركة الاسلامية الكبيرة المنسوبة إليها ، ونحن نقرأ أخبارها وقصص

البطولة الفائقة ، التي تجلت في هذه الغزوة ، وهي على بعد اثني عشر كيلو متر جنوب الكرك ، وسط سهل فسيح ، وكانت هذه الغزوة في السنة الثامنة من الهجرة النبوية[1] . وكان عدد جيش المسلمين في هذه الوقعة ثلاثة آلاف رجل ، وعدد جيش الروم مع العرب المتنصرة ما يقرب مائتي ألف رجل ، واستشهد في المعركة زيد بن حارثة قرب المكان المعروف الآن بالمشهد ، فحمل الراية جعفر بن أبي طالب ، فقطعت يده اليمنى ، فأخذ الراية بيده اليسرى ، فقطعت ، فاحتضن الراية بعضديه ، واستمر يقاتل حتى استشهد ، وبذلك لقب « بجعفر الطيار » ، و « ذي الجناحين » . فأخذ الراية سيدنا عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها ، فقاتل حتى قتل ، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد ، فأخذ الراية ، وقاتل قتال الابطال ، حتى دخل الليل ، وانسحب الروم نحو الشمال ، وانسحب المسلمون نحو الجنوب ، « حتى أرخى الليل سدوله ، ووضع الجيشان السلاح إلى الصباح . أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خطته ، فوزع عدداً غير قليل من رجاله في خط طويل من مؤخرة جيشه ، أحدثوا اذا أصبح

---

(١) اقرأ القصة بنصها وفصها والأسباب التي دفعت إليها في سيرة ابن هشام صفحة ٣٧٣ - ٣٨٩ ج ٣ طبع مصطفى البابي الحلبي مصر ، الطبعة الثانية ، وفي كتب المغازي والسير .

الناس من الضجة ما أدخل في روع عدوه أن مددا جاءه من عند النبي ﷺ ، وإذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل في اليوم الأول ، وقتلوا منهم خلقا كثيراً ، وان لم يستطيعوا أن يصمدوا ، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذي جاء لا يدري أحد عدته ! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد وسروا بعدم مهاجمته اياهم ، وكانوا أكثر سرورا بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون ، وإن كان حقاً كذلك أن عدوهم لم ينتصر عليهم فيها (١) » .

وقد وقفنا خاشعين أمام هذه الوقعة ومكانها ، مؤمنين بعلو همة هؤلاء الأبطال الذين جاؤوا من المدينة إلى مؤتة ، في منطقة مؤاب ، في بلد تحكمه أقوى دولة في الأرض ، وأغناها جيوشاً وميرة ، ووسائل حربية ، والمسافة بين المدينة ومؤتة (١١٠٠) كيلو متر تقريباً ، وقد قطعوها على ظهور الإبل والخيل ، وانقطع عنهم المدد والميرة والخبر بعدما خرجوا من بلدهم ، وهم يدخلون في لهوات العدو وفي فكيه يفعل بهم ما يشاء ، وقد جاء في سيرة ابن هشام : « ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل قد بلغ مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من

---

(١) العبارة بين العمودين مقتبسة من كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل صفحة : ٣٧٧ .

الروم ، وانضم اليهم من لخم وجذام ، والقين ، والبهراء ، وبلي مائة ألف منهم ... فلما بلـــغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا بأمره فنمضي ، قال : فشجع الناس عبد الله بن رواحة ، فقال : ياقوم ، والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنمـــا هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور وأما شهادة ، قال : فقال الناس : قد ـ والله ـ صدق ابن رواحة ، فمضى الناس (١) » .

وكان ما كان من أمر القتال وشهادة قادة المسلمين الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، رضي الله عنهم وارضاهم ، وأجزل مثوبتهم ، وهـذا نموذج من العقل المؤمن ، والتفكير الإيماني ، تحلى به المسلمون الأولون ، وتجرد عنه المتأخرون والمعـاصرون ، فكان ما كان من الفرق الواسع الواضح الذي نكتوي بناره ونستظل بعاره .

وقد زرنا قبور القادة الثلاثة ، وهم دفنوا في مواضع شهادتهم ، وزرنا مسجد سيدنا جعفر بن أبي طالب ، وقفنا على قبره نستحضر

---

(١) سيرة ابن هشام الجزء الثالث صفحة : ٣٧٥ .

بطولته الفريدة في تاريخ البطولات والشجاعة ، وقد بني هذا المسجد والقباب العالية فوق الأضرحة في العهد الهاشمي ، ولهذه المشاهد تاريخ يطلع عليه الزائر في النشرات التي تقدمها مصلحة الآثار ، وزرنا قبر رفيقيه ، وزميليه في البطولة والشهادة ، ودعونا لهم ، وصغرت في عيوننا نفوسنا واحتقرناها .

الآثار التاريخية في مؤتة

وبجوار سيدنا جعفر وبمدخله متحف اسلامي لا يزال في دور التكوين ، وفي حالة بدائية ، عرضت فيه آثار ومخطوطات اسلامية ، أنشأته وتديره وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية ، وقيل ان عمارة هذا المتحف يرجع تاريخها إلى زمن الملك الناصر ابن قلاوون ، قد بناه نائب السلطنة في الشوبك والكرك بهادر البدري المالكي الناصري في عام ٧٢٧ هـ ، وفي المتحف معروضات اسلامية من مجموعة الأستاذ محمود الأفغاني وغيره .

في الطريق الى البتراء

خرجنا من منطقة مؤتة متوجهين إلى « البتراء » و « معان » ، فمررنا في طريقنا بقرية « لحظة » وبها عين مـــاء معدني للرمل وإصلاح الجهاز الهضمي ، ومررنا بقرية « ضانـة » ، وقضينا في الشوبك بعض الوقت ، وزرنا المـدرسة الثانوية الزراعية فيهـا ، ومررنا بوادي « عربة » .

استرحنا بعد الغداء ساعة ، وصلينا العصر لنستعد لجولة أثرية سياحية تحتاج إلى نشاط وهمة ، ثم توجهنا إلى البتراء (١) المدينة القديمة التي يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين ، وهي من انشاء الانباط العرب ، وهي مدينة محفورة في الجبال ، كالحجر ومدائن صالح ، ويلاحظ بعض الأثريين أنها أرقى صناعة ، وأبدع حفراً ونحتاً وأكثر تنظيما من آثار ثمود .

وقد سارت بنا سياراتنا في نفق طويل غير مسقف يرى فيه الانسان السماء ، وفي طريق محفورة في الجبل يمتد على عدة كيلو مترات ، وينعطف ويلتوي مرارا ، ووقف بجانبيه جبلان شامخان ، ثم دخلنا في مدينة منسقة تحتوي على جميع مظاهر المدنية من قصور وايوانات ، ومحكمة وسوق ، وشوارع مبلطة ، وكلها حفر

---

(١) هكذا ينطق بها الاردنيون ، وقد ضبطها المؤرخون والجغرافيون القدامى « ببطراء » و « بطرة » وذهب بعض المحققين إلى أنه الموضع الذي سماه العبرانيون بـ « سلع » وورد ذكره في أشعيا ١ — ١٦ وملوك ثان ١٤ — ٧ . وإنها القصبة العربية الصخرية المشهورة عند الرومانيين واليونانيين ، وقد أنشأها الأنباط ، وهم من أصل عربي قبل آلاف من السنين ، وقد بلغوا في المدنية والصناعة شأواً بعيداً ، وكان بينهم الشعراء والأطباء والتجار الكبار الذين كانوا يرحلون إلى مصر والشام وبلاد الفرات وروما ، وكانوا مع ذلك وثنيين ، يعبدون الأصنام منها اللات التي استوردها أهل شمالي الحجاز وجعلوها من أصنامهم الرئيسية .

ونحن في الجبل ، ونحن نمشي في قيادة الاستاذ رفيق وفا الدجاني يـ
يشرح لنا الآثار وهندستها ، والغايات التي أنشـأت لها ، ولولا
هو لما استفدنا من هـذه الجولة الأثرية ، وشعرنا بأننا نمشي في
نفق مظلم لا ضوء فيه .

ولم نستوعب هذه المدينة الواسعة ، ولم يكن ذلك بوسعنا في
هذا الوقت الضيق ، فإن مسـاحة البتراء ٣٠ كيلو متر مربعاً ،
فرجعنا وقد جمعنا بين العلم والعبرة ، واستحضرنا قوله تعالى وتمثلناه
بأعيننا : « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين[1] » .

رجعنا إلى عمان في الليل ، وقد قطعنا مسافة طويلة من أطول
مسافة قطعناها في السيارات في يوم واحد ، وقد أتخمنا من المعلومات
والانطباعات والذكريات .

مغادرة عمان

كان يوم الاثنين ١٩٧٣/٨/٢٠ م هو اليوم الأخير الذي نغادر
فيه عمان قافلين إلى الهند . وكان موعد اقلاع الطائرة الساعة الرابعة
والنصف عصراً تقريباً ، وقد أكرمنا الأصدقاء والاخـــوان
بالزيارة والتوديع ، كان من بينهم الشيخ أسعد الحسيني خطيب
المسجد الأقصى سابقاً ، وجلس معنا ساعة ، وتحدث بحديث أثار
الشجون ، وأدمع العيون ، وزارنا الأستاذ تيسير ظبيان رئيس

---

(١) الآية ١٤٩ من سورة الشعراء .

رابطة العلوم الاسلامية في جماعة من أهل العلم والثقافة ، وزارنا وفد تركي من قبرص ، شرح لنا الوضع الحالي في هذا البلد ، الذي يمر بمرحلة قاسية انتقالية ، يكافح فيه المسلمون الاتراك للاحتفاظ بشخصيتهم الاسلامية ، وكيانهم القومي .

وكان الأستاذ كامل الشريف أقام حفلة غداء باسم المؤتمر الاسلامي في المجمّع تكريما للوفد ، فحضرناه واجتمعنا ببعض الشخصيات العلمية والدينية ، التي لم نحظ بلقائها في هذه الأيام المعدودة المحدودة المزدحمة بالبرامج ، مثل الشيخ عبد العزيز الخياط عميد كلية الشريعة وغيره .

وشرف معالي الدكتور إسحاق فرحان مضيفنا الكريم في الفندق للتوديع ، وحضر بعض الاساتذة والسادة ، وتوجهنا بعد استراحة قصيرة إلى المطار ، وكان في تشييع الوفد الصديق الفاضل والمرافق الحبيب الذي ترك في نفوسنا أثراً عميقاً وارتسامات طيبة ، الدكتور عبد الله عزام ، وصديقنا القديم الدكتور أديب صالح ، رئيس تحرير مجلة « حضارة الاسلام » الدمشقية ، وأستاذ كلية الشريعة في الجامعة السورية ، وهو يشتغل أستاذاً زائراً في كلية الشريعة في عمان ، وقد تقابلنا على فترة طويلة ، وسعادة الأستاذ محمد ميمش القائم بالأعمال في السفارة السعودية ، وسعادة الأستاذ كامل الشريف ، جزى الله الجميع عنا أفضل الجزاء ، وجمعنا على أحسن حال .

جامعة الملك عبدالعزيز - المكتبة
رقم الاعادة | اسم المستعير

فهرس

كلمة بين يدي الكتاب ٣
في أرض الغزاة والفاتحين ٧
في أرض النوابغ والشعراء ٦٧
في لبنان ملتقى الشرق والغرب ١١٥
زيارة خاطفة لدمشق ١٤٩
في عاصمة الرشيد ١٦٧
في أرض الشهداء والمرابطين ١٩٥